مكتبة المحبة

سلسة دراسات قبطية متعمقة

إلى كل الباحثين والدارسين والخدام والشعب :

تاريخ الكنيسة المصرية

تأليف

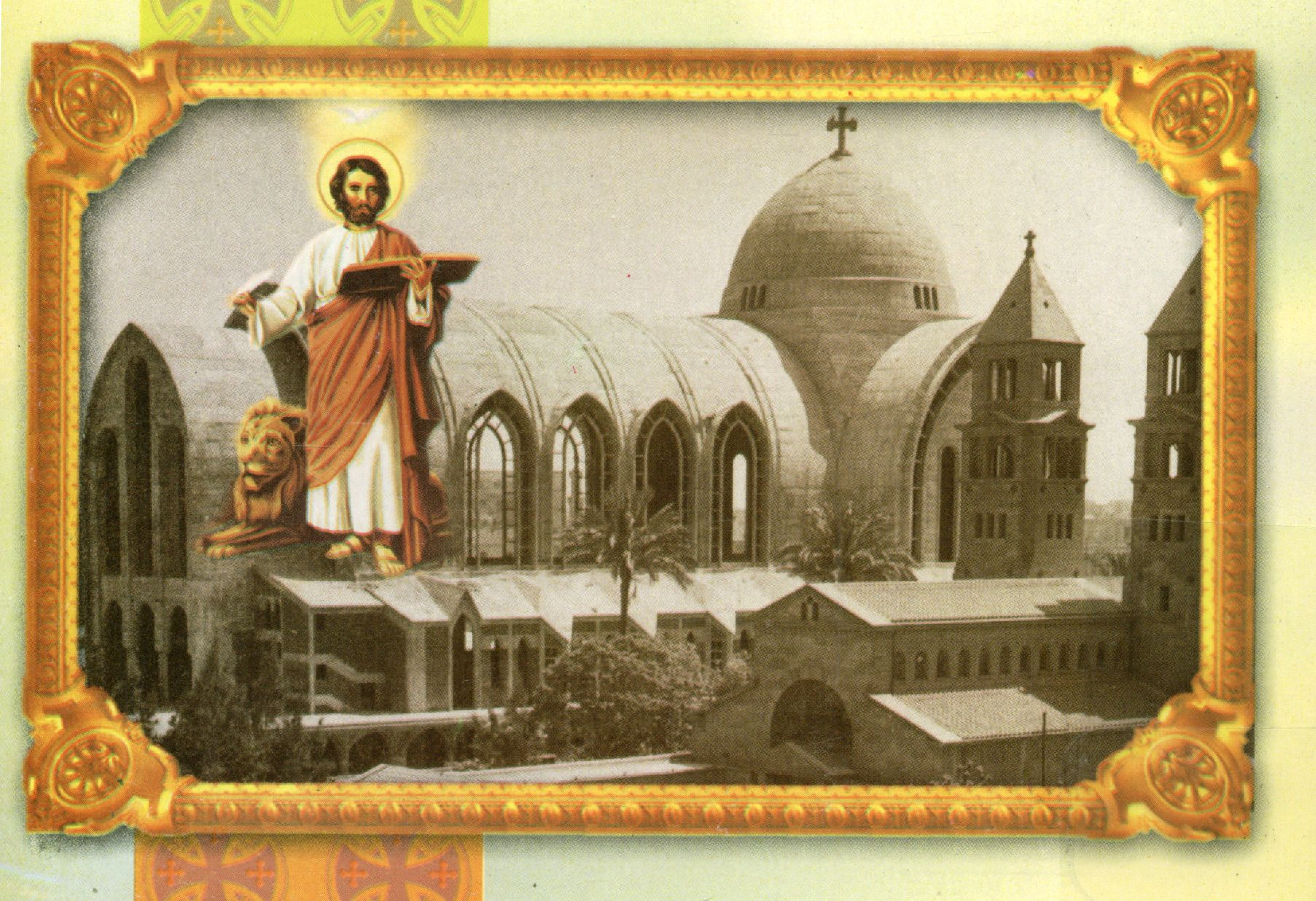
الكاتبة الإنجليزية لويزا بوتشر

(الجزءان فى مجلد واحد)

The Story of The Church of Egypt

by: Louisa Edith Butcher

(1897)



ترجمة وتلخيص وتعليق:

دياكون د. ميخائيل مكسى إسكندر

مكتبـــة المحـــبة

سلسلة دراسات قبطية متعمقة

إلي كل الباحثين والدارسين والخدام والشعب:

تاريـــخ الكنيســـة المصـــرية

تأليـــف

الكاتبة الإنجليزية لويزا بوتشر

The Story of The Church of Egypt

by: Louisa Edith Butcher

(1897)

(الجزءان في مجلد واحد)

ترجمة وتلخيص وتعليق:

دياكون د. ميخائيل مكسي إسكندر

٥/٢٥٤

اسم الكتاب : تاريخ الكنيسة المصرية
المؤلفة : لويزا بوتشر
ترجمة وتلخيص وتعليق: دياكون د. ميخائيل مكسي اسكندر
الناشر : مكتبة المحبة
الطبعة : الأولى
الكمبيوتر ريمونتيكو للكمبيوتر : ٥٦٢١٧٦٢
المطبعة : شركة هارموني للطباعة ت: ٦١٠٠٤٦٤
رقم الإيداع بدار الكتب: ٥٩٩٠/٢٠٠٤

977.12.0780.6

Mahabba5@hotmail.com



قداسة البابا المعظم
الأنبا شنوده الثالث
بابا الأسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية

كلمة عن المؤلفة

هذا الكتاب هو لباحثة انجليزية عاشت في مصر عشرين سنة، واستخرجت من مخطوطاتها - ومصادر تاريخها - تاريخاً كاملاً للكنيسة القبطية، حتي زمانها (في نهاية القرن الـ ١٩).

وقد استخدمت الكاتبة العديد من المراجع الأجنبية، التي تضم معلومات كثيرة لا نجد لها مثيلاً في المصادر القبطية التاريخية، والتي سبق لنا نشر بعضها. ولهذا فهو مفيد للدارسين والباحثين، ومُحبّي التاريخ الكنسي بصفة عامة. وإن كانت تميل في بعض آرائها إلي التطرف المذهبي أحياناً، لهذا كان من الواجب علينا تقديم النقد العلمي والمعلومات التاريخية الصحيحة للقاريء للفائدة العامة.

وقد تم تبسيط وتلخيص الجزئين من الكتاب الأصلي في مجلد واحد كالعادة، ووضعها في صورة مُنسقة، يسهّل علي جميع المستويات والأعمار والثقافات قراءتها، والاستفادة بها، ولاستكمال المعلومات التي وردت في الكتب التي أصدرناها أخيراً، من كتب التراث القبطي الهامة.

ونرجو أن يكون سبب نفع للكل، بصلوات **قداسة البابا شنودة الثالث**، وشريكه في الخدمة الرسولية نيافة الحبر الجليل **الأنبا متاؤس**، أسقف ورئيس دير السريان العامر، والمشرف علي هذه السلسلة، من الدراسات آمين.

دياكون
د. ميخائيل مكسي اسكندر

الجيزة في ٢٢/١١/٢٠٠٣
(تذكار رئيس الملائكة ميخائيل)

مقدمة المؤلفة

إن الغرض الذي لأجله وضعت هذا الكتاب هو تقديم خلاصة ما ذكره المؤرخون والباحثون، عن بقية الأمة المصرية القديمة، وهم الأقباط، وما عانوه من المستعمرين حتي الآن.

كما كانت رغبتي من تأليفه تقديم مادة للدارسين لهذه الأمة القديمة، ولإقامتي في مصر مدة عشرين سنة، طُفت فيها القري> ورأيت فيها المسيحيين **الأقباط**، الذين لازالوا يتمسكون بالعقائد والتقاليد القديمة، المنقولة عن الآباء الأولين (وهي مقولة حق وصدق).

وتاريخ الكنيسة القبطية قد كتبه كثيرون من أعظم رجالها الأولين، بداية بما كتبه الأنبا ساويرس أسقف الأشمونين (بمركز ملوي بالمنيا) في النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي[١] واستكمله الأنبا ميخائيل أسقف تانيس (بالشرقية) الي عام ١٢٤٣م، وبقيت نسخة منه بمكتبة باريس.

وقد أخذت هذا التاريخ من عدة مؤلفات كثيرة، بينها كتابان قبطيان عظيما القيمة!! اعتمدت عليهما في أكثر الحقائق الثي نقلّتها.

ولا يسعني سوي الثناء الكثير لمرقس بك سميكة (مؤسس ومدير المتحف القبطي الراحل) والاستاذ فولر بدار الكتب المصرية> ولشريك حياتي، الذي أخذ بيدي ومهّد لي سبيل الصعوبات الكثيرة التي أعترضتني في طريقي، ولازلت مدينةً له بكل هذه الأعمال[٢].

مسز ل.إ بوتشر
(L.E, Butcher)

(١) راجع كتابنا له نشر وطبع مكتبة المحبة، بعنوان «تاريخ البطاركة».

(٢) تمت الاستعانة بترجمة للمرحوم اسكندر تادرس، ونشر المرحوم تادرس المنقبادي (القاهرة ١٩٠٦)

الجـــزء الأول

الفصل الأول

مجـــيء أغسطـس قيـصر لمصـــر

● **مقدمة عامة:**

+ في عهد هذا الامبراطور الذي ضم مصر لروما، شهدت مجيئه أولاً، ثم مجيء السيد المسيح – مع العائلة المقدسة – ثم مجيء القديس مارمرقس الرسول اليها (نحو عام ٥٦ م).

+ وكانت مصر في ذلك الوقت تشمل ثلاثة أجناس: **المصريون، واليونان، واليهود**، مع قلة من طبقة الرومان الحكام، حيث كانت القوانين الرومانية تحدّ من إقامتهم بها، إذ كانت مصر مجرد اقليم خاص، تابع مباشرة للإمبراطور الروماني!!

+ وقد زادت هجرة اليهود منذ عصر البطالمة خلفاء وقواد الاسكندر. وكان الأغريق لا يرضخون لسيادة الرومان وقيادتهم إلا ظاهرياً، ومالوا للتجارة والآداب وسادت لغتهم في الأعمال الرسمية.

+ وكانت الإسكندرية هي أم المدن اليونانية في مصر. وهي باريس العالم القديم، وقد انحطت مدينة ممفيس (منف) المصرية القديمة، وكذلك صارت مدينة العلم «هليوبوليس» (عين شمس) مجرد أطلال. وكان يسكنها أفلاطون من قبل!!

+ وقد أتسعت مدينة بابيلون، التي وضع أساسها الفُرس، إلي أن جاء الرومان، فزادوا من عظمتها بانشاء الحصون والمباني الواسعة بها .وسكن بها بعض اليهود أيضاً.

+ وصارت مدينتا طيبة (الأقصر) وأبيدوس (بالمنيا) منحطتين إلي مستوي قريتين صغيرتين. وأما قورينا (Cyrene) فقد كانت مستعمرة يونانية تابعة لمصر - منذ أكثر من ٢٠٠ سنة، وكانت زاهرة بمدرستها الجامعة، وتجارتها الواسعة. واستمرت كذلك حتي نهاية القرن ٤م[١].

• الحالة الدينية (في القرن الأول):

+ كانت كل الطوائف المصرية واليونانية واليهودية متمسكة بديانتها، غير أن المصريين واليهود كانوا أشد تمسكاً وتعصباً من اليونان (الإغريق)، الذين شاع بينهم إنكار الألوهية، ونبذ معتقداتهم الدينية القديمة (الوثنية) وعدم الاكتراث، سواء بمعبوداتهم، أو بامبراطوريتهم السابقة.

+ وحاول بطليموس سوتير إيجاد معبود مشترك يعبده المصريون واليونان. فبني في الإسكندرية معبد «سيرابيس» وظل الحال كذلك إلي دخول المسيحية (عام ٥٦ م).

+ وكانت ديانة المصريين القديمة قد اختفت بمعانيها الروحية والأدبية وأصبحت البهائم والطيور شعاراً للأقاليم المصرية، وسبباً في نزاعات محلية بينها.

+ وكان بعض الكهنة وخواص الشعب المصري لا يزالون يؤمنون بإله واحد ممثلاً في ثلاث أشخاص، وأنه مصدر الخير. أما بقية الآلهة فلم تكن

---

(١) للمزيد عنها راجع كتابنا: «تاريخ كنيسة الخمس المدن الغربية» {Cyrenaica = Pentapolis} طبع مطرانية البحيرة سنة ١٩٨٧م، وطبعة ثانية لمؤسسة مارمرقس (٢٠٠٤).

سوي «رمز» عن مظاهره وتجلياته المتعددة. وكانوا يترفعون عن الدخول في منافسات مع العامة بشأن الطيور والحيوانات التي حلت محل الدين عندهم.

+ وكان المصريون المتدينون لا يهتمون بمظاهر الدين الخارجية. وقالوا هذا المثل: «ليس بالكتان الأبيض، وقص الشعر، تكون تقوًي إيزيس» (الاهتمام بالجوهر أكثر من المظهر).

+ ولما انحطت العبادة المصرية مالوا إلي تحضير الأرواح، في نظير أجر من الطالب، وظلت تلك الممارسات إلي فترات طويلة من التاريخ المصري.

• الصناعات المصرية القديمة:

+ استخرجوا المعادن وضربوا النقود، ومصانع للأدوية والورق والحرير والزجاج، كما تقدمت الزراعة وصناعات المنسوجات الكتانية والقطن، وصناعة النبيذ والبيرة.

+ وكانت التجارة تأتي من التجار إلي ميناء برنيس علي البحر الأحمر، وإن كانت قد قلت الصلة بين مصر والسودان في عهد الرومان، حيث لم يمتد غزوهم إلا إلي وادي حلفا.

+ وقد زادت هجرات اليهود لمصر، حتي بلغوا نحو المليون. وكان أكثرهم في الإسكندرية، حيث اختصوا بقسمين كاملين من أقسامها الخمسة. وكذلك أقامُوا في عين شمس (Heliopolis) وبابيلون.

+ وساد الصراع بين اليهود واليونان في الإسكندرية، ووفد زعيمهم «فيلو» الفليسوف اليهودي في القرن الأول، وزعيم اليونان الاسكندري أبيون، إلي الامبراطور الروماني «كاليجولا» في روما، لعرض شكواهما - الخاصة بهما - أمامه.

الفصل الثاني

مجيء السيد المسيح إلي مصر

+ جاءت العائلة المقدسة عبر سيناء إلي الدلتا. وبعد ذلك وصلت إلي "بابيلون".
وقد ذكر المؤرخ ديودور الصقلي أنه قد سكنها بعض الأسري البابليين، الذين جلبهم رمسيس الثاني. وسكنوا في مستعمرة – أمام ممفيس – ودعوها علي إسم عاصمة بلادهم (بابل).

+ وكتب يوحنا اليهودي من نقيوس(١) في القرن السابع الميلادي، عن الحصن الذي أنشأه الملك نبوخذ نصر، بعد استيلائه علي مصر. ثم نفي اليهود لمصر، بعد هدم هيكل أورشليم، وأقام بعضهم هناك. وقد وصفه استرابون الجغرافي الروماني. ولا تزال أطلال القلعة التي شيدها تراجان (نحو ١٠٠ – ١١٧م) تقع في نفس المكان.

+ ويُقال إن المعبد اليهودي الحالي هو من بقايا معبد (كنيس) قديم يرجع إلي زمن إرميا النبي. وأشار المقريزي – نقلاً عن مصادر قبطية – إلي وجود نسخة به من التوراة كتبها عزرا النبي. ويقول اليهود إن به عظام إرميا النبي!!

+ وقد جاءت العائلة المقدسة إلي بابيلون، واختبأت في مغارة كنيسة القديسين سرجيوس وواخس (أبي سرجة)(٢).

---

(١) يوحنا النيقوسي كان **مسيحياً** وكان أسقفاً لبلدة نقيوس بالمنوفية. وكتابه بعنوان «تاريخ الكنيسة» (Jean de Nikiou, Histoire Eccles, ed. Zotenberg)

(٢) مع أن الكاتبة تشكك في مجيء العائلة المقدسة لهذه المنطقة، لكنها تؤيد وجود جماعة من اليهود كانت تعيش هناك. هذا وقد اعتادت العائلة المقدسة (القديس يوسف النجار وأم النور وسالومي مع الطفل يسوع) الذهاب الي مناطق يقيم فيها يهود، مثل عين شمس وغيرها بالوجهين.

+ ولم تهتم السيدة بوتشر بذكر خط سير العائلة المقدسة بالتفصيل، وخاصة في الوجه القبلي، ولكنها تختم هذا الفصل بقولها: «أختلف الباحثون – من شرقيين وغربيين – في تقدير مدة بقاء السيد المسيح في مصر، فذهب بعضهم إلي أنها ستة أشهر فقط، وقال آخرون أنها ما بين سنتين وأربع سنين إلي ٦ سنوات[١].

✣ ✣ ✣

الفصل الثالث

كرازة (بشارة) مارمرقس الانجيلي بمصر سنة ٤٥م

+ ثبت من الاجماع أن مؤسس كنيسة مصر هو القديس مرقس الانجيلي، غير أن السنة التي جاء فيها إلي مصر، لم يُتفَق علي تحديدها أتفاقاً تاماً (راجع هذا الموضوع في كتابنا «تاريخ كنيسة الخمس المدن الغربية» طبع مطرانية البحيرة سنة ١٩٨٧، وقد أثبتنا فيه أنه جاء لمصر سنة ٥٦م).

+ والظاهر أن الرسول بطرس قد رافقه إلي بابيلون (مصر القديمة)، وهناك كتب رسالته الأولي، ولكن لا دليل علي ذلك.

+ أما مار مرقس نفسه، فقد ذُكر – في التواريخ المصرية – أنه وُلد باقليم الخمس المدن الغربية (Pentapolis) علي حدود مصر الغربية، وكان تابعاً لحكم مصر منذ عهد بطليموس الأول[٢].

(١) والأرجح ٤ سنوات، راجع كتابنا «المسيح في مصر» طبع مكتبة المحبة».

(٢) والأصح من عهد الاسكندر المقدوني حيث أنضم اليه سكانها اليونان طواعيةً، بعد الاستيلاء علي مصر (في القرن ٤ ق.م).

+ وكان مرقس من عائلة يهودية غنية في بنتابوليس (ليبيا الشرقية) وقد أغارت قبائل البدو (البربر) عليها ونهبت أموالها وأمتعتها.

+ وكان أبوه كريستوبولس (والأصح أرسطوبولس) قد هاجر إلي فلسطين واستقر قرب أورشليم، حيث ناسبت هذه العائلة القديس بطرس الرسول، وتتلمذ مرقس الشاب علي يديه.

+ وأنهما حضرا إلي مصر من الشام الي هليوبولس (عين شمس) ومنها إلي بابيلون، وكتب مارمرقس انجيله في مصر، خلال مدة إقامتهما معاً في بابيلون (مصر القديمة) ثم توجَّه مارمرقس الي الخمس المدن الغربية وبشر بها، بينما عاد القديس بطرس إلي فلسطين[١].

+ وأول من آمن بالمسيحية بمصر هو اسكافي اسمه **انيانوس**. والظاهر أنه شفاه من مرض صعب، فأخذه معه الي بيته، ثم أعتنق المسيحية وتبعه جمع كثير[٢].

+ ولما رجع مارمرقس إلي فلسطين، وكان ذلك في الغالب قبل نهاية سنة ٤٩م رسم انيانوس أسقفاً ومعه ٣ قسوس، ٧ شمامسة (deacons) .

+ وفي عام ٥٠م اجتمع بطرس ومرقس ـ في فلسطين –ليحضرا مجمع أورشليم (وكان هذا المجمع ـ حسب رأي كثير من المؤرخين بين سنة ٥٢ – ٥٣م).

+ وذهب مارمرقس مع (خاله) برنابا الي قبرص، وإلي هنا لم يذكر عنهما

(١) والأصح أن مارمرقس ذهب أولاً إلي ليبيا، ثم جاء الي مصر نحو عام ٥٦م (راجع كتابنا تاريخ كنيسة الخمس المدن الغربية).

(٢) راجع قصة لقاء مارمرقس مع الإسكافي في كتابنا المذكور.

سفر أعمال الرسل شيئاً، ولكن يُرّجح كثيراً أن مارمرقس ذهب إلي «قيرين» (Cyrene) {إحدي المدن الخمس الغربية} [١].

+ ثم عاد مارمرقس من ليبيا إلي مصر، كما وردت في التواريخ المصرية. ويؤخذ من أقوال المؤرخين القُدامَي أنه بقي بالإسكندرية إلي آخر حياته.

+ ويُقال إنه في هذه الأثناء شُيِّدَت الكنيسة الأولي في الإسكندرية (تحت الأرض) في مكان يُقال له بوكاليا (Buccalia) وقد حمل ها الاسم - في رأي استرابون المؤرخ - إلي أنه كان مكاناً لرعي البقر (= Bucca).

+ ويبدو أن مارمرقس قد استشهد في السنة الثانية لحكم نيرون، أي في أوائل سنة ٦٢م، والدليل علي ذلك أن عيد الإلهة «سيرابيس» كان يوم ٢٥ أبريل، وأنه اتفق في هذه السنة مع عيد القيامة المجيد[٢].

+ وأن القديس مرقس قد جاهر باعتبار الاحتفال بعيد سيرابيس عادة وثنية شريرة، فأهاج بذلك سخط الوثنيين بالإسكندرية، كما تضايقوا من سرعة انتشار المسيحية هناك. فقبضوا علي الرسول وربطوه في عنقه بحبل وجرّوه في معظم شوارع المدينة، إلي أن حل الليل، فحبسوه في السجن، وهناك ظهر له ملاك الرب - في رؤيا - وقوّاه وشدد عزائمه (وفي الرواية

((١) الاسم السليم «قيرين» وليس «القيروان» لأن الأخيرة بناها عقبة بن نافع (في تونس) سنة ٧٠٠ م، ويجب أن يصحح الاسم علي ذلك فنقول: سمعان القيريني» أو «القرياني»، كما ذكره ابن كبر وابن المقفع والترجمة الكاثوليكية للكتاب المقدس.

(٢) هناك إجماع في مصر علي أن القديس مرقس الرسول استشهد سنة ٦٨م، بعد شهادة الرسولين بطرس وبولس في روما سنة ٦٧م.

القبطية أن الرب يسوع ظهر له أيضاً وأعلمه باستشهاده ووعده بالإكليل).

+ ولما أصبح يوم الأحد عاد الوثنيون الي السجن، فأخذوه مكتوف الأيدي، وطافوا به حول المدينة - في موكب الإلهة سيرابيس - إلي أن أسلم الروح، وتم دفنه في كنيسة بوكاليا[1] ومن ذلك العهد كان لا يتم رسامة بطاركة الكنيسة المصرية إلا علي قبره المجيد، واستمرت هذه العادة مُتبعة - قروناً عديدة - بعد ذلك.

+ وقد حافظت الكنيسة القبطية المصرية - التي أسسها مارمرقس - إلي الآن علي نظامها وطقوسها الأصلية، أكثر مما حافظت عليه أية كنيسة أخري، من عهد مؤسسها إلي اليوم (وهي شهادة صادقة).

+ وقد نقلت الكنيسة عن الفراعنة ارتداء الملابس الكتانية (التونية) البيضاء في العبادة، وكذلك حافظت علي استعمال العروسين لخاتم الزواج الفرعوني الأصل، كما صارت الأصوام القبطية أكثر من نصف العام، وبزّهدٍ كبير (للتدريب الروحي، مع باقي وسائط النعمة).

+ ولا نوافق الكاتبة أن الرهبانية - التي بدأت في رأيها في منتصف القرن ٢م - قد اقتُبست من الديانة الفرعونية الوثنية، التي كانت تدعو إلي الخلوة، وللتنُسك والصلاة والصوم. ولكنها عادة مسيحية مؤيدة بنصوص كتابية، ومن سير الرسل، ومن محبة الله، التي تدعو للإختلاء به، وعبادته طول الوقت، وغيرها مما لا يتسع له المجال الآن.

+ ثم تضيف - مقولة حق وصدق - بأن الرهبنة المصرية قد انتقلت بقوانينها ونُظمها من مصر، إلي كل العالم المسيحي (وخاصة في أوربا).

✣ ✣ ✣

(١) راجع كيفية استشهاد القديس مرقس الرسول في كتابنا السابق، ومن هم الذين تسببوا في موته.

الفصل الرابع

بطريرك واحد وسبعة قياصرة

+ كان أنيانوس خليفة مارمرقس، قد رسمه الرسول سنة ٦٢م، وساس الكنيسة بحكمة مدة ٢٢ سنة.

+ وفي أيامه تولي عرش الأمبراطورية الرومانية ٧ أباطرة وهم نيرون الظالم (ومات بعد ٦ سنوات من تولي أنيانوس الكرسي المرقسي). ثم جالبا، وأتو، وفيتليوس، وفسبسيان، وتيطس، ودومتيان.

+ وقد خفف الامبراطور طيباريوس من المظالم التي فرضها نيرون، وكان منشوره باللغة اليونانية - وليست اللاتينية، مما يدل علي أن الدولة الرومانية لم تكن لها السيادة علي مصر إلا بالاسم فقط، ولم يكن يهُم الأباطرة الرومان سوي خراج (ضرائب) مصر.

+ ولما سقطت أورشليم بيد تيطس هاجر كثيرون من اليهود الي مصر وليبيا، وقد ثاروا علي الرومان في الإسكندرية، فتم القبض علي العديد من اليهود وقتلهم، كما قتلوا العديد منهم في ليبيا، مما يرجح معه المورخون المسيحيون الأوائل أن مدة رئاسة البطريرك الثاني أنيانوس لم تكن فترة سلام للكنيسة المصرية[١].

+ وفي عهد دومتيانوس تنيَّح البطريرك أنيانوس، وخلفه أبيليوس (ميليوس) علي الكرسي المرقسي.

+ وعلي أية حال كانت حالة الكنيسة المصرية علي ما يُرام، وكانت تامة في الامتداد، والانتشار بسرعة كبيرة داخل مصر.

---

(١) سير البطاركة الأقباط الأربعة الأوائل مقتضبة جداً في المصادر القبطية.

الفصل الخامس

روّاد النيل في القرن الثاني (٩٨م)

+ قام تراچان ببنـاء قلعة بابيلون القديمة، والتي تُعرف بقاياها الآن (في عـهد الكاتبة ١٨٩٧م) باسم «قصـر الشمـع» وتضم أقـدم الكنائس في القاهرة.

+ وفي عــهده ثار اليـهود في مـصر وليـبيا، حـتي تمت أبادة آلاف منهم وأدركـوا أنه لا أمل في إقـامـة الهـيكل، لذلك آمـن كـثـيرون منـهم بالمسيحية.

+ وقد زار الامـبراطور أدريانوس (هدريان) مصر آول مرة سنة ١٢٢م وفي هذه الفترة تنيّح البطريرك القبطي «**بريموس**»، وخلفه القديس «**يسطس**»، الذي قيل إنه كان أحد الذين عمدهم مارمرقس. وكانت نياحته قبل زيارة أدريانوس الثـانيـة لمصر بسنة واحدة. وخلفـه علي كرسي البطريركـيـة «**يومينيس**» (أومانيوس ١٢٩ - ١٤١م) ولا يعُرف عنه شيء[١].

+ ومن الإشـاعـات التي سـادت (في كـتب المؤرخين) **أن** المسـيحـيين في الإسكندرية ذاقوا عذابات في عهدي تراچان وهدريان، غير أننا لم نعثر علي ما يويد ذلك من وثائق يوثق بصـحـتها، ولكن من المحتمل كثيراً أن كثير من المسيحيين قد أُضطهدوا باعتبارهم يهوداً (في نظر الرومان) في أيام العصيان الذي حدث في عهدهما، حيث كان يُنظر الي المسيحيين غالباً - في القرنين ٢،١ علي **أنهم** شيعة يهودية متطرفة يُخشَي تأثيرها علي الامبراطورية (الوثنية).

(١) تقول المصادر المصرية إنه كان عفيفاً وبتولاً، وآنه كان قبلاً مديراً للمدرسة المرقسية اللاهوتية بالاسكندرية، ورسم أساقفة لمصر وليبيا. واشتد الاضطهاد في عهده «تاريخ البطاركة لأسقف فوه، طبع مكتبة المحبة، من إعدادنا ص ١٥).

+ فضلاً علي أن مصر كانت مصدراً لانقسامات وتعدد المدارس للهراطقة بالإسكندرية، لدرجة تصعب علي الامبراطور هدريان - خلال زيارته لمصر الثانية - أن يعرف حقيقة أمر المسيحيين بها.

+ فقد ظهر الهراطقة المصريون كربوكراتيس، وباسيليدس، وڤالنتينيان، ومالوا للمجاز والرمز، بالنسبة للقواعد (التفاسير) الدينية المسيحية. كما يظهر من رسالة هدريان الي سرڤيانوس الحاكم العام للإسكندرية:

* «إن مصر، قد وجدّتُ أهلها علي درجة عظيمة من الطياشة، فهم يصدقون كل ما يُقَال... فالذين يعبدون سيرابيس مسيحيون... وأن المصري - من حيث طباعه - فهو ميَّال للمشاغبات والفتن وغير حقود»!

+ وظهرت آثار المذهب الأغنوسطي (إن المعرفة هي أساس الخلاص) علي نقود عصر هدريان، حيث نُقِشَت عليها رموزه!!

✢ ✢ ✢

الفصل السادس

المدرسة اللاهوتية الأولي سنة ١٣٨م(١)

+ في عهد الامبراطور الروماني أنطونينوس - أي نحو عام ١٥١ - زهد القديس «**فرونتونيوس**» في العالم، فجمع حوله جماعة من الإخوة وسار بهم إلي وادي النطرون، حيث قضوا بقية حياتهم في نُسك وتعبُّد، في بعض الكهوف الصحراوية هناك. وبذلك نشأ أول دير مسيحي هناك.

---

(١) تؤكد المصادر القبطية أن القديس مارمرقس هو مؤسسها في النصف الأول من القرن الميلادي الأول، وليس في القرن الثاني، كما تزعم الكاتبة مع كثير من مؤرخي الغرب، وأن مديريها الأوائل قد رُسِموا بطاركة للكرسي المرقسي، مثل الباباوات يسطس وأومانيوس ومرقيانوس، وياروكلاس وديونيسيوس وأشيلا.

+ ولما تولي الامبراطور الروماني مرقس أوريللوس (١٦١م) كان القتل أمراً محتوماً علي كل من اعترف بأنه مسيحي. ونظراً لأنه تعلم الفلسفة وتهذب بيد ديوغنيطوس فقد أرسلت لهما رسالتان للدفاع عن الإيمان المسيحي.وأولها من القديس **يوستينوس** الشهيد (وإن قال العلاّمة كورتون إن كاتبها مسيحي يوناني يدعي **امبروسيوس**).

+ غير أن أتعاب يوستينوس وامبرسيوس لم تأتِ بفائدة، ونال الأول اكليل الشهادة (١٦٦ - ١٦٧م)، وقد سبقه للشهادة القديس بوليكاربوس أسقف أزمير، واستشهد في أيامه بلاندينا ورفيقاتها في ليون (١٧٧م).

+ وقد آمن كثير من كبار الوثنيين في الإسكندرية بالمسيحية مثل الفليسوف الأثيني «**أثيناغوراس**» من العاملين بالمتحف الاسكندري، وكان قد درسها لإثبات فسادها، فآمن بها وأصبح أكبر المدافعين عنها. وكتب رسالة الي الامبراطورين أوريللوس وكومودوس (١٧٦ - ١٧٧م).

+ كما آمن العَالِم الجغرافي **بطليموس**، وله دراسات في الفلك والموسيقي.

+ وبعد قمع الثورة اليهودية (١٣٥م) ساد السلام، فانتشرت المسيحية. وفي أواخر القرن الثاني أنشئت المدرسة المسيحية اللاهوتية، وإن كان تاريخ أفتتاحها واسم مديرها الأول لم يزالا غير معروفين[١]!!

+ وفي عهد كومودوس صار بنتينوس رئيساً للمدرسة، والظاهر أنه هو واكليمنضس الاسكندري كانا تلميذين لإثيناغوراس. وفي ذلك الوقت صار يوليانوس بطريركاً بعد أغريبانوس (١٧٩م). وقد ظهر له ملاك

(١) هذا هو رأي الكاتبة وغيرها من أهل الغرب، ولكن من الثابت أنها شُيِّدت في عهد مارمرقس الرسول وأن أول رئيس لها هو البطريرك أنيانوس.

الرب – في رؤيا – معلناً بأن الذي سيخلفه هو الذي سيهديه عنقود عنب ليس في أوانه. وكان فلاحاً يُدعي «**ديمتريوس**» وكان متزوجاً وأمياً، ولكنه كان مُتديّناً.

+ فاهتم بتعليم ذاته، وأصبح من أكبر علماء عصره، وقضي علي الكرسي المرقسي ٤٣ سنة، وأرسل هذا البابا العلاّمة القبطي **بنتينوس**(١) إلي الهند، بناءً علي طلب أُناسٍ منها.

+ فسافر اليها وترك العلاَّمة اكليمنضس الاسكندري مديراً للمدرسة، وقيل إنه وجد عند الهنود نسخة من إنجيل مارمتي بالعبرانية. ويذكر القديس چيروم أنه أتي بها الي الإسكندرية، وقيل إن القديس برثلماوس الرسول هو الذي حملّها إلي الهند.

+ ونشطت المدرسة الوثنية بالإسكندرية بعدما دبت فيها الغيرة بانتشار المسيحية في المدينة. وكتب الفليسوف الأبيقوري شلسوس (كلسس) رسالة ضد المسيحية، رد عليها العلاّمة أوريجانوس(٢).

+ ولما رأي البابا ديمتريوس انتشار المسيحية في مصر، رسم ثلاثة أساقفة آخرين للأقاليم البعيدة عن مركز البطريركية (الإسكندرية). كما تم الشروع في ترجمة حياة السيد المسيح (الإنجيل) إلي اللغة المصرية المعروفة الآن باللغة القبطية.

✠ ✠ ✠

---

(١) وهو الذي وضع الأبجدية القبطية الحالية.

(2) Cfr. Origen, Contra Celsus.

الفصل السابع

أوريجـــــــانوس (١٩٣م)

+ كان **اكليمنضس الإسكندري** رئيساً للمدرسة اللاهوتية في الإسكندرية. وأشتهر بالتعليم، وله خمس مؤلفات، وعدة أبحاث روحية. وقد استعان بكتب العهد القديم والجديد والأسفار القانونية الثانية، مثل سفر يشوع بن سيراخ ويهوديت، وكتابات أخري مسيحية مثل رسالة اكليمنضس الروماني وكتاب الراعي لهرماس ... الخ.

+ وقد انقلب فكر الامبراطور ساويرس من ميله نحو المسيحيين، وسماحه بتعليم ابنه بمعرفتهم، إلي اضطهادهم. ولم نعرف سبب ذلك.

+ فأصدر أمراً سنة ٢٠٢ م يحرم رعاياه الدخول في المسيحية في المستقبل.

+ ولما زار مصر، ورأي انتشار المسيحية خاف منها، فزاد الاضطهاد. وكانت قائمة الشهداء طويلة، ومن أشهرهم الفتاة «**بوتامينا**» وأمها **مارسيلا**، والضابط الروماني الذي آمن ونال إكليله بعد تعذيبها.

+ كما نال **ليونيدس** والد العلاّمة أوريجانوس إكليله، وكان إبنه عمره ١٥ - ١٦ عاماً، وقد أرسل رسالة تشجيع لوالده، بعدما منعته أمه من اللحاق به للشهادة. وتم سلب أموال الأسرة، ولكن سيدة مسيحية ثرية - مجهولة - قامت بمساعدته هو، وعدد من المضطهدين وعائلاتهم.

+ وامتلأت السجون بالمسيحيين، ومنهم خمسة من طلبة المدرسة اللاهوتية الذين كانوا يتتلمذون علي يد أوريجانوس، ومنهم بلوتارخوس وكان شقيقاً لتلميذ آخر - اسمه هراكلاس - الذي فرَّ من الذين أمسكوه، ثم صار رئيساً للمدرسة اللاهوتية، ثم بطريركاً للإسكندرية (البابا ياروكلاس، من ٢٣٠ - ٢٤٦م).

+ وتولي أوريجانوس رئاسة المدرسة اللاهوتية الإسكندرية. ويصف المؤرخ الأسقف يوسابيوس القيصري مدي الكراهية التي كان يكنها الوثنيون لأوريجانوس. وقال القديس إبيفانيوس أسقف قبرص أنهم أكرهوه علي الدخول لمعبد سيرابيس. فدعاهم للإيمان بالمسيح هناك بكل شجاعة.

+ وعاش زاهداً وخصي نفسه، لأنه كان يخدم الشعب، وخشي من تجربة حرب الجسد - وتري الكاتبة أيضاً أنه أراد - بذلك العمل - عدم ترشيحه للكهنوت، كما ترشح إكليمنضس وبنتينوس من قبله.

+ وقد استمر الاضطهاد ٧ سنوات. وكان في روما أقل منه في مصر، لوجود كثير من رجال البلاط وذوي المناصب. ولم يخشَ الامبراطور شرهم، كما كان يخشي شر المصريين، الذين كانوا علي درجة عظيمة من الثروة والعلم.

+ ودرس أوريجانوس اللغة العبرانية وترجم الكتاب المقدس في أعمدة تضم النص العبري واليوناني وترجمة اكويلا وترجمة سيماخوس والترجمة السبعينية وترجمة ثيؤدوثن المسيحي. ووضع شرحاً طويلاً لأسفار التوراة. وذاعت شهرته.وسافر إلي بلاد العرب، وإلي أماكن أخري (بين ٢٠٣ - ٢١٥ م) لشرح تعاليم المسيحية (لمحاربة هرطقات هناك).

+ وأنتهي الاضطهاد بموت الامبراطور ساويرس سنة ٢١١م، وكان ابنه «كاراكلا» ميالاً للمسيحيين، وإن كان قد زاد عليهم الضرائب. وجاء للإسكندرية وقتل بعض السكان، فهربوا منها، ومنهم أوريجانوس الذي مضي إلي قيصرية فلسطين، بينما ظل البابا ديمتريوس بالإسكندرية.

+ وسمح اسكندر أسقف أورشليم - لزميله في التلمذة - أوريجانوس بالوعظ هو وأسقف قيصرية، ولم يكن مسموحاً للعلمانيين بالوعظ في الكنيسة،

فأرسل ديمتريوس واستدعي أوريجانوس ليعود لعمله الأصلي، بعد توقف الاضطهاد.

+ وساعد صديق غني في تشجيع أوريجانوس علي التأليف. واستأجر له ناسخين من الجنسين علي نفقته الخاصة.

+ وتولي الامبراطور اسكندر ساويرس (٢٢٢م) وقد دافع عن المسيحيين، وشهد بأنهم أكثر الناس كفاءة في الحكم والادارة والاستقامة والأمانة، مع أنه تمسك بديانته الوثنية ظاهرياً، لكنه كان يعتبر السيد المسيح من أعظم العلماء في العالم، وأفاد الناس بتعاليمه، فصنع له تمثالاً.

+ ولما ذهب أوريجانوس لفلسطين مرة أخري تمت رسامته كاهناً، مما ضايق البابا ديمتريوس - علاوة علي دسائس البعض -فقام بحرمه. فتأثر بذلك بشدة وقرر البقاء في قيصرية، يمارس كهنوته وتعليمه في مدرسته.

+ وأما صديقاه هيراكلاس وديونيسيوس، فلم يزالا يحبانه. وإن كانا قد انحازا لرأي البطريرك، بدليل أنهما لما ارتقيا الكرسي المرقسي الاسكندري - علي التوالي - في حياة أوريجانوس لم يُفكّرا في إرجاعه للإسكندرية.

+ + +

الفصل الثامن

اضطهاد ديسيوس للمسيحيين (٢٣٥م)

+ وبدأ الأمبراطور مكسيمينوس - بعدما قتل الإسكندر - باضطهاد المسيحيين. وفر أوريجانوس إلي قيصرية كبادوكية (بآسيا الصغري) وأقام في منزل سيدة غنية اسمها «يوليانا».

+ (وقد إلتقي سراً بالفتاة الوثنية «بربارة». وعلّمها مبادىء الايمان المسيحي).

+ كما ترك البابا هيراكلاس الإسكندرية، وأستشهد كثير من الأقباط في ذلك الوقت، وبعد قتل الامبراطور المذكور، استراحت الكنيسة. وأوجد البابا هيراكلاس عدة إبروشيات جديدة بالأقاليم المصرية.

+ وقد ذكر بعض المؤرخين أن «هيراكلاس» كان أول بطريرك مصري يُطلق عليه لقب «**بابا**». **وهذا خطأ فإن هذا اللقب كان معروفاً في مصر من أول نشأة المسيحية فيها.**

+ كما مضي أوريجانوس لبلاد العرب مرة أخري لظهور بدعة تنادي بأن المسيح لم يكن له وجود قبل أن يولد بالناسوت (بالجسد).

+ وقبل أن يبدأ اضطهاد الامبراطور ديسيوس، تنيّح البابا هيراكلاس وخلفه **ديونيسيوس**، الذي كان مديراً للمدرسة اللاهوتية المرقسية. وقيل إنه اشتري بعض رسائل القديس بولس من إمرأة كانت تبيعها. فلما أعجبته، وطلب المزيد منها، أرشدته الي الكنيسة، حيث اعتنق المسيحية، وتتلمذ علي يد أوريجانوس، وصار مديراً للمدرسة اللاهوتية من بعده.

+ وتؤكد الكاتبة انه كان متزوجاً، وأنه يُحتمل أن إمرأته قد ماتت قبل رسامته. وقد ترك عدة كتابات، وأعقبه «**بيروس**» في رئاسة المدرسة، والذي عُرف بفصاحته، حتي أسموه «أوريجانوس الصغير».

+ وكان الاضطهاد الذي حدث في أيام الامبراطور ڤاليريان محصوراً في مصر فقط، وسببه التعصُّب الوثني ضد المسيحيين، ولم يكن بأمر الحكومة كالاضطهادات الأخري.

+ وقد كتب البابا ديونيسيوس الي فابيان بطريرك انطاكية وقال: «إن الاضطهاد الذي أصابنا، لم يحدث بناءً علي أمر الحكومة، حيث جاء إلي الإسكندرية شاعر أثار سخط الوثنيين ضدنا، وحرضهم علي الدفاع عن خرافاتهم الوثنية التافهة، وظنوا أن مُنتهي التقوَّي والقداسة تنحصر في

عـبـادة شـيـاطينهم، التي تتم بذبحنا وتـقـديم أجـسـادنا قـرباناً لأصنامهم».

+ «وكان أول شر ارتكبوه أن أمسكوا مسيحياً هرماً إسمه «متري»، ورجموه بالحجارة، ثم أندفعوا نحو بيوت المسيحيين يحرقونها ويسلبونهم ويقتلونهم، أما المسيحيون فلم يُبدوا أدنى مقاومة (للعنف). وقبضوا علي عذراء تُسمي «**أبولونيا**» وضربوها وحطموا أسنانها، ثم أحرقوها، لرفضها التجديف، وعذبُوا رجلاً اسمه **سرابيون**، وكسروا ضلوعه، ثم طرحوه من علوٍ شاهق».

+ «وكان إذا ما سار المرء – ليلاً أو نهاراً – في الشوراع لا يسمع سوي الصراخ، وتعذيب كل من يرفض إنكار إيمانه، ولا يُشاهد سوي الأتقياء يجرهم الأشرار علي وجوههم، ثم يحرقونهم. ثم حدثت حرب أهلية، واسترحنا قليلاً، عندما آنصرف شرهم عنا إلي قتال بعضهم البعض».

+ «ثم صدر أمر (ديسيوس سنة ٢٥٠م)، تم علي إثره طرد كل مسيحي من خدمة الحكومة. وكان عقاب من يرفض تقديم الذبيحة للصنم أن يكون هو نفسه ذبيحة للوثن بعد إرهابه، وأما المسيحي الذي ينكر الإيمان فكان الوثنيون يهزءون به».

+ «والذين تمسكُوا بالايمان المسيحي تم تعذيبهم وحبسهم، فقوّاهم الله. وكان من هؤلاء الاتقياء **يوليانوس** المُصاب بالنقرّس، الذي ساقوه للمحاكمة محمولاً علي كتفي رجلين. فجلدوه مع **كرونيون**، وطافوا بهما في الشوراع. ثم ألقوهما في النيران، بينما كان مضطهدوهما يتفرجون عليهما، كأنها من المناظر التي تُسرُّ لها النفوس»!!

+ ووصف البابا ديونيسيوس ماحدث لستة رجال وأربع نساء، وكان فيهم

شاب إسمه ديوسقورس، وكان بعضهم من الأقاليم ومن الإسكندرية. وبعد جلدهم طرحوهم في النيران».

+ وقد كتب البابا إلي أسقف أحد الأقاليم المدعو «جرمانوس» الذي وبخه، لأنه ظن أنه هرب من الإسكندرية، من الخوف، ولم يظل بها مثل سابقه البابا ديمتريوس (الكرَّام). فقال له قداسته: «إن هروبي لم يكن طبقاً لإرادتي، فقد بحث عني فرونتاريوس (من قبل الحاكم) وكنت في بيتي فلم يأتِ إليَّ بل فتش عني في عدة أماكن، فخرجت مع أتباعي، وعند الغروب قبض علينا العساكر وقادونا إلي سجن تابوسيرس (آبو صير)، ولكن لما علم مسيحيون حتي جاءوا وأمسكوني من يدي، وكنت أظنهم لصوصاً، وهرب العسكر من أمامهم، وكان معي غايوس وفاوتسيوس وبطرس وبولس، فأخرَّجوني خارج المدينة، وأركبوني حماراً».

+ وذهب أوريجانوس لبلاد العرب - للمرة الثالثة - حيث زعم البعض آن اللاهوت مات مع الناسوت وقام معه ثانيةً في وقت واحد، فأصلح آراء المبتدعين، ثم عاد إلي فلسطين، حيث تم تعذيبه وحبسه.

+ ويصف المؤرخ الأسقف يوسابيوس (القيصري) ما قاساه أوريجانوس واحتمله بصبر وفرح وشكر. فقيدوّه في المقطرة وأحاطوه بالنيران وغيرها. وكتب له البابا ديونيسيوس يشاطره آلامه، ويشجعه علي احتمال بركة الألم.

+ ولما قدم بعض المسيحيين الذبائح للأوثان بسبب شدة الاضطهاد في عهد ديسيوس، ولما خفت حدته رجعوا إلي حضن الكنيسة نادمين.

+ وتبودلت رسائل كثيرة بين أساقفة الأقاليم، الذين مالوا الي الرفق بمن يتوب إلا أن «**نوفاتوس**» أحد كهنة رومية خالفهم رافضاً مبدأ توبة الذين سقطوا أثناء الاضطهاد الشديد، وزعم آنه لا يمكن قبولهم في عضوية الكنيسة مرة أخري!!

+ وفي مجمع عُقد بقرطاجنة (بتونس) برئاسة القديس كبريانوس للنظر في هذا الأمر، وجاء في قراره: «إن نوفاتوس والذين جاروه في آرائه، سلكوا طريقاً يخالف الطبيعة البشرية، لذلك يُعتبَروا منشقين عن الكنيسة، ماداموا يخالفونها في قراراتها، وأما الذين وقعت عليهم المصائب الروحية - وضلُّوا السبيل المستقيم - فيلزم علاجهم بدواء التوبة الشافي».

+ وقد أرسل البابا ديونيسيوس إلي نوفاتوس رسالة وبخه فيها علي اغتصابه درجة الأسقفية بدون رسامة. وطلب منه ترك هذه الوظيفة، فاستجاب له. إذ كتب لقداسته يعلن اعتذاره عن رسامته الغير قانونية.

+ وتري الكاتبة أنه يحُتمل أن يكون فابيوس بطريرك انطاكية قد مال إلي رأى نوفاتوس، من حيث التشديد علي الذين أنكروا إيمانهم وتابوا - فقد كتب اليه البابا ديونيسيوس رسالة ذكر له فيها سيرة رجل كهل اسمه سيرابيون، كان مسيحياً تقياً، ولكنه أمام شدة الاضطهاد ذبح للأوثان، ولكنه عاد فأقرّ بذنبه. ولما كان علي وشك الموت أرسل أبنه إلي البابا بسرعة. فأعطاه لقمة بركة وفاضت روحه، واعتقد قداسته أنه يُعتبر مؤمناً، لأجل أعماله الصالحة الكثيرة، التي عملها في حياته وعند موته.

+وفي ذلك الوقت عاش القديس «أنبا بولا» أول السواح:

* وكان قد وُلِد بطيبة الوسطي (شمال الصعيد) ومات أبواه وعمره خمس عشرة سنة، وتركا له ميراثاً ساعده علي التربية الحسنة. وكان يُقيم مع أخته التي تزوجت بزوج غير مسيحي. ولما ثار اضطهاد ديسيوس أراد زوج أخته أن يبلغ عنه أنه مسيحي لكي يغتصب أملاكه، فهرب إلي الصحراء الشرقية حيث وجد مغارة كان يستخدمها مزيفو النقود في عهد الملكة كليوبترا، وبجوارها عثر علي نخلة ونبع ماء.

+ وكان يقتات ببلح النخلة، ويشرب من نبع الماء. ثم بعد قليل سمع به أهالي البلاد القريبة فجاءوا ومعهم هدايا من خضروات وخبز، وكانوا يستشيرونه في أمورهم، فكان ينصحهم ويعظهم ويبشرهم بالديانة المسيحية. فذاع صيته وسمع به كل مصري، حتي أن القديس أنطونيوس جاءه قبل نياحته بقليل، ليودعه ويقبل دعوته، وظل مقيماً معه إلي أن واراه القبر(١).

+ وأنه قضي في زهده نحو ٩٠ سنة علي ما يُقال. وكان قد ذهب إلي هناك وعمره ٢٢ سنة، وتنيّح وهو في سن ١١٢ سنة.

+ وانتهي اضطهاد ديسيوس بقتله سنة ٢٥١م. ومن الذين تعرضوا للإضطهاد والإستشهاد في عهده القديس **مرقوريوس** المعروف «**بأبي سيفين**». وله منزلة كبيرة عند المصريين. وقد سجّل بطلر (Butler) الإنجليزي سيرة هذا القديس ومعجزاته(٢) في الجزء الثاني من كتابه: «الكنائس القبطية».

+ وقد تم الافراج عن أوريجانوس بعد موت الامبراطور ديسيوس، ولم يعش سوي عاماً واحداً بسبب شدة الاضطهاد، وتنيّح في مدينة صور، وله من العُمر ٦٩ سنة.

+ وقد ترك عدة آلاف من الكتب والرسائل. إذ قال إبيفانيوس (أسقف قبرص) أنه ترك ٦٠٠٠ مؤلف (وتعدها الكاتبة نحو ٦٠٠ كتاب فقط)، وضاع معظمها، ولكن توجد منها تفاسير للعهدين. والرد علي كلسس وغيره من الهراطقة، وترجمات للتوراة، كما سبق توضيحه.

---

(١) تختلف هذه الرواية تماماً عما ذكره القديس أنطونيوس وتلاميذه وسجله عنه كل من البابا القديس أثناسيوس الرسولي والقديس چيروم، ونُحيل القاريء إلي كتابنا: «**قديسون بإسم بولا**» طبع مكتبة المحبة وكتابنا «**بستان القديسين**».

(٢) وتري السيدة بوتشر أنها مجرد خرافات (في نظرها للأسف الشديد)!!

+ ومن الذين ظهروا في شمال أفريقية العلّامة ترتليانوس والقديس كبريانوس. في نفس الوقت، الذي ظهر فيه اكليمنضس الاسكندري وأوريجانوس. وسارت الكنيستان علي نفس المباديء، وإن كانت كنيسة الإسكندرية مصرية النسب والأصل، يونانية اللغة، أما كنيسة قرطاجنة فكانت فينيقية النسب والأصل، ولاتينية اللغة.

+ ثم تعود الكاتبة لتوضح أن تعاليم الكنيستين - في السلوكيات - تختلف بسبب ماتركته الوثنية القديمة في النفوس بعد إيمانها بالمسيح. فقد كانت العقائد في شمال افريقية - في العهد الوثني - صارمة وتدعو لتقديم ذبائح بشرية، وتدعو للإنتقام من المُسيء (علي نقيض العبادة والسلوكيات المصرية القديمة).

+ فلما دخل القرطاجنيون حظيرة المسيح، ضعفت فيهم روح القسوة وحُب الانتقام - ولكن ظلها ظل موجوداً - ومن ثم نجد ترتليانوس كان يعتقد إن الله يُسَّر بتعذيب العصاة. وأنه يفتقد ذنوب الآباء في الأبناء، ويدخر العقاب من جيل إلي جيل، كما جرت عليه الحال في العهد القديم.

+ كما أن الكنيسة الغربية سارت علي تعاليم أوغسطينوس من حيث تشديد العقاب لمن أساء، حتي ولو كانت إساءة صغيرة، وهو تشديد جرت عليه، نقلاً عن كنيسة قرطاجنة. بينما رفضت تعاليم* أوريجانوس* التي تدعو للمحبة والتسامح وغض الطرف عن الهفوات والذنوب، وتجاهلت تواضعه وجمال أخلاقه. ووصل بها الحال الي الحُكم عليه بالهرطقة، ولا ذنب له سوي علو أفكاره، وغزارة مادته وتبحُرّه في المعرفة وسُمّو أخلاقه.

+ والنتيجة أن الكنيسة الغربية قد استصوبّت تعاليم القديس أوغسطينوس، وخطّأتّ روح أوريجانوس الحبيبة (علي مثال تعاليم السيد المسيح).

+ وقد اختفت كنيسة قرطاجنة، بينما بقيت الكنيسة المصرية، التي وصفها بطلر الانجيزي بأن نظامها يمتاز عن نظام الكنائس الأخري، وأن الذي يرفع الكنيسة القبطية – في أعين العُقلاء – هو أنها قاست من الاضطهادات المريعة بما يكفي لاضمحلال ممالك. وعانت من العذابات والمشقات مالم يقع لأي كنيسة أخري في العالم المسيحي، قديماً وحديثاً.

+ وقد ساعدها علي ذلك روح الرجاء والأمل اللذين نشأ معها. وثقتها التامة في مُخلّصها وفاديها، وكما يبدو من صور قديسيها، المعلقة علي حوائط كنائسها. فنشاهد قديسيّها الأبطال وهم يقتلون التنِّين، ولا تجد صورة (أيقونة) تمثل الخاطيء بعد موته مما تشمئز منه النفس، كما أنهم كانوا يطلبون الرحمة للذين كانوا يضطهدونهم ويذيقونهم العذاب والظلم الدائم.

✣ ✣ ✣

الفصل التاسع

اضطهاد ڤاليريان للمسيحيين سنة ٢٥٤م

+ بعد موت ديسيوس خف الاضطهاد، وإن كان قد انتشر مرض الدفتيريا، كما جاء في إحدي رسائل البابا ديونيسوس الأسكندري.

+ وسار ڤاليريان (٢٥٤م) علي سياسة بعض الأباطرة الرومان بأن أظهر ميلاً وعطفاً نحو المسيحيين في بداية حُكمه، وكانوا يعملون عنده ويلتقون به في قصره، ولكن أثاره ضدهم مستشاره الوثني المصري مكريانوس، الذي زعم أن الآلهة غاضبة علي المملكة، لإهمال شأنها والاعتقاد بخرافة المسيحية. مما دفع الفُرس والبرابرة للهجوم علي الدولة من كل ناحية إبتداءً من أسبانيا وشمال أوربا حتي سوريا، وانتشار مرض الدفتيريا، الذي زاد بلاؤه لمدة ١٥ سنة في مصر. فملأ قلب الامبراطور بالحقد ضد المسيحيين من أبناء وطنه!!

+ وقد أرسل الأسقف المصري جرمانوس رسالة أخري للبابا ديوينسيوس يلومه علي إصدار قرار بابطال الاجتماعات العامة في الكنائس. فأرسل له البابا رسالة بهذا الخصوص. وتضمنّت كيفية القبض عليه – مع بعض رعاياه – شمال البلاد وقال له قداسته:

* «لما وصلنا الي سيفرد اجتمع حولنا الأخوة الذين جاءوا من كل مكان، وقام الأعداء – في أول الأمر – برشقنا بالأحجار، ولكن كثيراً من الوثنيين قبلوا الإيمان». ثم يتحدث عما حدث له في أقليم مريوط، وكيف تمكنّ من نشر الإيمان هناك. وكان المؤمنون يأتون اليه من الإسكندرية، وكان يقيم لهم اجتماعات لسماع كلمة الله، إلي آن عاد للإسكندرية.

+ واستمر اضطهاد ڤاليريان لمدة ٤٢ شهراً، وانتهي سنة ٢٦٠م بقتل الفُرس له. وأبطل إبنه جالينوس الاضطهاد، مما سمح لديونسيوس القيام بزيارة لكل مصر، لافتقاد رعاياه الذين تأثروا بالاضطهاد. فعزاهم ورسم لهم خُدّاماً – حسب الحاجة – ودشن لهم كنائس جديدة.

+ ولما وصل إلي أرسينوي (في الفيوم) سمع أن أسقفها «نيبوس» كان يُعلّم بقُرب الزمن الذي يملك فيه المسيح ألف سنة – كملك أرضي – وقد فسَّر ما ورد عن هذا الموضوع تفسيراً حرفياً. ومات تاركاً تعليمه هذا في الفيوم. وحدثت مجادلات كثيرة ما بين مؤيد ومعارض، ولكن بحكمة البابا عقد مؤتمراً ضم الجميع، وثبّت عدم صحة هذا الرأي.

+ ثم أرسل البابا منشوراً إلي كل الايبارشيات دحض فيه رأي أسقف أرسينوي عن المُلك الألفي الأرضي[1]. وأكد قداسته فساد الرأي القائل

(١) ويظهر نفس الفكر المنحرف الآن في تعاليم شيع مُحدثة معاصرة، مثل شهود يهوة، والأدڤنتست وغيرهما، من الشيع البروتستانتية. بينما آكد الرب نفسه آن ملكوته ليس علي الأرض. بل إنه يملك علي القلوب فعلاً. وأن مجيئه الثاني يهدف إلي آخذ المؤمنين الاحياء. ثم تحترق الأرض فوراً (راجع كتابنا: «٧٥ سؤال مُحيِّر عن العالم الآخر» طبع مكتبة المحبة).

بمُلك أرضي زائل. ولا نتيجة له ولا فائدة منه. ولا هو من تعاليم الكنيسة الأولي.

+ وقد أظهر **خطأ فهم سفر الرؤيا بمعناه الحرفي**. وقال إنه عبارة عن رموز ونبؤات تم بعضها، وسوف يتم البعض الآخر، وإن كان قد ذكر أنه سفر موحي به، إلا أنه يؤخذ عليه نسبه لشخصٍ آخر يُدعي «يوحنا»، وليس كاتبه – في نظره – هو القديس يوحنا الحبيب، حسب إجماع الآباء الرسوليين والعلماء القدماء!!

+ وقد وصف البابا ديونيسيوس – في رسالة لعيد الفصح – ماجري في الإسكندرية من أهوال وقتل، حتي امتلأت الترعة هناك بدماء الشهداء، وأصبح من العسير الخروج من المنازل للصلاة (٢٦٤م) ورغم قتل كثيرين لكنه شارك في قداس العيد، مع عدد كبير من المسيحيين، رغم وجود ميت (شهيد) علي الاقل في كل منزل.

+ ثم قال قداسته: «وقد زادوا في طردنا إلي أماكن بعيدة، ثم اضطهدونا، حتي قتلوا أكثرنا، ومع ذلك لا نزال نُعيِّد العيد بكل احتفال وفرح، ثم فتك وباء بنا، وكان أكثر فتكاً بالوثنيين. فكنا نرثي لهم ونعطف عليهم. ونساعدهم كإخوة لنا في الانسانية. ومات كثير من المؤمنين الذين خدموهم بتضحية عملية بسبب العدوي بالطاعون».

+ وحدث خلاف بين البابا ديونيسيوس الاسكندري وبين بعض أهل بنتابوليس (ليبيا) وأغراهم بعض الدُخلاء من المسيحيين الرومان علي الانشقاق، فكتبوا لأسقف رومية المدعو ديونسيوس أيضاً، وكان سادس أسقف يجلس علي كرسي رومية، أثناء جلوس سميَّه الأسكندري.

+ وكان الأسقف الروماني في مُقتبل عمره، وبلا خبرة. وصار به الشطط إلي حد حرمان القديس ديونيسيوس الاسكندري، وكتب له بنتيجة الحُكم عليه،

وبدلاً من أن يحتقر ما كتبه زميله الروماني، ردّ عليه بكلمات حكيمة. وشرح له كيف أن أعداءه حوّلوا كلماته عن معناها الأصلي، فزاد توقيراً ومهابة في أعين الناس في مصر وروما.

+ وفي أواخر حياته دعاه مجمع انطاكية (بسوريا) لمحاكمة الهرطوقي بولس السيُمساطي. فلم يقدر علي السفر، وأرسل لهم برأيه، ثم مات ودخل إلي فرح سيده في مجده، وكان أميناً في القليل، فأقامه الرب علي الكثير، صلاته تكون معنا، آمين.

+ + +

الفصل العاشر

مار[1] آمون ومار أنطونيوس (٢٦٨م)

+ لما مات الامبراطور جالينوس (٢٦٨م) استطاعت زينب (زنوبيا) ملكة تدمر (وهي بالميرا السورية) الرائعة الجمال أن تستولي علي مصر، ولكن الامبراطور أوريليانوس أعاد مصر لحكم رومية.

+ وفي أيام حكم زنوبيا استراح المسيحيون ونالوا حريتهم الدينية، ولكنهم عانوا من قلاقل الحروب الأهلية. وتولي بعد القديس ديونيسيوس البطريرك «**مكسيموس**» الإسكندري (٢٦٤ - ٢٨٢م). الذي لا يُعرف عنه شيء سوي أنه اشترك في الحكم الصادر علي الهرطوقي بولس السيموساطي بطريرك انطاكية السابق.

+ وفي عهده ظهر الراهبان: **القديس آمون. والقديس أنطونيوس**، وكان الأول هو مؤسس دير النطرون (نتريا غرب البحيرة).

+ أما الأنبا «أنطونيوس»، فقد وُلد في بلدة «الكوم» (قمن العروس مركز

(١) كلمة «**مار**» سريانية الأصل وتعني السيد أو القديس العظيم. كأن نقول مارجرجس ومارمينا، ومؤنثها «**مارت**» مثل قولنا «مارتمريم»، أي السيدة العظيمة والقديسة أم النور.

الواسطي بمحافظة بني سويف حالياً) ولم يعرف سوي اللهجة القبطية الصعيدية.

+ وقد تنيّح والداه وهو في سن ٨ سنوات (والأصح ١٨ سنة) ولما حضر إلي الكنيسة سمع قول السيد المسيح للشاب الغني «إن أردت أن تكون كاملاً، فاذهب وبع أملاكك وأعطِ الفقراء، فيكون لك كنز في السمُاء، وتعال اتبعنّي» (مت ١٩:٢١).

+ فصمم علي إتمام ذلك حرفياً، وباع كل أملاكه. ولم يُبْقِ منها سوي جزء قليل لأخته. فلما سمع قول الانجيل «لا تهتموا للغد»، باع ماتركه لأخته وتركها في عُهدَة إمرأة مسيحية في بلدته (والأصح في بيت للعذاري المتبتلات، حسب المصادر القبطية).

+ وعاش القديس أنطونيوس في مبني مصري قديم لمدة ٢٠ سنة، بعيداً عن أعين الناس، ولكن بدأت شهرته تنتشر ويذهب إليه كثيرون طلباً للشفاء.

+ أما القديس «**آمون**» فقد ورث ثروة عن والديه، وأطاع عمه في الزواج من فتاة، ولكنهما أتفقا أن يعيشا حياة البتولية. ثم مضي إلي وادي النطرون حيث تبعه كثيرون من مُحبّي الوحدة والتكريس للعبادة. ولم تكد تمر ٨٠ سنة حتي زادت أعداد الأديرة هناك عن ٥٠ ديراً، كما قال المؤرخ الأوربي الزائر روفينوس، في تاريخه الكنسي.

+ وكان رهبان آنبا آمون يبيعون الملح (النطرون) للتجار لينقلوه إلي أسواق مصر. وذات مرة ذهب الشاب «**مكاريوس المصري**» مع إحدي هذه القوافل. وعاش في منطقة تبعد عن نتريا، عُرفت باسم «سيتس» (سكيتس = الإسقيط. ومعناها مكان الأرواح المقدسة) وتبعه عدد من الرهبان، سكنوا في كهوف حفروها لأنفسهم.

+ وكانوا يعانون من قلة المياه، والتي كانوا يحصلون عليها من مسافات

بعيدة، ويعملون السلال (والمقاطف والقُفف) ليتحصلوا علي ما يساعدهم في معيشتهم الصعبة (علي الخبز والملح) والتي كانوا يعتبرونها أحسن وأهنأ عيشة، لأنها تُوجِد بينهم وبين الله صلة دائمة ومتينة.

✣ ✣ ✣

الفصل الحادي عشر

الجهاد في سبيل الحرية (٢٨٢م)

+ لما تنيَّح البابا مكسيموس (٢٨٢م) وتولي البابا ثيؤناس Theonas (ثاونا) هدأت البلاد قليلاً من الحروب ومن الاضطهادات، مما ساعد كنيسة الإسكندرية، علي بناء أكبر كنيسة في البلاد المصرية، وكانت هذه الكاتدرائية في الإسكندرية.

+ وخلال الحروب ضد الفُرس، صار دقلديانوس امبراطوراً للمملكة الرومانية كلها. وكانت بدايته في الحُكم ذات نوايا حسنة للشعب المسيحي، كما يبدو من رسالة بعث بها البابا ثاونا المصري إلي «لوسيان» الذي كان مديراً لخزائن الملك المذكور وقال فيها.

* «إن الراحة التي تتمتع بها الكنيسة الآن (نهاية القرن ٣م) ترجع إلي سلوك المسيحيين الحسن، وأعمالهم الممدوحة... ولذلك لا أريدك أن تتباهي وتفتخر، لأنك هديت كثيرين من العاملين بالبلاط الملكيّ إلي معرفة الحق... فاشكر الله الذي جعلك واسطة خير، لنفع الكثيرين، وأعطاك نعمة في عينَي مولاك (دقلديانوس)، حتي تمكنت من نشر كلمة الخلاص».

+ ثم كتب هذا البطريرك كثيراً يوصي ابناءه الموجودين في خدمة الامبراطور، بالإلتفات لواجباتهم كمسيحيين أمناء، بالابتعاد عن السرقة والرشوة والطمع والجشع – التي يتميّز بها الوثنيون – وشرح قداسته واجبات المسئول عن الميزانية.وعن العُهد المخزنية، وكيفية القيد

بالسجلات، ومسئوليات أمين المكتبة بالقصر، وعن الكتب التي يجب أن يقرأها في مسامع الامبراطور، ومنها الترجمة السبعينية (اليونانية) للعهد القديم، وأن يمزج كلامه بأقوال السيد المسيح، فيجرّه للحديث عن العبادة المسيحية.

+ كما شدد البابا ثاونا علي ضرورة قيام العاملين المسيحيين بمراعاة شروط النظافة وحُسن الهندام. وأن يعملوا بفرح ووقار، واحترام للرؤساء في العمل.

+ وأما **دقلديانوس**، فإن اسمه هو لقب من مدينة دلماطيا، التي كانت بلدة أمه. وكان والداه عبدين، إلا أنه كان ذكياً وارتقي في الجيش الروماني، حتي صار قائداً للحرس، في الوقت الذي مات فيه الامبراطور نوماريوس في مدينة خلقيدونية، عند عودته من حرب الفُرس.

+ ودبر حيلة جعل بها قواد الجيش يصادقون علي انتخابه إمبراطوراً[1].

+ ولما رأي دقلديانوس أنه يصعُب عليه إدارة المملكة الواسعة الأطراف بمفرده، ولاعتياد شعوبها علي عدم الخضوع للأباطرة الرومان. اختار قائداً يسمي «مكسيميان» وأعطاه لقب «امبراطور الغرب». ثم عيّن وكيلين له ولشريكه في الحكم. فعيّن قسطنطينوس وكيلاً لمكسيميان، وجليروس وكيلاً لنفسه، واضطرهما أن يُطلّقا زوجيتهما ويقترنان بابنتيه، لينالا بذلك شرف الانتساب للإمبراطور. وأعطاهما لقب «قيصر».

+ وكان هدف دقلديانوس مساعدتهم له في صون الامبراطورية التي بدأت تتحلل منطقة بعد أخري، لرفضهم الاعتراف به، لأن أصله كان عبداً. وكانت أول ولاية تُنازِع لاستقلالها هي بريطانيا وتبعتها فرنسا ثم قرطاجنة ثم مصر حيث دخلت في صراع سياسي مع الرومان، لسنوات طويلة.

---

(١) تذكر المصادر القبطية أن ابنة نوماريوس قد وقعت في غرامه وتزوجته، وبعد موت أبيها رفعته للعرش الروماني.

+ فاضطر دقلديانوس أن يقود جيشه بنفسه وأتي لمصر، وقد أغتاظ من مقاومة الإسكندرية له. فاقسَم ألا يكفَّ عن ذبح أهلها حتي تجري دماؤهم في الشوارع، وتصل إلي رُكْبة حصانه. فذبح الآلاف، حتي تعثر حصانه، فأوقف المذابح.وقضَي في مصر وقتاً هادناً. ثم رحل إلي عاصمته.

+ وقام دقلديانوس بحرق مكتبة الإسكندرية بما فيها من مجلدات عظيمة، ظناً منه – في جهله – أن المصريين قادرون بواسطة علم الكيمياء أن يُحوِّلوا المعادن إلي ذهب. وقد صرفوه في المدة التي كانوا يجاهدون فيها من أجل استقلالهم وحريتهم. ونفذ الأمر رغم احتجاج الناس وتضرعاتهم بالتوقف عن حرق المكتبة.

+ وقد تنيّح البابا ثاونا سنة ٣٠٠م وخلفه البابا «**بطرس**» (خاتم الشهداء). وكان حينئذٍ شاباً. وكان متزوجاً وذا بناتٍ [١].

الفصل الثاني عشر

عصر الشهداء ٣٠٣م

+ ظلت مصر ثلاث سنوات هادئة. وقال (الأسقف القبطي) يوحنا النقيوسي في تاريخه (بالقرن ٧م) أن الاضطهاد بدأ في مصر عقب إخماد نار عصيانها (السياسي)

+ والاضطهاد الذي أثاره دقلديانوس (٣٠٣ م) لم يكن محصوراً في مصر، إنما كان بدء مشروع خطير، قصد به محو كل آثار المسيحية من كل الإمبراطورية الرومانية.

---

(١) لم تذكر الكاتبة من أين استمدت هذا الخبر؟ وهو غير حقيقي. لأن كل المصادر القبطية لم تذكره – ومن المعروف أن بابا الكرسي المرقسي كان بتولاً دائما – وأما البابا ديمتريوس الكرّام، الذي كان متزوجاً، فقد عاش مع شريكته كإخوة. وقد تجاهلت السيدة بوتشر ذلك المذكور في سيرته.

+ وكانت حاشيته هي التي أوهمته أن القوة والمقاومة التي صادفها في مصر وعدم رضوخهم له، منشأها الديانة المسيحية، التي تدين لإله أعلي من الامبراطور الروماني (الذي كان يحاول أقناع شعوب الامبراطورية بأنه أيضاً إله، للتأثير عليهم ولخضوعهم لطاعته).

+ كما أن وكيله «جاليريوس» قد بالغ في الأمر وكبّره له. كما أن المُنَجِّمين والعرافيّن –الذين دعاهم دقلديانوس – أعلموه بأنهم لا يتمكنون من إغراء الأرواح للإستجابة لهم وإظهار الغيب لهم، مادام قصر الامبراطور يضم جماعة من الكفرة (ويقصدون بذلك الموظفين المسيحيين) الذين وجودهم في القصريمنع تجليّ الأرواح وإعلاناتها لهم.

+ فلما امتلأ عقل دقلديانوس[1] بخوف، ناتج من خرافات وثنية – ولإعتبارات سياسية أيضاً – أصدر منشوراً شديد اللهجة ضد المسيحيين يوم ٢٣ فبراير سنة ٣٠٢ م (وهو يوم عيد عند الوثنيين).

+ وبدأ الاضطهاد بهدم كنيسة نيقوميديا الكبري. **ونص المنشور علي ما يلي:**

١) يجب هدم جميع الكنائس، وإزالتها من الوجود.

٢) يجب إحراق كل الكتب المقدسة.

٣) تجريد الموظفين المسيحيين من وظائف الحكومة، وحرمانهم من حقوقهم الوطنية (ليتسني لأعدائهم تعذيبهم بكل قسوة).

---

(١) تقول الكاتبة مانصه «مما ينبغي ذكره هنا – إنصافا لدقلديانوس – أن الاضطهاد المنسوب له، لم يصل درجة القسوة إلا وقت جنونه، الذي أعقب تنازله عن عرشه رغماً عنه. وتركه جاليريوس يتصرّف كيفما شاء، ناسباً الفعل إلي دقلديانوس. وقد صدر أمر – في البداية – وكان شنيعا. ثم تلاه أمر ثانٍ وثالث. لسجن الاكليروس أولا. ثم إجبارهم علي الذبح للأوثان. ثم عذابات مُريعة بسبب حريق في قصر الامبراطور. أجمع المؤرخون المعاصرون أنه بأمر جاليريوس. وعزاه للمسيحيين. وبذلك أقتنع دقلديانوس بتشديد العقاب علي المسيحيين في كل الامبراطورية. فأصدر أمراً وكان معتوهاً. وبلغ الاضطهاد قمته بعد تنازله عن العرش.

٤) كل المسيحيين – الغير موظفين – يصيرون عبيداً.

+ وقد قام شاب بتمزيق المنشور، فتم القبض عليه ونال العذاب. ثم أحرقوه حياً، وهو ما يذكره البعض أنه الشهيد «**مارجرجس الروماني**».

+ وأما الصورة التي تصوره وهو يقتل «**التنين**» فهي رمزية عن مواجهته للتنين البشري (الامبراطور). والفتاة الواقفة ترمز إلي إحدي محظيات الامبراطور، التي حبسها مع هذا الشاب الطاهر. وكيف تأثرت بكلامه واعترفت بالمسيح، ونالت إكليلها.

+ ومن الشخصيات التي استشهدت في عهد دقلديانوس «**القديسة دميانة**» التي اعتزلت – مع ٤٠ عذراء – في دير بشمال الدلتا. وكان أبوها (مرقس) والياً، وقد استجاب لها واعترف بالايمان – أمام دقلديانوس – فقطع رأسه، ثم قطع رأس إبنته والعذاري اللواتي كن معها، مع جمع كبير من المشاهدين.

+ وظل الاضطهاد مستمراً – في أنحاء الامبراطورية الرومانية – لمدة ٣ سنوات – وفي سنة ٣٠٤م أصدر جاليريوس أمراً – عندما كان دقلديانوس مصاباً بالجنون – زاد في شدة الاضطهاد. وأمر أن يتم تعذيب المسيحيين، بدون تمييز بين الرجال والنساء. ووصفه المؤرخ الأسقف يوسابيوس القيصري بقوله:

* «كانوا يأتون بالشهداء ويجرحون أجسادهم ويقطعونها من الجَلْد، حتي ينكشف اللحم وإلي أن يموتوا. أما النساء فكانت الواحدة تُربط من إحدي رجليها وتُرفع في الهواء – بواسطة آلة مخصصة لذلك، بعدما ينزعوا عنها ملابسها، ويكشفون كل جسمها أمام جمهور المتفرجين»!!

* «وكانوا يُقرّبون فرعين قويين من شجرتين متقاربتين بآلة تستخدم لهذا الغرض، ثم يجيئون بالشهيد، ويربطونه بهذين الغُصنين، ثم يتركانهما ليعودان إلي وضعهما الأول، فتتمزق أضلاعه وتُسحق عظامه، وتتطاير أجزاء من لحم جسمه في الفضاء»».

* «وقد شاهدّتُ بعينَّي المسيحيين وهم ينالون الشهادة بطرق مختلفة. فكان بعضهم بقطع الرأس. ويحرقون البعض في أتون النار، ويقتلون الرجال مع زوجاتهم وأولادهم الصغار».

* «وقد أعطاهم الله من القوة الخارقة لاحتمال الألم بفرح الروح القدس، وهم يقبلون الموت بأفواه مُبتسمة. وعندما كان يصدر حُكم بإعدام واحد، كان كثيرون يأتون للمحكمة - من كل جهة - ويعترفون بإيمانهم أمام القاضي بأنهم مسيحيون، غير مُبالين بما سيلحق بهم من عذابات مُريعة واضطهادات شنيعة. ويجاهرون بإيمانهم بكل شجاعة. ويرنمون ويشكرون الرب، الذي أهلّهم أن يموتوا من آجله. ويظلون يتهللون ويفرحون إلي آخر نسمة في حياتهم، عندما تفارق أرواحهم أجسادهم».

* «ومن الغريب والعجيب أن الذين اشتهروا بثرواتهم وشهرتهم وعِظَم مراكزهم وعلمهم وفلسفتهم، كانوا يعتبرون هذه الأمجاد الدُنيوية والمزايا المادية لا قيمة لها، في مقابل حفظ الايمان والإستشهاد».

+ ومن مشاهير الشهداء في عهد دقلديانوس القديس «**مارمينا**» (Menas) الذي كان من عائلة عريقة في النسب، في مدينة نيقيوس (بالمنوفية) وكان ضابطاً في الجيش الروماني، واعترف بإيمانه فتم قطع رأسه، ودُفن في إقليم مريوط، حيث بُنيت هناك كنيسة إكراماً له، ثم هُدمت وتم بناء كنيسة أكبر منها في أيام الامبراطور (البيزنطي) أركاديوس. وكان يزورها الحجاج، ويستريح فيها المسافرون من الإسكندرية لزيارة آديرة وادي النطرون.

+ وقد تم تسخير المسيحيين – في المناجم – بدلاً من المجرمين، واستخدموا بعض الأساقفة في خدمة إبل الامبراطور الروماني واسطبلات خيوله.

+ وقيل إن عدد الشهداء في مصر – خلال سنوات الاضطهاد التسعة في عهد دقلديانوس – بلغوا ١٤٤٠٠٠ شهيد، وهو عدد آقل من الواقع (فقد ذكرت المصادر القبطية أنهم بلغوا نحو ٨٤٠٠٠٠ شهيد مصري).

+ وكان الوالي أريانوس، حاكم الصعيد (بإنصنا قرب ملوي) وقد كان أشد

الولاة الرومان تعذيباً للأقباط في عهد دقلديانوس (وقيل إنه عذَّب وقتل نحو عشرة آلاف شهيد، واعترف بالإيمان ثم آمن واستشهد).

+ولقد كان فيلمون مغني أريانوس وأبولونيوس زماراً له. وأرادا أن يموتا شهيدين. فاعترفا بالإيمان أمامه. ونال فليمون إكليله بقطع رأسه. وأمر برمي الثاني بالسهام، فطاش سهم وأصاب عين الوالي. وظل وقتاً طويلاً يقاسي منها. ثم تمت المعجزة له.

+ إذ أخذ دماً من هذين الشهيدين. وطلي به عينه المصابة فشُفِيت. فاعترف بالمسيحية. وأطلق سراح المحبوسين في السجن. ولما سمع به دقلديانوس أحضره. فاعترف بالمسيح أمامه. ونال إكليله.

+ ومع أنه يُحتمل أن حاكم الإسكندرية (أرمانيوس) كان أكثر شفقة وأقل اهتماماً من آريانوس في تنفيذ الأوامر القاضية بالاضطهاد، إلا أنه في هذه المرحلة كان أقسي، وأشنع من الاضطهادات السابقة. وقد قيل إن البابا بطرس خاتم الشهداء (٣٠٢ – ٣١١م) قد إختبأ في باديء الأمر. كما فعل بعض البطاركة قبله[١] ثم نال إكليله.

+وعندما أُصيب دقلديانوس بالجنون، وعد بأن يتنازل عن الحُكم (٣٠٥م) ولكنه عاد اليه صوابه، فرفض هذا التنازل، ولكن جاليريوس وكيله بذل كل مافي وسعه ليضطر دقلديانوس إلي إصدار أمر التنازل الذي وعد به[٢].

+ ولما مـــات قسطنطينوس (٣٠٦م) وكـــانت الاضطرابات التي حـــدثت في

(١) وهذا الرأي لم يرد في أي مصدر قبطي قديم.

(٢) ويذكر المؤرخ يوحنا النقيوسي أنه تم نفي دقلديانوس لجزيرة. كان بها بعض المسيحيين هربا من الاضطهاد، فأشفقوا عليه حتي رجع لصوابه. فكتب الي مجلس الشيوخ الروماني (Senato) لإطلاق سراحه ـ وعودته لعرشه ـ فرفضوا. فأصيب بالجنون والعمي ومات. ولم يهتم به سوي جماعة المسيحيين الذين حكم عليهم بالعبودية والعذاب والموت!! **(هامش أصلي)**.

الأمبراطورية قد شغلت بال جاليريوس، فخمدت نيران الاضطهاد ضد المسيحيين -مدة من الزمن - في مصر.

+ فانشغل البابا بطرس (الأول = خاتم الشهداء) بإعداد «**قانون التوبة**»، الذي بمقتضاه يتم قبول الذين سقطوا - أثناء الاضطهاد - إلي حضن الكنيسة ثانيةً.

• وفيما يلي شروطه:

١) الذين سقطوا بسبب شدة الاضطهاد الأولي، وأظهروا توبة وندامة - خلال الثلاث سنوات الماضية - يمكن قبولهم يوم العيد (القيامة) القادم بعد صوم ٤٠ يوماً بتذلل.

٢) الذين عثروا بسبب السجن بدون عذاب شديد، تعطي لهم ٤ سنوات للتوبة والندم علي ذلك.

٣) الذين ارتدُّوا عن الإيمان خوفاً من العذاب، تعطي لهم ٤ سنوات للتوبة والندم علي ذلك.

٤) الذين أرتدُّوا ولا يطلبون توبة ولا رجوع للكنيسة، ترثيهم وتبكي لحالهم.

٥) الذين لم يتعذبوا لتظاهرهم بأية حيلة. تْعطي لهم ٦ شهور توبة.

٦) الذين أجبروا عبيدهم للمحاكمة عوضاً عنهم، يقدمون توبة لمدة سنة.

٧) العبيد الذين فعلوا ذلك، تُفرض عليهم ٣ سنوات توبة

٨) الذين عثروا، ثم اعترفوا وتعذبُّوا يجب قبولهم في عضوية الكنيسة.

٩) الاكليروس الذين سقطوا، وطلبوا العودة للكنيسة، لا يجب قبولهم في وظائف الكهنوت. بل يُقبلون كأعضاء (علمانيين) في الكنيسة فقط.

١٠) جميع الذين افتدوا أنفسهم بالمال، فلا لوم عليهم قط.

١١) لا شيء علي الذين نجوا من التعذيبات بالهرب من الموت.

١٢) الذين تم إجبارهم علي الذبح للأوثان، والذين أفقدهم العذاب شعورهم فلم يدركوا مافعلوه، يجب اعتبارهم في درجة **المعترفين** بالمسيح تماماً، مادموا قد فعلوه بدون إرادتهم، وإن كانوا من الاكليروس يُعادون لخدمتهم الأولي.

+ وقد تم الاعتراف بهذا القانون في الغرب في مجمع ترولو سنة ٦٦٢م. وظل معمولاً به في كل الكنائس الأرثوذكسية أيضاً.

+ والأغلب علي الظن أنه لما خف الاضطهاد، ظهرت مشكلة ميليتيوس أسقف أسيوط (Lycopolis) الذي ذكر عنه البابا أثناسيوس - فيما بعد - أنه ذبح للأوثان. فَحكم عليه البابا بطرس (الأول) في مجمع محلي بالحرم، ولكنه لم يخضع له، بل انشقّ عن الكنيسة الأم بالإسكندرية، وتمادي في عناده حتي رسم قسوساً كثيرين، وثلاثين أسقفاً، بيده وحده.

+ وبرَّر أتباعه وأصدقاؤه مافعله بأنه فر من السجن، ولم يحتمل العذاب.

+ وصادق أسقف أسيوط أريوس الذي سامه البابا بطرس شماساً في كنيسة الإسكندرية، ثم انحرف، كما سيأتي فيما بعد.

+ ثم بدأ الاضطهاد من جديد في خريف سنة ٣٠٨م إذ اتفق جاليريوس مع ابن أخيه مكسيميان في إصدار أمر آخر، بإعادة الاضطهاد للمسيحيين، وتجاوز الولاة الحد في العذابات. واستمرت مصائبه في مصر لمدة سنتين.

+ وقد اشتد اضطهاد مكسيميان الشرس والمتوحش - مع إبنه - علي شعب مصر.

+ وفي عام ٣١١م أصيب جاليريوس بمرض شديد. عسُر شفاؤه. فسعي

لإيجاد سلام وصلح بينه وبين إله المسيحيين، الذي قضي عمره في مقاومته ومحاربة شعبه. فأصدر أمراً بوقف الاضطهاد، وسجله المؤرخ يوسابيوس القيصري[1].

+ وكان قد أعلن رجوعه للمسيحية في شهر إبريل سنة ٣١١م، ثم مات في أواخر شهر مايو، قبل إعلان إيمانه في المملكة، فتكون توبته وندامته قد جاءت وهو علي حافة القبر، فلم تنفعه شيئاً!![2].

+ وكان أمر جاليريوس بإيقاف الاضطهاد بتوقيع نائبيه قسطنطين وليسينيوس، ولكنه لم ينفع في وقف سير الاضطهاد الشديد، لأن مكسيميان - ابن أخيه - ظل يُعذّب المصريين (في أثناء وجوده بمصر)، حتي أن أعظم شهداء مصر نالوا أكاليلهم في آخر سنة من عُمر جاليريوس، وعلي رأسهم البابا بطرس الإسكندري الذي قُطعت رأسه فجأة، وبدون علم شعبه، الذي كان يحبه، وكان يودّ تخليصه من يد والي الإسكندرية بالقوة[3].

+ ومما يدل علي شدة آثار هذا الاضطهاد أن القديس أنطونيوس - أب الرهبنة - مضي إلي الإسكندرية ليشجع ويُعزّي الشعب المُعذَّب.

+ وقد تمت هزيمة مكسيميانوس بمعرفة قسطنطين وليسينيوس ٣١٢م، وانتحر بالسم، وأنتهي الاضطهاد الذي دام عشر سنوات.

+ وقد كان بدء تاريخ الشهداء - أو التاريخ القبطي الحالي - من عام ٢٨٤م وهي أول سنة من تولي دقلديانوس حكم الامبراطورية.

---

(1) Cfr. Eusebius. Eccles. History.

(ترجمة القس مرقس داود بعنوان «تاريخ الكنيسة» طبع مكتبة المحبة).

(٢) ونحن نخالف الكاتبة، لأن الله يقبل الخاطيء النادم، حتي ولو قبل أن يموت بلحظات.فالمهم الاسراع بتوبة النفس الخاطئة، قبل أن تخرج الروح من الجسد، ويُغلق عليه باب القبر.

(٣) تذكر المصادر القبطية أن البابا بطرس (خاتم الشهداء) كان قد تم حبسه في السجن بالإسكندرية، وأحاط شعبه بالسجن، ولكنه طلب من الجند نقب جداره من الخلف. وخرج منه القديس سراً، ولم يعلم شعبه إلا بعد أن قُطعتَ رأسه، وبعدما صلي وطلب من الرب أن يكون هو آخر شهداء هذا العصر.

الفصل الثالث عشر

جدال أريوس سنة ٣١٢م (٢٨ش)

+ بعد موت مكسيميانوس بسنتين، وبعد استشهاد البابا بطرس بسنة تقريباً تم اختيار البابا أخيلاس، الذي كان قبلاً رئيساً للمدرسة اللاهوتية. ولم يقم علي الكرسي المرقسي سوي سنة واحدة.

+ وكان البابا أخيلاس (آشيلا) قد ردّ آريوس الهرطوقي، الذي حرمه البابا بطرس مرة ثانية من خدمة الكنيسة، وظل تحت هذا الحكم، إلي آن استشهد القديس بطرس.

+ وفوق ذلك عهد اليه البابا (أشيلا) برعاية كنيسة بوكاليا – وهي أقدم كنيسة في الإسكندرية - وقيل إنها بُنيت علي مقبرة القديس مارمرقس.

+ ولما تنيّح البابا آخيلاس رشّح أريوس نفسه لمنصب البطريركية، ولكن الإكليروس والشعب انتخبوا اسكندر (آلكسندروس) صديق البابا الراحل. وكان متقدماً في السن، وكان الشماس آثناسيوس – تلميذه – في السابعة عشرة من عمره.

+ ويروي المؤرخ روفينوس آن البابا اسكندر، كان ينتظر بعض رجال الدين وكان يُطل من شُرفة علي شاطي البحر، فرآي بعض الصبية يلعبون ويمارسون الطقوس الكنسيّة، ومنهم الطفل آثناسيوس، الذي عمّد الأطفال الآخرين بدقة! فأخذه البابا عنده، ليُعلّمه. ثم جعله سكرتيراً له.

+ ولم يمر علي بطريركية اسكندر خمس سنين حتي عم السلام الكنيسة المصرية، وعاد كل الناس الهاربين إلي بيوتهم، وترميم الكنائس المُتهدمة، ودخل كثير من الوثنيين الإيمان.

+ ولم تأتِ سنة ٣١٩م حتي اشتدت بدعة أريوس. وسعي الشرير لنشرها

وتعليمها للناس. فبدأ البابا اسكندر، في عقد اجتماعين لفض الخلاف، ولكنه لم يفلح. وفي رأي الكاتبة أن الذي يبحث بدعة أريوس يجد أنه لم ينكر إلوهية المسيح إنكاراً صريحاً. ولكنها كانت بدعة خبيثة شقت الكنيسة، وقد سعي لنشرها بطرق ملتوية (ومنها إدخال أفكاره الهرطوقية في شكل ترانيم يُعلّمها للبُسطاء «Thalia» مثل طرق المذاهب المُحَدثة تماماً).

+ وعقد البابا اسكندر مجمعاً محلياً حرم فيه أريوس (٣٢٠م)، فلم يرضح له، وغادر الأسكندرية إلي فلسطين. حيث جمع له أتباعاً، وأثّر فيهم تأثيراً كبيراً. حتي استمالهم لأفكاره الفاسدة، ومنهم «يوساب» أسقف نيقوميديا – زميل أريوس في المدرسة – وصديق قسطنطين. فسعي لإستمالته لهذا المذهب المنحرف.

+ وقد سمح يوسابيوس القيصري - وأساقفة آخرون - لأريوس بعقد اجتماعات دينية في أبروشياتهم. فكتب البابا اسكندر رسالة عامة لكل الكنائس أوضح فيها أسباب حرمان أريوس، وقطْعِه من عضوية الكنيسة المقدسة.

+ وتوقفت هذه المناظرات لاضطهاد جديد بيد لسينوس النائب الامبراطوري، الذي قتل دوناتوس أسقف ثميوس (تمّي الأمديد بالدقهلية حالياً) في مصر – مع إثنين من قسوسه. فحاربه قسطنطين وهزمه في معركتين، في يوليو وسبتمبر سنة ٣٢٣م وأنتصر عليه.

+ وبذلك صار **قسطنطين** هو الامبراطور المُسيّطر علي الامبراطورية كلها ونقل عاصمته إلي مدينة بيزنطة، وسماها **القسطنطنية** (اسطنبول حالياً).

+ وعرض عليه يوساب أسقف نيقوميديا (بآسيا الصغري) مشكلة أريوس. فكتب قسطنطين إلي البابا المصري اسكندر والي أريوس، ولكنه لم يفلح

في وقف هذا الشقاق، إذ أخبره رسوله الأسقف «**أوسيوس**» (أسقف قرطبة بأسبانيا والذي أوفده للإسكندرية) بصعوبة حل هذا الخلاف اللاهوتي.

+ فأصدر الامبراطور قسطنطين (الكبير) قراراً بعقد مجمع مسكوني في «**نيقية**»[1] **سنة ٣٢٥م**، ووضع المجمع **قانون الإيمان المسيحي** (بالحقيقة نؤمن... الخ)وخُتم هذا القانون بالحرم التالي.

* «إن الكنيسة المقدسة- الجامعه الرسولية- تحرم كل من يقول بوجود زمن لم يكن ابن الله موجوداً فيه وأنه لم يوجد، وأنه لم يوجد قبل أن يولد، وإنه وُجِد من لا شئ. أو من يقول إن الأبن وُجِد من مادة-أو جوهر- غير جوهر الآب. وكل من يؤمن أنه خُلِق، أو من يقول إنه قابل للتغيُّر، أو يعتبر ظل دوران».

+ووقع الأساقفة الحاضرون - ماعدا خمسة - علي حرم أريوس، وصدر قرار من الامبراطور قسطنطين بنفيّه. وكذلك نفي من رفضوا التوقيع.

+ ثم بحث المجمع المسكوني الأول مسألتّي ميليتيوس(أسقف أسيوط المُنشّق) وتحديد موعد عيد القيامة (= الأحد التالي للفصح اليهودي):

وقد بعث المجمع إلي المصريين رسالة قال فيها المجتمعون:

* «إننا وجدنا أن ميليتيوس لا يستحق الإكرام أو الصفح علي ما أحدثه من شقاق (في كنيسة مصر)، إلا أن الشفقة والحنان يُحتّمان علينا أن نُعامِلَه بالرأفة واللُّطف. ولذلك آذن له المجمع بالاقامة في بلدته -مسقط رأسه- وأمره بعدم ممارسة وظيفة كهنوتية...».

* «وأما الذين رسمهم، فتبقي لهم وظائفهم ورتبهم، ولكنهم يعتبرون أقل

---

(١) بآسيا الصُغري وشارك فيه ٣١٨ أسقفاً من كل أنحاء العالم المسيحي.

درجة من الآخرين الذين رسمهم رئيسنا المحترم البطريرك أسكندر، وليست لهم سلطة علي تعيين-أو ترشيح- من يريدون، وألا يعملوا عملاً ما، بدون تصّديق (إعتماد) أحد أساقفه الكنيسة الجامعة» (القانونيين).

+ **وبالنسبة لموعد عيد القيامة**: «يسرنا أن نخبركم أن هذه المسأله أنتهت، وأصبح الجميع يسيرون-من الآن فصاعدا-علي الطريقة التي تسير فيها الكنيسة الرومانية، ومن جري مجرانا من قديم الزمان»[١].

+ ولم ينتِّه شقاق أريوس بعد المجمع المسكوني الأول، وإنما بدآ يستفحّل الصراع.

+ فقد تنيّح البابا أسكندر عد عودته من نيقيه بأشهر قلائل، وخلفه البابا أثناسيوس الشاب المملوء غيرة ونعمة وحكمة، وكان أريوس يُعّده خصماً شديداً له، ولذلك دام الصراع الديني ببينهما مدة عشر سنوات متوالية!!

✣ ✣ ✣

الفصل الرابع عشر
البدعة والأنشقاق سنة ٣٢٦م (٤٢ش)

+ لما رأي الأمبرطور قسطنطين آن السلام قد حل[٢] بدآ في إنشاء العاصمة البيزنطية (القسطنطنية) وسماها روما الجديدة، واشترط أن يسكنها

---

(١) انتهت خلافات الكنيسة الرومانية وكنائس آسيا الصغري بقرار المجمع النيقوي بآن يكون عيد القيامة المجيد في الآحد التالي لفصح اليهود، وآكد المجمع المسكوني الآول آن كنيسة الآسكندرية هي التي تحدد هذا الموعد- وما يسبقه من آصوام ومناسبات دينية - وتُبلّغ بها باقي الكنائس، لتقدمّها في العلوم الفلكية (وخاصة حساب «**الأبقطي**» الذي تم وضعه في عهد البابا ديمتريوس الكرأم).

(٢) تجاهلت الكاتبة الإشارة إلي إيمان قسطنطين وكيف ظهرت له علامة الصليب؟ وكيف صنع صلباناً علّي راياته، وأنتصر علي خصمه في روما؟ وآصدر في ميلانو آمراً(سنة ٣١٢م) باعتبار المسيحية «**ديانة شرعية**» في الإمبراطورية الرومانية (Religio Lecita).

اليونانيون والمقدونيون، وقد عُرفوا فيما بعد- ولاسيما في مصر- بالروم (أو الأروام) وسُمّي يطريكهم «بالرومي» .

+ وذهبت أمه (هيلانة) إلي المدينة المقدسة (أورشليم = القدس) وشيدت كنيسة القيامة، وكنائس أخري (وأديرة) في فلسطين، وفي مصر. علي أطلال كنائس قديمة العهد، أو تهدمت أثناء الاضطهاد الروماني الأخير.

+ وفي أيام البابا أثناسيوس تأسست الكنيسة الحبشية، عندما زاره «**فرومنتيوس**» وأخبره إنه لما كان في سفر - إلي الهند-مع أخيه وجماعة آخري. ونزلوا علي شاطئ البحر الأحمر المواجه للحبشة (إثيوبيا) للتزود بالمياه. فهجم عليهم الأهالي، وقتلوهم. ماعداه هو وأخوه، حيث بيعا عبيداً للملك، ثم قاما بتربية أبناء الملك الحبشي وعملا علي نشر المسيحية هناك.

+ ثم التمس من البابا أثناسيوس أن يرسل لهم أسقفاً قبطياً، فقام البابا برسامته هو وأعادة إلي الحبشة. ولا يزال الأحباش يكرمونه ويسمونه «أبو سلامة» أي أب السلام[1].

+ وأنتهز البابا أثناسيوس(الرسولي) فرصة الهدوء الأولي فزار شعبه حتي وصل إلي أسوان. وكان هناك (بالصعيد الأعلي) راهب مشهور أسمه «**باخوميوس**»، ترك الجندية وتتلمذ علي يد الراهب القديس«بلامون» ، أشتهر بالتقوي. وكان هذان الراهبان يتحصلان علي قوتهما الضروري بصنع ملابس من الشعر (الماعز).

---

(١) ويقول المؤرخ روفينوس أنه نقل هذا الخبر من فم شقيق فرومنتيوس الذي رجع إلي صور (بلبنان) من الحبشة وصار قساً(**حاشية أصلية**) .

+ ولم يمضِ وقت طويل حتي أجتمع حولهما عدد كبير من الرهبان، وأستقبلوا البابا آثناسيوس بالترانيم والمزامير .

+ ولم يخضع ميليتيوس وأريوس لحُكم مجمع نيقية، بل ناصبا البابا العداء، والذي ساعدهما في التمادي في شرهما ميل الأمبراطور قسطنطين لمذهب أريوس، بتأثير أتباع أريوس، الذين أغروه ليكتب لاثناسيوس لإعادة أريوس إلي الكنيسة. فرفض البابا القبطي، علي أساس آنه كان لا يزال متمسكاً ببدعته.

+ فأهاج آتباع آريوس سخط الأمبراطور، حتي هال لسماع التُهم التي سعي يوساب أسقف بيقوميديا وأنصاره لاثباتها عليه. وزعموا آنه شرع في تحصيل ضريبة يتحصل منها علي حُلَل بيضاء من الكتان (التونية) للإكليروس المصري، ومساعدة آحد الثائرين علي الدولة ومده بالمال، ولكن ثبت للإمبراطور كذبهم.

+ وتم دحض تهمة آخري بآنه هدم كنيسة كاهن يُدعي اسخيراس وأحرق كتبها، وحطم كآس العشاء الرباني. فاثبت البابا آن كل هذا الأدعاء كان كذباً، وآستعان بشهادة أسخيراس نفسه، والتي شهد عليها ١٢ آسقفاً بتوقيعهم عليها.

+ كما آتهموه باستعمال السحر، إذ دس السُم لآسقف من آتباع ميليتيوس -آسمه أرسانيوس- وآماته. واستخدم جثته في السحر، وآتي المُدعّون بيد مبتورة، من جثة زعموا أن البابا فصلها عن جسمه. وتم البحث عن أرسانيوس وكان لا يزال حياً وجيء به.وثبت كذب هذا الأدعاء أيضاً.

+ وهكذا بحث مجمع صور (٣٣٥م) هذه التُهَم وثبت بطلانها. ثم ذهب البابا أثناسيوس للقاء الإمبراطور قسطنطين. وهناك اتهمه أتباع أريوس بتهمة

سياسية، وهي أن البابا منع مراكب القمح المحملة بالمحصول من مصر إلي القسطنطنية– كضريبة سنوية–من أن تصل اليها.

+ ومع أن البابا نفي هذه التهمة، لكن الإمبراطور نفاه –مؤقتاً– إلي تريڤ (Trevès) بشمال ألمانيا، وقضي هناك سنتين ونصف. وكان القديس يوالي كتابة الرسائل المفيدة روحياً لشعبه في مصر.

+ وعاد أريوس لبذر الانقسام والقلق في مصر، وفوق ذلك ثار المصريون بسبب نقل بعض آثارهم القديمة (المسلات) إلي القسطنطنية. وزاد سخط سكان مصر الوثنيين بسبب نقل مقياس النيل من هيكل سرابيس إلي كنيسة مسيحية، وقام الكهنة المسيحيون بالاحتفال بعيد وفاء النيل، بدلاً من كهنة الأوثان.

+ وكان من الذين إلتمسوا من الآمبراطور قسطنطين التدّخل في مسألة عودة البابا أثناسيوس إلي كرسية القديس آنطونيوس، الذي ترك ديره–بناء علي طلب البابا أثناسيوس– وجاء إلي الإسكندرية، ليحذر الناس من بدعة أريوس، ولم يقبل الأمبراطور رجاءه في عودة البابا لكرسيه.

+ ولما تقرر ذهاب الهرطوقي للأحتفال علناً برجوعه للكنيسة، عارض البطريرك أسكندر، ولم ينجح في استمرار حرّمه في القسطنطنية، ولكن الله أنتقم من أريوس إذ فاجأته آعراض مرض مثل الكوليرا ومات في الحال، ناكراً إلوهية السيد المسيح، وكان إتباعه هم أول مسيحيين يضطهدون المسيحيين إخوانهم في الإيمان!!

+ وفي عام ٣٣٧م أتم قسطنطين بناء كنيسة الرسل، وأنحدرت صحته، وطلب العماد من يوساب أسقف نيقوميديا. ومات يوم عيد العنصرة (حلول الروح القدس) وقبل موته قسّم حكم الآمبراطورية، فأخذ آبنه

الأكبر قسطنطين بريطانيا وأسبانيا وفرنسا، وأبنه الثاني قسطنطينوس آسيا الصغري وسوريا ومصر، وقسطنس لحكم إيطاليا وأفريقيا (الشمالية) واليونان، وهنيبال لحكم أرمينيا وبنطس (آسيا الصغُري).

+ ولكن بعد موته حدثت صراعات وقتْل داخل أسرته، وأعيد تقسيم الإمبراطورية، وصار قسطنطينوس الثاني أمبراطوراً للشرق ومصر. فأعاد البابا أثناسيوس إلي كرسيه في نوفمبر سنة ٣٣٨م إلي حين.

+ إذ لما كان يميل إلي الأريوسية، عيَّن شخصاً يدعي غريغوريوس الكبادوكي محل البابا أثناسيوس، فقامت أضطرابات في الأسكندرية للأحتجاج علي ذلك. وأجتمع الشعب في كنيسة القديس الأسقف ڤورينوس (اليوناني الذي أستشهد في عهد دقديانوس)، وكان الوالي (البيزنطي) صديقا للبطريرك الدخيل. فقاد جماعة من الأشرار الوثنيين وهجموا علي الموجودين وقاموا بنهب الكنيسة وقتلوا كثيرين بها!!

+ وكان البابا أثناسيوس في صومعة بكنيسة القديس ثيؤناس (ثاونا) فانسحب من الإسكندرية، وخلي الجو للأسقف الدخيل، الذي منع الكهنة الأقباط من الخدمة. ولما دخل غريغوريوس الكنيسة يوم الجمعة الحزينة ثار ضده الشعب. فقام الوالي بالقبض علي كثير من الرجال والنساء الأقباط، وتم جلدهم بشدة.

+ ووصل القديس أثناسيوس للقاء يوليوس أسقف روميه. فاستقبله بإكرام، وأثر وجود البابا أثناسيوس في وجود مبادئ في الكنيسة اللاتينية (الكاثوليكية) إلي الآن (في عهد الكاتبة)، ومنها نشر الرهبنة

المصرية وآركانها، كما ذكره المؤرخ جيبون (Gibbon)[١]، وظل البابا القبطي هناك لمدة ١٨شهراً.

✠ ✠ ✠

الفصل الخامس عشر
غريغوريوس وجورجيوس الدخيلان من كبادوكية
عام ٣٤٠م (٥٦ش)

+ قبل قتل قسطنطين الثاني مات «**يوسابيوس**» أسقف قيصرية، الذي كتب تاريخاً عن الكنيسة شمل الثلاثة قرون الأولي[٢] وكان في البداية آنحاز إلي جانب أريوس، ولكنه عاد وأقتنع بحكم مجمع نيقية. وكان قسطنطين الكبير يحبه. وقد كلفه بإعداد ٥٠ نسخة من الكتاب المقدس بالإسكندرية لتوزيعها علي الكنائس الكبري التي بناها.

+ واغتصب غريغوريوس الكبادوكي البطريركية، وعمل آعمالاً شريراً بالإسكندرية، ومنها أضطهاده عمة البابا أثناسيوس حتي ماتت، وسعي لعدم دفنها في مقبرة مسيحية. وسرق صدقات الأرامل!!

+ والأساقفة الذين رفضوا رآسته عاملهم بوحشية. وعذّب القديس «**بوتامون**» الذي كان من بين أعضاء مجمع نيقية. وقد تشوهت أعضاؤه في عهد دقلديانوس، وكان راهبا طاعناً في السن. فضُرب حتي آستشهد.

+ ولما كتب اليه القديس آنطونيوس يلومه علي تصرفاته الخرّقاء مزق رسالته بكبرياء!!

---

(1) Cfr. Gibbon, Decline and Fall of The Roman Empire.

(٢) يوسابيوس،تاريخ الكنيسة،ترجمة القس مرقس داود، نشر مكتبة المحبة.

+ ولما آراد آسقف روما عقد مجمع هناك بحضور البابا آثناسيوس، ودعا أساقفة لحضوره، أسرع أتباع أريوس، وعقدوا مجمعاً في أنطاكية خلال الأحتفال بتدشين كنيسة كبري بها، وقرروا تأييد الحكم الصادر بحرمان أثناسيوس، وتجريده من وظيفته.

+ فقام العاهل الروماني بالدعوة لعقد مجمع آخر -في روما- ضم أكثر من ٥٠ أسقفاً، وفند الاتهامات المنسوبة للقديس أثناسيوس. وحكم المجمع الروماني المحلي ببراءته.

+ وفي عام ٣٤٣م عزم الأمبراطور قسطنطين (الصغير) علي تشكيل مجمع لأساقفة الشرق والغرب في جزيرة سرديكا. وبعد مناقشات مُطولّة أنسحب منه الأساقفة الأريوسيون.

+ ومن بين ماقرره هذا المجمع قانوناً يرفع المشاكل اللاهوتية الصعبة إلي كرسي رومية!! ومن ذلك الحين ورومية تدّعي الأولوية علي باقي الكراسي (الرسولية) الأخري!! وهي دعوي لم يُعتَرف بها -ولم تقّبلها- كنائس الإسكندرية والقسطنطنية.

+ وغضب قسطنطينوس من أحكام مجمع سرديكا، وآمر بقطع رأس القديس أثناسيوس إن عاد إلي مصر. وأمر بنفي ٥ قسوس من أتباعه، وفر كثيرون إلي البراري بسبب أضطهاد أتباع أريوس لهم.

+ وفي سنة ٣٣٤ أنكشفت دسيسة دنيئة دبرها بطريرك آنطاكية الأريوسي. فغضب الأمبراطور علي الأريوسيين، وبدأ يعطف علي أثناسيوس. ولما مات غريغوريوس الدخيل، عاد البابا الشرعي لكرسيه سنة ٣٤٦م. وقد آسهّب القديس الأسقف غريغوريوس النزينزي في وصف حفاوة آستقبال الشعب للبابا آثناسيوس العظيم.

+ وعرف البابا طعم السلام ثلاث سنوات. فتفرغ لرعيته ورسم آساقفة، وعّين

القديس ديديموس (الضرير) رئيساً للمدرسة اللاهوتية المرقسية، وكان هذا الكفيف قد أخترع حروف الأبجدية القبطية محفورة علي ألواح من الخشب (مثل طريقة برايل الحديثة للقراءة باللمس لمكفوفي البصر).

+ وقال المؤرخ سقراط (البيزنطي)[1] أنه -بهذه الطريقة أستوعب ديديموس علوم كثيرة كالنحو والفلسفة والمنطق والرياضة والموسيقي، وكان يُقنع كثيرين بصحة الإيمان الأرثوذكسي.

+ وقد امتدحه القديس أنطونيوس وقال له:«أسمع ياديديموس. ولا تحزَن لفقْد بصرك، فإنك لو حُرِمّت من حاسة البصر، التي مُنحَت حتي للبعوض والذباب، كواسطة للشعور بها، مادام لا شعور عندها غير البصر، فخير لك أن تفرح،لأن لك عينين -كأعين الملائكة - تبصر بها الروحيات، بل بواسطتهما أدركت الإله نفسه، وسطع نوره أمامك، فأبعَّد الظلام عن عينيّ قلبك فاستنرّت».

+ وقال المؤرخ سقراط أيضاً أن ديديموس قهر أتباع أريوس في مناظراته معهم، وأن له الكثير من المؤلفات، ولم يبقً منها سوي ٤ كتب فقط. وقد دافع عن أوريجانوس وقال «إن الذين يتهمونه بالبدعة هم عديمو الفهم، ولا قدرة لهم علي إدراك الأفكار العالية، التي إمتاز بها هذا الرجل العظيم، الذي يُعَّد من النوابغ المشهورين».

+ وتتلمذ علي يديه كثيرون من كل العالم المتُمدِّين، ومنهم روفينوس وچيروم. وكانوا يلقبونه «بالأعمي البصير».

+ وفي عام٣٥٠م قُتِل قسطنس في ثورة،فظل قسطنطينوس هو الأمبراطور الوحيد في الأمبراطورية كلها بعد أخويه، وكان لا يميل للبابا أثناسيوس،

(1) Socrates. Eccles. History.

+ وقد علم قداسته أن هناك من يدسون له الدسائس، فأرسل إليه سنة ٣٥٢م خمسة أساقفة وثلاثة كهنة، لإثبات براءته أمامه، وكان منهم الأنبا سيرابيون أسقف ثميوس (تمَيّ الأمديد بالدقهلية حالياً) وكان بارعاً في علمه، وصديقاً للبابا القبطي.

+ ولم تصادف هذه اللجنة نجاحاً. وأراد قسطنطينوس نفي البابا المصري إلي أوربا مرة أخري، فلما فشل في ذلك، شكل مجمعاً محلياً في مدينة «آرل» (Arles) فأصدر هذا المجمع ضد البابا عدة قرارات.

+ وقد بلغت المجامع التي عُقدت ـ في عهد هذا الأمبراطور–أكثر من عشرة. وكلها مناقشات ومجادلات بين أثناسيوس والأريوسيين. وقد إدعّي هذا الأمبراطور الشرير أنه هو رئيس الكنيسة ورئيس الدولة!!

+ وقد كتب المؤرخ الوثني أميانوس عنه يقول:

* «إن الديانة المسيحية بسيطة وسهلة القبول، إلا أن قسطنطينوس شوّه جمالها بخرافات قديمة، وأوجّد شقاقات بواسطة أحزاب مُتعددة، أعدها لتبحث في أمور لا قيمة لها. وقوّاها علي الأختلاف بدلاً من التوفيق بينها، بما له من سلطة ونفوذ. فانتشرت المجادلات الشفهية في كل مكان بإغراء الإمبراطور نفسه، حتي أنه أبطل إرسال البريد، وأعطي خيوله إلي الأساقفة لحضور مجامع– بناء علي دعوته–ليصادقوا علي توحيد السُلطة، وجعلها تحت يده»!!

+ وفي عام ٣٥٥م تمت محاكمة البابا أثناسيوس في مجمع بمدينة ميلانو. وواجه أربعة من الأساقفة الأمبراطور، الذي اشتد غضبه،لأنهم أنكروا سلطته علي معاقبة أسقف، ورأوا أنه يعاقبه دون قانون. وأن محاكمة البابا من سلطة الإساقفة. فأجابهم بغيظ وقال: «إن إرادتي هي القانون»!!

+ ويصف القديس أثناسيوس كيف هجم العساكر علي الكنيسة بالإسكندرية ليقبضوا عليه، ودخلوا وقتلوا كثيرين وهم يُصلّون، وفي وسط الظلام أختفي القديس من أعدائه. وظل مختبئاً لمدة ٦ سنوات. وكان ينام علي الأرض، طول هذه المدة!!

+ وكان يرسل الرسائل للأساقفة. وكانت أوامره نافذة في كل الكنيسة القبطية. وكان قد بلغ الستين من عمره، ومع ذلك كان يبدو عليه السلام والفرح القلبي (وهو خير درس لكل نفس).

+ وفي هذه الخلوة كتب دفاعاً عن نفسه، لإظهار براءته، مما نسبه الأشرار إليه من أتهامات كاذبة وظالمة، وأرسله إلي الأمبراطور قسطنطينوس. كما كتب إيضاً موضحاً الأسباب التي دفعته للهرب[1] كما كتب مؤلفه «الرد علي الأريوسيين»[2].

+ ووضع القديس أيضاً منشوراً عاماً، ضمنّه مبادئ هامة للرهبان في الأديرة.

+ ولما وصل الأسقف الدخيل جورجيوس أثار أضطهاداً شديداً للأقباط. فطرد أكثر من ثلاثين أسقفاً بعدما عاملهم بقسوة، حتي مات بعضهم قبل وبعد النفي.

+ وذكر البابا بأنه كان يتم حبس الفتيات في السجون، وجر العساكر للأساقفة - في الشوارع - وهم مُقيدّون بالسلاسل. ونهب أعوان الأسقف الدخيل منازل المسيحيين. ولم يتمكّن الأرثوذكس من تأدية صلاة عيد الفصح إلا في المقابر. وقتلوهم في يوم العيد المبارك. كما نفي الشرير كثيرين إلي الواحات، بما فيهم العذاري، ومنع الصلاة علي الذين ماتوا من شدة ضرب السياط.

+ ومما زاد من حزن القديس أثناسيوس رحيل مُعلّمه القديس أنطونيوس، الذي كان يشجعه في جهاده الروحي العظيم ضد الهراطقة.

---

(1) Cfr St. Athanasius, Apologia de Fuga.

(2) Idem., Contra Arianorum., in N. & Post - Nicene F. Series.

+ وفي عام ٣٦١ م تولي يوليانوس الكافر (الملحد) حكم القسطنطنية، وأعلن جهاراً: إعادة طقوس العبادة الوثنية، وكان البطريرك جورجيوس الدخيل قد أثار هياج الوثنيين بالإسكندرية، لأنه تم أكتشاف عظام آدمية قد تم العثور عليها في أنقاض معبد وثني. فقبضوا علي البطريرك الشقي وحبسوه-مع إثنين من أتباعه، ثم ضربوهم ورفسوهم حتي ماتوا.

+ وقد وصف الأمبراطور يوليانوس بنفسه هذا العمل بقوله: «إن الشعب مزقً أحد الرجال الثلاثة قطعاً صغيرة في أقل من لمح البصر، مثل فعل الكلاب في الجثث».

+ ثم قام الوثنيون بحمل بقايا أجساد الثلاثة علي جمل، وأحرقوها علي الشاطئ وذروا رمادها في الماء، وكانت تلك هي نهاية هذا البطريرك الدخيل والطاغية، فاستّحق نفس ما كان يفعله مع جثث الأرثوذكس.

+ ومع ذلك فإن المؤرخ اللأنجليزي جيبون- بعد ١٤ قرناً-قد شبَّه جوارجيوس الشرير هذا، بمار جرجس الروماني، شفيع الكنيسة الإنجليزية، وأعظم شهيد في المشرق!! وهو «خلط لايحتمله العقل»، كما قالت مدام بوتشر (وهي مقولة صدق وحق).

+ + +

الفصل السادس عشر

عودة البابا أثناسيوس ثم نياحته

+ لما بلغ الإمبراطور يوليانوس الجاحد خبر قتل الغوغاء الوثنيين للأسقف الدخيل «جوارجيوس» أرسل رسالة غريبة للجمعية الوثنية بالإسكندرية يدل ظاهرها علي أنه يُونبهم، ولكن يُفهم من باطنه أنه تغاضي عن عقابهم. ومما قاله لهم:

* «لقد كان من حُسن حظكم إنكم إرتكبتُم هذا الذنب القبيح في مدة حكمنا، فعاملناكم معاملة ودية أخوية، حتّمها علينا حبنا وأحترامنا لجماعة الآلهة (الأوثان)...، ونكتفي بتوبيخكم علي ما أرتكبتموه، ونُحذّركم من العودة لمثله مرة أخري»!!

+ ومع أن يوليانوس الجاحد كان شديد التمسُك بالوثنية، لكنه رأي أن اضطهاد المسيحيين لن يكون في صالحه، لأنه قد يُوجِد رباطاً متيناً بين المسيحيين – رغم تعدُّد مذاهبهم – مما قد يُفقده عرشه، إذ لا قدرة له علي مقاومتهم. فأكتفي بإصدار الأوامر للتضييق في سبيل التربية والتعليم، والضغط الشديد علي العقول، مما أعاق عمل الكنيسة، وعطّل نموها.

+ ومن ناحية أخري ضرب الأريوسية بإصدار أمر بإرجاع جميع الأساقفة الذين نفاهم قسطنطينوس – إلي كراسيهم – فعاد البابا أثناسيوس إلي كرسيه في فبراير سنة ٣٦٢م. وعقد مجمعاً محلياً – من عشرين أسقفاً– قرر فيه قبول كل من يقبل قانون الإيمان النيقوي في عضوية الكنيسة، منعاً من المشاحنات الدينية.

+ ولم يكد القديس أثناسيوس يستريح قليلاً من متاعب النفي والاضطهاد، حتي انقلب ضده يوليانوس،إذ أدرك أن الديانة الوثنية كادت تُطمَس آثارها وطقوسها، مادام هذا البطريرك موجوداً في الإسكندرية.

+ ومما أغاظه منه أيضاً أنه عمدّ بعض اليونانيات الوثنيات بالإسكندرية. فأصدر تعليماته بنفي البابا أثناسيوس، زاعماً أن قرار العفو لا ينطبق عليه[١].

---

(١) وقد كتب لوالي الأسكندرية قائلاً: «مع إنك مهمل كثيراً في أن تكتب إليَّ عن مسائل مُتعددة، وأنا أتجاهل ذلك، إلا إنه كان يتحتم عليك أن تخبرني عن تصرفاتك مع أثناسيوس عدو الآلهة وكاره الأوثان. وأُقسِم أنه أن لم يبرح الإسكندرية في أوائل شهر ديسمبر، فإنني أغرِّم موظفيك ١٠٠رطل ذهب عقاباً لهم. وأعلم إنني بطيء العقاب، ولكني بطيء العفو والصفح».

+ وأضطر البابا للذهاب إلي الصعيد،إلي أن سمع باغتيال يوليانوس الجاحد في ٢٦يونيو سنة ٣٦٣م. ويزعم المؤرخون الوثنيون أن الذي أغتاله أحد عساكره المسيحيين. بينما يروي القديس باسيليوس أسقف قيصرية كبادوكيا (بآسيا الصغري) أنه رأي في حلم أن السموات أنفتحت ثم سمع الرب يسوع يدعو القديس مرقوريوس (أبو سيفين) ليذهب ويقتل يوليانوس، عدو خُدامّه الأمناء. وسمع الشهيد، وهو يعلن للرب أنه قتل فعلاً الأمبراطور الجاحد، كما رواه المؤرخ الأسقف يوحنا النقيوسي.

+ واختار الجيش «**يوفيانوس**» قائد الحرس الأمبراطوري أمبراطوراً، وكان مسيحياً مؤمناً، لذلك كانت مدة حكمه القصيرة فترة سلام وراحة للكنيسة، كما أن أكثر رجال الجيش – الذين زاغوا عن الإيمان في عهد يوليانوس الجاحد – قد عادوا من جديد للمسيح.

+ كما أرسل رسالة إلي البابا أثناسيوس يُعبّر فيها عن إعجابه بقداسته، وطلب منه أن يشرح له الإيمان السليم، فأرسل إليه ما أراد.

+ وحاول الأريوسيون إقامة أسقف لهم بالإسكندرية، ولكن يوفيانوس لم يستجب لهم، بعدما عرّفهم بأن أثناسيوس هو البطريرك الشرعي للإسكندرية.

+ وفي فبراير سنة ٣٦٤م رجع البابا أثناسيوس إلي كرسيه، ولكن سرعان ما مات يوفيانوس، الذي كان المؤمنون يرجون منه كل خير وسلام. وقد مات مختنقا بالغاز بسبب إيقاد فحم للتدفئة في حجرته المغلقة في جوٍ قارس البرد!!

+ وقد خلفه الأمبراطور ڤالنتيان الأول، ولم تكن له علاقة بمصر، لأنه قد عهد بالشرق إلي أخيه (ڤالنس)، الذي كان أريوسي المذهب. فأصدر عام ٣٦٥ م أمراً بنفي الأساقفة الأرثوذكس، وأسرع البابا أثناسيوس بالفرار قبل مجئ الجند للقبض عليه.

+ وذكر سقراط المؤرخ أنه مكث أربعه أشهر في مقبرة آبائه، ولكن لما رآي ڤالنس أن الأمن لن يستتب في مصر إلا بعودة البابا أثناسيوس سمح له بالعودة إلي كرسيه. وظلت البلاد تمارس العبادة المسيحية، وتسعي الكنيسة إلي إنتشارها.

+ وفي أول يوليو سنة ٣٦٦ م حدث شغب من الوثنيين بالإسكندرية، وأحرقوا كنيسة سيزريوم (قيصرية) الكبري، التي تم بناؤها سنة ١٦٣م.

+ وفي عام٣٦٧م تمت رسامة لوسيوس الأريوسي رسامة غير قانونية خارج البلاد. وطمع في كرسي الإسكندرية. فلما جاء إلي مصر أحاطت به الجماهير الثائرة وأرادوا الفتك به، فأنقذه الوالي بفرسانه، وأعاده للخارج، خوفاً علي حياته.

+ وفي سنة ٣٦٨م رمم البابا أثناسيوس كنيسة سيزريوم التي أُحرِقت، وفي السنة التالية، بني كنيسة أخري، دُعيت باسمه. فيما بعد. وقام برسامة «سيداريوس» أسقفاً لبنتابوليس. وحرم حاكماً بيزنطياً قاسياً هناك[١].

+ وقضي قداسته الخمس سنوات الأخيرة من حياته، وهو يؤدي واجباته بأمانة. وأرسل رسائلاً إلي أساقفه الكنائس الأخري، وخصوصاً القديس باسيليوس (الكبير) أسقف قيصرية الكبادوكية، وشملت رسائله مقاومة البدع التي ظهرت، مثل بدعة أبوليناريوس ومرسلوس، في أوربا.

+ وقد أستراح البابا أثناسيوس الرسولي في عام٣٧٣م بعد جهاد ٤٦سنة، علي الكرسي المرقسي، بركة صلواته تكون معنا، آمين.

---

(١) لمزيد من التفاصيل والمعلومات السليمة عن ذلك راجع كتابنا. «تاريخ كنيسة الخمس المدن الغربية، طبع مطرانية البحيرة سنة ١٩٨٧.

الفصل السابع عشر
آخر أسقف أريوسي في الإسكندرية
سنة ٣٧٣م (٨٩ش)

+ بعد نياحة البابا أثناسيوس حدثت فوضي في الإسكندرية، فنشط أتباع أريوس، وأغتاظ الأمبراطور فالنس من آختيار الآقباط للبابا بدون رأيه الشخصي.

+ فهجم الوالي الوثني بالاريوس علي البابا بطرس الثاني عندما كان يصلي بكنيسة القديس ثاونا. وكان له مسكن خاص بها. وأنتهز الوثنيون واليهود الفُرصة وقاموا بتدنيس المذابح وإهانة المسيحيين.

+ وهرب البابا بطرس وكتب رسالة يصف فيها ما حدث في زمانه، لا تزال موجودة للآن (في عهد الكاتبة).

+ وأرسل البابا الروماني دماسوس رسالة لبطرس بابا الإسكندرية، ولكن تم القبض عليه، وأُرسِل للعمل في المناجم. ثم ذهب إلي روما، حيث بقي بها خمس سنوات.

+ وعاد لوسيوس الأسقف الأريوسي الدخيل للإسكندرية، ليجلس علي الكرسي المرقسي، وقاد حملة عسكرية إلي وادي النطرون، لإرغام الرهبان الأقباط علي قبول أفكاره الهرطوقية، فلم يفلح. وأمر بنفي القديسين مكاريوس المصري (الكبير) ومكاريوس الاسكندري، إلي جزيرة فيلة (في أسوان) وكانت معقلاً للوثنية.

+ وقاما بشفاء إبنة كاهنها، فآمنت الجزيرة كلها بالمسيحية، فلما علم لوسيوس بذلك أعادهما إلي البرية (وادي النطرون).

+ ثم أنفرد الشرير بالسلطة، وقام بنفي (١١) أسقفاً أرثوذكسياً. ومنهم ميلاس الشاب أسقف رينوكولورا (= العريش)، الذي ذهبت إليه قوة عسكرية لنفيه، فتقابلت معه وهو يصلح القناديل، ويُعدّها للإضاءة للخدمة، وسألوه عن الأسقف، فأخذهم معه إلي بيته، وقدّم لهم عشاءً فاخراً، ثم عرّفهم بشخصه. فُدهِشُوا من مروءته وشجاعته، وأخبروه بأنهم لن يُنفذّوا القرار، ولكنه رفض، مفضلاً مقاسمة إخوته الأساقفه الألم، بدلاً من الراحة الزائفة.

+ ومن بين الذين تم القبض عليهم – في دير بوادي النطرون – المؤرخ الأجنبي روفينوس. وتم سجنه ثم نفيه خارج مصر، وكذلك السيدة ميلانية الرومانية، التي جاءت إلي الإسكندرية، ومكثت بها نحو ٦ أشهر، وتم نفيها إلي قيصرية، حيث ذهب معها جمع غفير من الأساقفة والقسوس والرهبان، كما كانت تقبل كل المصريين المنفيين، ويقيمون علي نفقتها هناك.

+ وكان راهب يُدعي «موسي» مقيماً علي حدود مصر وفلسطين، وكان ذا جلال وأحترام لدي كل قبائل البدو لتقواه، وكانت تلك القبائل تحت إمرة ملكة تسمي «ماڤيا». وكانت تعتدي علي بلاد المشرق (الشام).

+ وقد أشترطت في صلحها مع ڤالنس إيفاد الراهب موسي ليكون أسقفاً للبدو، رغم أنها لم تكن مسيحية بعد، ولما ذهب الراهب موسي للأسكندرية لرسامته، لم يقبل أن يرسمه لوسيوس، ، فاضطر الشرير أن يأتي له بأسقف من المنفيين ليضع يده عليه، وأنتشرت المسيحية علي يد موسي في مناطق البدو بالبحر الأحمر والسودان، ولما تولي الأمبراطور چستنيان صارت كلها مسيحية بايفاد بعثات إليها.

+ ولما رأي البابا بطرس (الثاني) أنشغال ڤالنس بهجمات الأعداء في شمال أوربا رجع إلي مصر، وساعده شعبه بطرد لوسيوس الدخيل، فرفع الشرير أمره للأمبراطور ڤالنس، الذي أنشغل عنه بحروبه، ثم قُتل، فخابت آمال البطريرك البيزنطي الدخيل في الجلوس علي الكرسي المرقسي.

+ ولما تولي الأمبراطور ثيؤدوسيوس أستعان بالبابا المصري بطرس في علاج الإنحطاط الديني الذي وصلت إليه القسطنطنية، فظل يعتني بها منذ عودته من روما إلي الإسكندرية.

+ ومن مشاهير أواخر القرن الرابع الميلادي القديس **غريغوريوس النزينزي** وكان رفيقاً للأمبراطور يوليانوس الكافر، وباسيليوس أسقف قيصرية في مدرسة بأثينا. وفي سنة ٣٧٩ م قدم إليه مسيحيو القسطنطنية الأرثوزكس عريضة مُوقّعة من عدد كبير من الأساقفة ومُصدّق عليها من بابا الإسكندرية بأن يجئ إلي العاصمة البيزنطية، ويعمل علي أنقاذها من الشيع الهرطوقية الستة الموجودة بها.فذهب إليها وعمل بنشاط وتعب، لنشر الأرثوذكسية.

+ وفي سنه٣٨٠ أنتقل البابا بطرس الإسكندري إلي السماء، وفي عام٣٨١ تم عقد مجمع القسطنطنية، للبحث عن الطرق المؤدية لسلام الكنيسة.

+ وقد جلس علي الكرسي البطريركي الأسكندري بعد بطرس أخوه (تيموثاوس) الملقب (بالفقير)، لأنه وزع كل ما يملكه من أموال. وكتب سير كثير من القديسين.

+ وقد كتب للأساقفة والكهنة تعليمات كثيرة، منها **رفض زواج رجل بأخت**

إمرأته المتوفاة، وأنه لا يجوز الصلاة علي المنتحر وهو مختل العقل، وأنه يجوز مناولة الذين يفطرون سهواً، لأن الشيطان كثيراً ما يتخذ مثل هذه الطرق لمنع البعض من التناول من السر الأقدس، فإذا تم حرمهم منه لهذا السبب، يكون الخادم كمن ساعد علي ضلاله.

+ + +

الفصل الثامن عشر

سقوط هيكل سيرابيس

٣٨٥م(١٠١ش)

+ بعدما تنيّح البابا تيموثاوس أُختير البابا ثاوفيلس خلفاً له. وكان سكرتيراً للبابا أثناسيوس الرسولي. وروي المؤرخ الأسقف يوحنا النقيوسي أن ثاوفيلس وأخته كانا يتيمين، من والدين مسيحيين من ممفيس (البدرشيين بالجيزة) وقد تنيَّحا، فتولي البابا أثناسيوس رعاية الطفل وأودع أخته ديراً إلي أن كبرت وتزوجت برجل من المحلة (الكبري) وولدت له إبنا هو المدعو كيرلس، والذي صار بطريركاً بعد خاله ثاوفيلس.

+ وأما ثاوفيلس (Theophilus = محب الله) فتقدم في العلم الروحي، ثم صار شماساً ثم كاهناً، ثم بطريركاً للكرازة المرقسية.

+ وقد قام باستئصال عبادة الأصنام من جميع المدن المصرية. وقام بهدم هيكل سيرابيس بالإسكندرية، وتم تحطيم كل تماثيله، ومساواة مبانيه بالأرض، وصار فيما بعد مقراً للبطريركية بالإسكندرية.

+ + +

الفصل التاسع عشر

الإخوة الطوال القامة

(٣٩٥م=١١١ش)

+ في عام ٣٩٤م مضي البابا ثاوفيلس إلي القسطنطنية لحضور مجمع محلي. وشارك في تدشين كنيسة بإسم الرسولين بطرس وبولس، في غابة قرب خلقيدونية (في الجانب الآخر المواجه للعاصمة في الشرق).

+ وفي نفس الوقت ترك القديس أرسانيوس تعليم أبنيّ الأمبرطور ثيؤدوسيوس (الكبير) وهرب سراً إلي مصر، حيث صار راهباً.

+ وفي سنة ٣٩٥م مات الأمبراطور ثيؤدوسيوس، فاقتَّسم إبناه الأمبراطورية، فاختص«أركاديوس» بالشرق، «وهونوريوس» بالغرب.

+ وفي عام ٣٩٨م ذهب ثاوفيلس للقسطنطنية - مرة ثانية - ليرسم البطريرك **يوحنا كريسَوستم** (ذهبي الفم = Chrisostom) بطريركاً للعاصمة.

+ وكان البابا ثاوفيلس علي وفاق تام مع الرهبان، خصوصاً بوادي النطرون لقربهم من الإسكندرية، وقد ساعدوه في هدم هياكل وثنية كثيرة.

+ وقد تميزّ بميله الشديد إلي تشييد الكنائس الفاخرة وزخرفتها من الأموال والعطايا التي يهبها المؤمنون. وذات مرة تبرعت سيدة غنية بألف قطعة من الذهب لشراء ملابس للنساء الفقيرات، وكان المدعو إيسوذورس هو أمين الصندوق، وطلبت منه أن يظل هذا الأمر سراً، ولكن بعض النمامين أخبروا البابا به فوبخه، فدافع عن نفسه قائلاً: «بصراحة"إنه خير أن يُصرف المال في شفاء المرضي وكِساء الأجساد العارية، التي تُعتبر

هيكلاً لله، بدلاً من بناء جُدران لا تدعو الضرورة الشديدة إليها» (وهو درس من الأمس إلي أهل هذا الزمان) ٠

+ وقد انحاز البابا ثاوفليس إلي الرهبان الذين رفضوا تعاليم أوريجانوس السليمة(في نظر الكاتبة)، وفي رسالة فصح عام ٤٠١م كتب ضد العلاَّمة أوريجانوس. وذكر أخطاءً وهفوات لم تُعَرف عن هذا الرجل العظيم. ثم حكم بأنه مُتبدِع.

+ وقام البابا علي رأس حملة، لتأديب الذين مالوا لآراء أوريجانوس، وقام بحرمهم. فمضوا إلي فلسطين، وكان عددهم خمسين، فمضوا ورفعوا دعواهم للبطريرك يوحنا ذهبي الفم بالقسطنطنية (٤٠١م). فرثا لحالهم وتوجع لمصابهم، فطلبوا منه أن يسترَّضِي البابا ثاوفيلس ليرجعهم إلي وطنهم، لأنهم لم يرتكبوا ذنباً ضده، ولم يضلُّوا طريق الرب، وإن لم يفعل سيلجأون إلي الأمبراطور البيزنطي للشكوي.

+ فوعدهم بالأتصال بالبابا ثاوفيلس. فأرسل له البابا الإسكندري توبيخاً، كما فعل مع أساقفة فلسطين. وفوق ذلك أتهمهم بأنهم سحرة، فكان أهل القسطنطنية يهزءون بهم ـ علي قارعة الطريق ـ لهذا السبب٠

+ أما الأربعة أخوة الطوال – وباقي المرافقين – فقد نظروا إلي هذه التُهمة بحزن٠ وأعدوا تُهمة قانونية ضد بطريركهم ورفعوها للقديس ذهبي الفم٠ فأعاد الكتابة لثاوفيلس، فأرسل له رسالة مملوءة من كلمات الغضب.

+ فأخذ ذهبي الفم يسعي لإقناع الإخوة الطويلي القامة لحل المشكلة بالحُسني، وإبطال رفع الدعاوي التي تُوّلد الحقد والغضب، ولكنهم شكوا أمرهم للأمبراطورة إفدوكسيا (Eudoxia)٠

+ ونظراً لأنها كانت ذات تأثير علي زوجها الأمبراطور أركاديوس، فقد أرسل

في أستدعاء البابا المصري. فأرسل قداسته خمسة رهبان بدلاً منه. وتمت المحاكمة غيابياً، وتم فحص الشكاوي الموجهة نحو رهبان وادي النطرون، فاتضح عدم صحتها. فتم حبس الرهبان الموفدين من البابا!!

+ وكان ثاوفيلس قد بعث برسالة إلي إبيفانيوس أسقف سلاميس (بقبرص) يرجوه الذهاب للقسطنطنية لعرض قرار المجمع المحلي - الخاص بحرم أوريجانوس والحكم عليه كهرطوقي - علي ذهبي الفم ليوافق عليه، ولكنه رد عليه بحكمة بأن هذه المسألة تحتاج لمجمع عام للحُكم فيها.

+ وفي سنه ٤٠٣م سافر ثاوفيلس إلي القسطنطنية. وآشاع قبل سفره أنه ذاهب ليخلع يوحنا بطريركها بسبب ماعمله ضده. فسافر في أُبهة الملوك مع أساقفة من مصر والحبشة والكهنة، ولكن كهنة العاصمة لم يخرجوا لأستقباله في الميناء، فلم يرغب الإقامة في القسطنطنية بل قصد الميناء المقابل – خلقيدونيا – حيث أستقبله أسقفها المصري الجنس سيرنيوس - بإكرام.

+ ثم طلب البابا ثاوفليس ذهبي الفم للمثول أمامه ليدافع عن نفسه ضد تُهمتّي:

١) الأساءة إلي الأمبراطورة لأنه وصفها بأنها «إيزابل» (إمرأة الملك الأسرائيلي آخاب الشريران).

٢) تحريض الآخرين (الرهبان المصريين) علي عصيان رؤسائهم الروحيين.

+ وأرسلت الملكة خطاباً بضرورة الحكم علي ذهبي الفم بسرعة، بزعم أنه شتمها.

+ فصدر الحكم بخلع ذهبي الفم، وأمر الأمبراطور بنفيه خارج القسطنطنية (وهو حكم غير سليم).

+ ولما حدثت زلزلة قامت الأمبراطورة مذعورة. وطلبت من زوجها سرعة إرجاع ذهبي الفم. ولما عرف ثاوفيلس ذلك وخاف من ثورة شعب العاصمة البيزنطية أسرع بالرحيل. وأنعقد في الحال مجمع من نحو (٦٠) أسقفاً وألغي قرارات المجمع السابق، وأقر أن ذهبي الفم لا يزال بطريركاً للقسطنطنية.

+ وظل البابا ثاوفيلس يسعي لطرد القديس ذهبي الفم من كرسيه. فأرسل وفداً من الكهنة، استطاع استصدار قرار من الامبراطور والامبراطورة بنفي القديس ذهبي الفم، في يونيو سنة ٤٠٤م. وظل في منفاه يعاني الآلام ظلماً، إلي أن استراح في الرب، في خريف سنة ٤٠٧م، صلاته تكون معنا، أمين.

✠ ✠ ✠

الفصل العشرون

سينسيوس القوريني (الليبي)

ولد سنة ٣٦٥م(١)

+ وُلِد في قيرين (Cyrene) من عائلة يونانية. وكانت له أملاك واسعة في منطقة بنتابوليس (ليبيا الشرقية). وقد أستكمل دراسة الفلسفة في

(١) قدمنا عنه دراسة مطولة في فصل كامل من كتابنا «تاريخ كنيسة الخمس المدن الغربية» نرجو الرجوع اليها للفائدة العامة.

مدرسة الإسكندرية الوثنية، وكانت أستاذته الجميلة المصرية هيباشيا (Hypatia)، التي صار مخلصاً لها ومعجباً بخصالها حتي بعد إيمانه بالمسيح، ثم أستكمل دراستة في أثينا، ثم عاد لمصر ومنها إلي بنتابوليس.

+ ولما ذهب سينسيوس (Synesius) إلي القسطنطنية، آستطاع أن يُلقي خطاباً شجاعاً أمام الأمبراطور أركاديوس، إنتقده فيه. فلم يتضايق منه الامبراطور، وتقبّل كلامه بروح رياضية.

+ ويصف سينسيوس – في كتاباته – ماجري لمنطقة الخمس المدن من المصائب التي حلت بها وبسكانها من جّراء هجمات البربر. وكتب لأستاذته هيباشيا (أستاذة الفلسفة الافلاطونية الحديثة) بالإسكندرية. ثم جاء لزياتها.

+ وأحب سينسيوس فتاة مصرية ثم تزوجها سنه ٤٠٣ وتحوّل للمسيحية. ثم تمت رسامته مطراناً لبنتابوليس، بيد البابا ثاوفيلس، بناء علي ترشيح الشعب الليبي المسيحي له سنة٤١٠م، وقد عاني من هجمات البربر، ومن الوالي البيرنطي ـ القاسي القلب ـ إندرونيكوس، الذي أضطر إلي حرمه، في مجمع محلي من أساقفه ليبيا برئاسته[١].

✣ ✣ ✣

(١) وقد ذكرنا ما فعله اندونيكوس لشعب مطرانية ليبيا من ظلم شديد. وكيف قاوم نصائح المطران الحكيم (كتابنا عن تاريخ كنيسة بنتابولس).

الفصل الواحد والعشرون

القديس شنودة الأخميمي وغيره

+ وُلِد في قرية قرب أخميم، وكان أبوه مزارعاً وله قطعان من الغنم. وكان في طفولته يذهب مع الرعاة. وكان يصرف وقته في الصلاة، فأرسله أبوه إلي دير كان خاله (بيجول) رئيساً له (فترّهب وهو في سن ٩ سنوات)·

+ ولما صار رئيساً للدير، عمم مباديء العدل، مع الشدة والحزم· وكان يذهب إليه الشعب لحل مشاكلهم. وكشف أماكن وأعمال اللصوص. وكان دائم الإعلان عن خفايا الناس الذين كانوا يأتون إليه[١]، موبخاً لهم علي سوء سلوكهم الخفي عن البشر·

+ ومن تلك الشخصيات القديس «**اسيذيروس**» الناسك، الذي كانت له تعاليماً عظيمة· وقد حمل بشدة علي الأساقفة الذين تكبرُّوا عندما تقلدُّوا المنصب الروحي الرفيع، وأنه لا يستطيع المرء أن يحب اللّه والمال في نفس الوقت، حسب تعاليم المسيح.

+ وقد اعترض علي إنشاء كنائس فخمة وضخمة، وكثيرة الزينة،ومزخرفة الجدران بقوله: «إن ابن الله لا يحل في وسطنا، لأجل فخامة البنيان أو لزخرفة الجدران، بل لأجل نفوس طاهرة، وأرواح منكسرة. وقد جاء ليسكن في قلوبنا... وقد أصبحت الكنائس مُحلاَّة بالنقوش والصور والرخام والمرمر، ولكنها خالية من المواهب الروحية، وعارية من كل نعمة وعطية سماوية» (وهو درس للناس الذين يهتمون بعمارة الكنيسة، وليس بخلاص شعبها).

---

(١) للمزيد من سيرته ومعجزاته وكلماته، راجع كتابنا: «أنبا شنودة رئيس المتوحدين» وهو مخطوط بقلم تليمذه أنبا ويصا (طبع مكتبة مارجرجس بشبرا مصر).

+ وتكلم عن وظيفة الأسقف فقال: «إنها وظيفة عمل وكد، لا راحة واسترخاء، وعناء وكدح لا ترف ورفاهية. كما أنها مرتَّبة دينية تُلقّي علي مُتقلّدها مسئولية عُظمي. وليست وظيفة عالمية يُسأل الموظف عنها» (بل الله هو الذي يُحاسب تلك النفس عن خلاص النفوس أو هلاكها).

* «وهي عبارة عن علاقة أبوية، يرعي فيها الأسقف شعبه، بكل حنان وعطف. وليست سلطة زمنية يستعمل فيها الجبروت والعُنف».

+ وتحدثت الكاتبة عن **يوحنا كاسيان**، الذي زار مصر (٣٠٩ - ٤٠٣م) وسجّل ماشاهده عن الرهبان وأقوالهم في أربعة مجلدات باللاتينية ليهتدي بها الرهبان الغربيون.

+ ومن الذين زاروا مصر أيضاً في ذلك العصر، كاتب أرمني أسمه «موسي» مع بعض رفقائه للدراسة في مدرسة الإسكندرية المسيحية، ونقلوا كتبها إلي اللغة الأرمينية. وقد أفادت أوربا بأسرها[(١)].

✣ ✣ ✣

الفصل الثاني والعشرون
القديس كيرلس الكبير
(٤١٢م=١٢٨ش)

+ بعدما تنيَّح البابا ثاوفيلس خلفه إبن أخته كيرلس علي الكرسي المرقسي وكان لم يزل في سن صغيرة، وقد قضي منها خمس سنوات في وادي النطرون، يتلّقن ماعند الرهبان من علوم ومباديء روحية.

---

(١) لم تُشر الكاتبة إلي كثير من الرحالة الذين زاروا مصر وكتبوا عنها، ومنهم مثلاً بلاديوس وچيروم، ويمكن الرجوع إلي تفاصيل كتاباتهم عن قديسي مصر. في كتابنا المُترجم «**بستان القديسين**» طبع مكتبة المحبة.

+ وقد قاوم بشدة أتباع نوفاتيانوس الهرطوقي، بعدما قويت بدعتهم في مصر، وأصبح لها أسقفاً خاصاً بها، وجرّده البابا كيرلس من أملاكه ومن كل ذخائر كنيسته.

+ وأما علاقته ومعاداته لأستاذة الفلسفة «**هيباشيا**» فقد فصلّها الكاتب الانجليزي تشارلس كنجسلي (Kingsley, Hypatia) .

+ وعندما شرع اليهود في ذبح المسيحيين في الإسكندرية، استدعي البابا كيرلس عدداً ضخماً من الرهبان، ونفي جميع اليهود الساكنين هناك، وعندما أرسل الوالي أورستيس شكواه ضده عن ذلك إلي القسطنطنية، لم يجسُر أحد من رجالها علي التدُّخل في شئون البابا الاسكندري، لأنه كان له مطلق التصرُّف في البلاد المصرية في ذلك الوقت!!

+ وقد ألصق المؤرخ البيزنطي سقراط (Socrates) تهمة قتل هيباشيا علي رهبان كيرلس وقال: «إنها كانت إبنة الفليسوف (الوثني) ثيؤن (Theon) وقد فاقت كثيرين في العلم والآداب والعلوم والفلسفة واشتهرت بها حتي جاء اليها التلاميذ من كل مكان، واشتهرت بذكائها وأخلاقها».

+ ثم يزعم بأنه نظراً لاتصالها بالوالي أورستيس، فقد افتري عليها المسيحيون بأنها دفعته لرفض الصلح مع البابا كيرلس، فاندفعت جماعة منهم. واختطفوها من عربتها وقتلوها وأحرقوها!!

+ وتقول الكاتبة إنه لا يوجد سبب يدعو للظن بأن البابا كيرلس كان يعرف شيئاً عن تلك الحادثة قبل وقوعها، وتشدّد في حكمها بقولها: «ولكن هذا لا يُبّرئه من المسئولية الكبري المُلَقاة علي عاتقه في هذا الأمر». وقد ظل عدة سنين – بعد هذا الحادث – بعيداً عن الشقاق. متُمماً واجباته الدينية المنوط بها، حتي أنه لم يُظهر أدني رد فعل، عندما صدر أمر امبراطوري بعدم تدخل رجال الدين في الموضوعات السياسية، وتحدد عدد القندلفتية

(خدم الكنائس، الذين كانوا كثيري الشقاق والشغب والغضب) وتحسين سلوكهم، وذلك عقب تلك الحوادث المزعجة، في الإسكندرية.

+ وكان البابا كيرلس – في سنواته الأولي – قد رفض تسجيل إسم يوحنا ذهبي الفم في قائمة الشهداء والقديسين، وكتب إلي آتيكوس – أسقف القسطنطنية – يسأله حرمان كريسستوم (ذهبي الفم). وإلا فهو سيحرمه ونفسه من شركة بطريركية الإسكندرية. ولكن القديس اسيذيروس أقنعه بتغيير رأيه وتسجيل اسمه في قائمة الشهداء والقديسين (وهي لوحات من خشب أو عاج، أو من ذهب أو فضة محفور عليها أسماء مشاهير القديسين، ويُذكَرون في القداس الإلهي (= في المجمع).

+ وقد ورد في رسالة عيد الفصح، التي أصدرها البابا كيرلس سنة ٤٢٩م، كلام شديد القسوة ضد المبتدع «**نسطور**» بطريرك القسطنطينة، والتي آخذت آراؤه الهرطوقية في إثارة خواطر العالم المسيحي بدءاً من عاصمته.

● نسطور:

+ كان من أصل جرماني، وترهبن بدير قريب من أنطاكية سوريا.

+ ونظراً لأن الامبراطور ثيؤدوسيوس الثاني قد ملّ كثرة الشقاق الديني، الذي تكرر وقوعه بين رجال الدين في القسطنطنية، فصمم علي عدم ترشيح بطريرك منها، واختار نسطور من خارجها.

+ وكان مثل كثيرين من رهبان عصره غيوراً وجاهلاً. وقد قام باضطهاد أتباع أريوس ثم أتباع نوفتيانوس ثم باقي المذاهب المنحرفة. ثم القيت عليه هو نفسه تُهمة البدعة، في تلك الأيام التي كثرت بها البدع في العاصمة البيزنطية.

+ وزعم أن السيد المسيح لم يكن إلهاً في حد ذاته، بل هو إنسان مملوء بركة ونعمة ـ ومُلَّهَم من الله ـ فلم يرتكب خطيئة ما!!

+ ولما كانت قد جرت العادة بإرسال رسائل الأعياد إلي المصريين بالخارج فقد وصلت رسالة البابا كيرلس عن العيد الي المصريين بالقسطنطنية، وإلي نسطور ذاته، وفيها رد علي آرائه وتفنيدها، فاشتد غيظه منه.

+ وقد كتب نسطور إلي البابا الروماني سلستين (كلستين) يشكوه البابا المصري. فأرسل العاهل الروماني إلي البابا المصري يطلب منه إيضاحاً حول هذا الخلاف اللاهوتي.

+ فأرسل البابا كيرلس (الأول = الكبير) الذي كان عالماً في اللاهوت أكثر من نسطور وسلستين، رداً للبابا الروماني عن أفكار نسطور ورفضه إعطاء العذراء مريم لقب «**والدة الإله**» (Theotokos) وبعد تبادل الرسائل بينهما تم الاتفاق علي حرم نسطور وشجب أفكاره.

+ وكان البادئ بالحرمان هو بابا روما، الذي حكم - في مجمع محلي - بأنه هرطوقي (مُبتدع) وبالمثل فعل البابا المصري، وأرسل أربعة أساقفة من مصر إلي القسطنطنية يحملون خطابات بالأحكام الصادرة ضد نسطور، في مصر وروما. وقد سبقهم الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني بإصدار أمر بعقد مجمع عام (مسكوني) في أفسس (باسيا الصغري)، بناءً علي طلب نسطور نفسه.

+ وأخذ البابا كيرلس معه أكثر من ٥٠ أسقفاً مصرياً وفي مقدمتهم الناسكان القديسان الأنبا شنودة الأخميمي والأنبا بقطر السوهاجي. وأستقبلهم ممنون - أسقف أفسس المصري الجنس - ومعه عدد من الأساقفة، الذين فاقوا أعداد أتباع نسطور.

+ لذلك رفض نسطور الحضور، وعقد مجمعاً حكم فيه علي القديسين كيرلس وممنون بالحرم والعزل من الوظائف الكهنوتية.

+ وبدأت جلسات هذين المجمعين في شهر يونيو سنة ٤٣١م، ومن الذين ساعدوا البابا كيرلس في مجمع أفسس - يوطيخوس رئيس أحد الأديرة بالقسطنطنية، والذي حُكم عليه - بعد عشرين سنة - بالهرطقة.

+ وكذلك وقف إلي جواره الراهب **دلماطيوس**. الذي كان جندياً في الحرس الامبراطوري، ثم عاش زاهداً في صومعته ٤٨ سنة، وكان مشهوراً جداً.

+ ولما تم عزل نسطور (وأختير مكانه مكسيميان) بعد ذلك أُعيد إلي ديره بقرب أنطاكية. ثم طلب يوحنا أسقفها نفيه، فأرسلوه إلي الواحات في مصر (وفي المصادر القبطية في أخميم) ومات هناك نحو عام ٤٥١م.

+ ثم رجع البابا كيرلس إلي وطنه. ولكن هذا الإنشقاق لم ينتهِ عند هذا الحد، بل أشتد الحزب النسطوري، وقوِيَ في الامبراطورية. ولا يزال موجوداً ليومنا هذا، حيث هاجر أتباع نسطور إلي بلاد العجم (إيران = فارس) والعراق (الأشوريون) حيث لا يزالون للآن مُتمسكين برأي نسطور الفاسد.

+ وتقول الكاتبة - بدون دراسة سليمة للأسف - ما يلي: «واشتد الحُنق بكيرلس، ضد نسطور وهرطقته، لدرجة تطرّف فيها هذا - لايجاد بدعة أخري هي قوله: «**إن المسيح طبيعة واحدة**»(١)!!

---

(١) وتقول السيدة بوتشر (في الحاشية) «إن هذا التعليم تُنكره الكنيستان اليونانية والرومانية وتتبرآن منه، ولكن (البابا) كيرلس وخليفته (البابا) ديوسقورس كانا يعتقدان بذلك الاعتقاد(!!) الذي حُوكم لأجله ديوسقورس وحُكم عليه بالحرم»!!

* وتضيف الكاتبة بقولها: «أما هذا الاعتقاد - أو البدعة الجديدة - التي كتب عنها كيرلس - في اجتماعه مع يوحنا اسقف انطاكية قائلاً: «إذا فكرّنا في الطبائع التي تنحصر في الإبن الوحيد - ربنا يسوع المسيح - نجدهما طبيعتين اتحدتا وصارتا واحدة. وحيث أن انفصال الطبيعتين زال بعد الصلب وصارتا طبيعة واحدة، فنحن نعتقد الآن، أن طبيعة الإبن هي واحدة. أي أنه إله متجسّد. أو أن الكلمة صار جسداً» {**وهو في رأينا كلام غير دقيق لاهوتيا كما سيأتي**}.

+ ثم تتطرف بوتشر وتقول: «أما كيرلس (عمود الدين) فمات سنة ٤٤٤م، بعد أن جلس علي الكرسي المرقسي نحو ٣٠ عاماً. وخلفه رئيس شمامسته «ديوسقورس» وهو رجل أكثر ثباتاً، وأوفر مقدرة، وأغزر مادة من كيرلس، ولكن جماعة من الكُتاب أنتقدوا صفاته وآدابه في كثير من كتاباتهم!!، وتتجلَّي لك حقيقتها في الفصل التالي.

✣ ✣ ✣

الفصل الثالث والعشرون

منافسات البابوات (٤٤٤م = ١٦٠ش)

+ لما جلس ديوسقورس علي عرش البطريركية المصرية، كانت العلاقات بين الثلاثة كراسي اللاهوتية(!!) الكُبري. وهي الإسكندرية ورومية والقسطنطنية قد أخذت في الفتور والضعف.

+ فلما تنيّح البابا سلستين – في رومية – خلفه البابا «ليو» (Leo) {= لاون (Leon)} الكبير، فصرف كل همّه، لإعادة الأولوية والاسبقية لكرسيه (علي باقي الكراسي الرسولية) اعتقاداً منه بأنه حق لرومية،ولا يجب أن ينازعها فيه منازع. فتم له الأمر!!

+ وتقرر – في المجمع الثاني العام[١] إعطاء الكرسي الروماني حق السيادة علي باقي الكراسي الأخري (وهو لم توافق عليه الكراسي الرسولية الأخري في حينه). كذلك بطريركية القسطنطنية التي كان قد تقرر لها في هذا المجمع العام (المسكوني) الدرجة الثانية، وكانت أيضاً مركز الامبراطورية (البيزنطية) ولم يهدأ لها بال، لأنها لم تكن قوية – في حد ذاتها – ولذلك كانت تكثر من الشكوي، والتذمر من زميليتيها :المصرية والرومانية !!.

---

(١) وتقصد الكاتبة المجمع المسكوني الثاني، في القسطنطنية سنة ٣٨١م.

+ وأما ضعفها – بالنسبة لغيرها – فهو أن كثيرين من بطاركة القسطنطنية – بما فيهم ذهبي الفم الذائع الصيت – حُكِم عليه بالعزل[1]. ولم يصدر حكم باتحاد رومية والإسكندرية معاً. كما أنه لم يصدر هذا الحكم علي أحد من باباوات الإسكندرية (بضرورة) الاتحاد مع رومية، كما أنه لم يُحكم علي بابا روماني بالهرطقة سوي هونوريوس، الذي حُكم عليه بالهرطقة في المجمع السادس والسابع والثامن!!

+ ولقد سعي بابا رومية جهده – للإتحاد مع بابا الاسكندرية – كما يتضح ذلك (في نظر الكاتبة) من خطاب آرسله ليو (لاون) Leon إلي ديوسقورس في شهر يونيو سنة ٤٤٥م، يطلب المؤاخاة، والعمل علي التدّخل في أهم الأمور سوياً، مادام الإثنان متساويين في الرُتبة والدرجة، إلا أن بابا الاسكندرية رفض هذا الطلب، مُخّطِئاً ومُسّفِهاً للإقتراح!!

+ أما وقد عرفنا مركز البابوات الثلاثة تجاه بعضهم ومناقسة كل واحد لنده، فعلينا ان نعرف مركز ديوسقورس بابا الاسكندرية فنقول إنه قد اتُهم باتهامات كثيرة مثل تلك التي لوثوا بها غيره من الأحبار (الأبرار) السابقين، مثل الاتهامات التي وصُم بها البابا أثناسيوس، ولكنها كانت لا أساس لها من الصحة.

+ فضلاً علي أن ديوسقورس لم يسمح له الزمان بدحض هذه التُهم، كما دحضّها زملاؤه (البطاركة) السابقون، ليس لأنه لم يكن قادراً علي نقضها – مثل أثناسيوس – بل لأنه رأي آن هذه الغمزات لا تستحق الإلتفات، لأنها محض كذبٍ وافتراءات.

+ وقد وصف أحد المؤرخين هذا البابا العظيم بأنه «عنيف شديد وطماّ ع

---

(١) كان حكماً خاطئاً، وصدر بدوافع غير سليمة، كما سبق ذكره.

خاطف، وكثير الاعتداد بآرائه والتمسُّك بأفكاره...»· **هذا الوصف تناقله الكُتّاب الغربيون وبنوا عليه قصور الأوهام والمزاعم، مع أنه لم يُقِم أحد دليلاً علي صحته· ولم يستطع كاتب إثبات طمعه وفساد آدابه·**

+ وصحيح أن ديوسقورس كان قوي التمسُّك بآرائه وعنيداً، ولكن هذا العناد، لم يكن سوي تمسكاً بوطنه وبعقائده الدينية وأفكاره اللاهوتية (الأرثوذكسية)·

+ أما الذين رموا هذا البطريرك بسوء السُمعة، فقد بنوا زعمهم علي أمر لم يتأكدوا من حقيقته، وهو أنه كان متزوجاً سراً، وقد أخفاه ليرتّقي للمنصب البابوي!!

+ إلا أن يوحنا النقيوسي وجماعة المؤرخين المصريين كتبوا عنه كتابة ملؤها الاحترام والتكريم[1]، وأن رجلاً يُدعي «تاودورس» (Theodorus) قد أتهمه ديوسقورس بالإنحياز لأفكار نسطور، شهد عن صحة إيمان ديوسقورس·

+ وأما ليو بطريرك رومية، وفلافيان بطريرك القسطنطنية، فقد نسَبا إلي ديوسقورس العناد والمقاومة، وقد أغاظاه عندما تدّخل في أمر يوطيخوس (أوطاخي) كما سيجيء[2].

---

(١) راجع كتابنا «عصر المجامع»، وكتابنا عن «البابا ديوسقورس» وكتابنا «الخريدة النفيسة في تاريخ الكنيسة»، وكتابنا «موجز تاريخ المسيحية، لنفي تلك المزاعم التي نشرها أعداؤه·

(٢) وتقول السيدة بوتشر. «**إن الذي يتحري الصدق، يري أن هذا الخصام لم يكن منشأه حب الدين، والإصرار علي العقائد والتعاليم الصحيحة، بل نتج عن حب الرئاسة والميل إلي العظمة والتحكم...» ·**

+ **أما يوطيخوس**: فـهـو أرخن (وفي مصادر أخري رئيس دير) في القسطنطنية، وكان أشد الناس مقاومة لبدعة نسطور، وقد أتُهم بالهرطقة سنة ٤٤٨م، والذي أتهم أوطاخي بالبدعة هو شخص يُدعي «يوسيبوس».

+ وعندما اجتمع مجمع محلي في القسطنطنية، طالب يوسيبوس، بحضور أوطاخي أمام المجمع، فلم يحضر، وأستمر الاساقفة في مناقشة موضوع الطبيعة الواحدة والطبيعتين وأنتهوا إلي قرار بأن:

* «المسيح إله تام وإنسان تام، متحد مع الآب في اللاهوت، ومع مريم العذراء في الناسوت. وأن هاتين الطبيعتين (اللاهوتية والناسوتية) اتحدتا – بعد التجسد – في شخص واحد هو المسيح».

+ ولم يعارض هذا القرار سوي باسيلي أسقف سلوشيا (سلوقيا) الذي قال «إنني أعبد المسيح ذا الطبيعتين حتي بعد التجسد».

+ ولما انعقد المجمع مرة أخري – بعد ثلاثة أيام – أرسلوا في طلب أوطاخي، فقيل لهم إنه قرر عدم الخروج من الدير باقي أيام حياته، كما أنه لم يُرد أن يواجه يوسيبوس باعتباره عدواً له، في نظره.

+ وأرسل إقراراً بأنه يؤمن أن المسيح انسان تام، ولكنه ليس ذا لحم ودم مثل البشر، وليس هو طبيعتين بعد اتحاد اللاهوت بالناسوت.

+ ثم أتوا به للمجمع بالقوة، فأعاد علي مسامع أعضائه اعترافه السابق، وأنه يعتقد اعتقاد البطريركيين (المصريين) أثناسيوس وكيرلس[1].وأنه

(١) أن المجمع اعتبر كلام البابا أثناسيوس – الذي تمسك به البابا كيرلس وأوطاخي بعده – مزوراً وملُفقاً، ولذلك رفضه، مع أن الأخيرين اعتبراه صحيحاً (**هامش أصلي**) .

يؤمن – مثلهما – بأن المسيح طبيعتين قبل التأنس، اتحدتا بعد ذلك وصارتا إلهاً وأنساناً كاملاً!!

+ فلم يقبل المجمع القسطنطيني (المحلي) رأي أوطاخي وحكم عليه بالحرم لابتداعه في قوله: «إن للمسيح طبيعة واحدة بعد التجسد».

+ فاستأنف أوطاخي هذا الحكم لدي بطريركي رومية والإسكندرية، وقبل أن يجيب العاهل الروماني علي رسالة أوطاخي، وصله إعلان من الامبراطور ثيودوسيوس الثاني – لعقد مجمع في أفسس – بناء علي طلب ديوسقورس. وأخبره أيضاً أنه عهد برئاسة المجمع للبطريرك الاسكندري.

+ **فلما سمع بطريرك رومية بهذا الخبر، اشتدت نار الغيرة والغيظ في قلبه**، وكشّر عن ناب العداء والخصام نحو ديوسقورس وأوطاخي، ولم يحضر بنفسه إلي أفسس – بل أرسل رسالة – إلي فلافيان (بطريرك القسطنطنية) مع نوابه، يشرح فيها رأيه في تلك المشكلة اللاهوتية.

+ ولم يكتَفِ ليو (لاون) بذلك بل أتهم هذا المجمع (المسكوني الثالث) بصفتّي الاختلاس والتدليس!!

+ وقد تم العثور علي مخطوط قبطي قديم في الفاتيكان (وهو مقر باباوات روما) يسجل رحلة ديوسقورس لأفسس، ويؤخذ منه أن كاتبه قد تلقّى المعلومات التي فيه من فم ديوسقورس نفسه، عندما كان في منفاه، وشرح كيف سافر معه في مركب القديس مكاريوس أسقف ادكو (بالبحيرة) ومعجزاته السابقة واللاحقة.

+ + +

الفصل الرابع والعشرون

مجمع خلقيدونية

(سنة ٤٤٩م[١] = ١٦٥ش)

+ في يوم ٨ أغسطس سنة ٤٤٩م اجتمع مجمع خلقيدونية في كنيسة العذراء بأفسس، في المكان الذي تم حرم نسطور فيه (وهو خطأ من الكاتبة لأن مدينة خلقيدونية غير أفسس).

+ وجلس البابا ديوسقورس بطريرك الإسكندرية في كرسي الرئاسة، وبيده رسالة البابا الروماني (لاون) التي أرسلها إليه، ولكنه اعتذر عن قراءاتها على مسامع أعضاء المجمع، وتذرّع بأسباب انتحلها لهذا الغرض»[٢].

+ وكان الامبراطور ثيؤدوسيوس قد أرسل آرشيمندريت (رئيس دير) سرياني اسمه برسوم، لينوب عن باقي آراخنة الشرق في المجمع. وكان برسوم هذا - كغيره من الرهبان السريان - جاهلاً ومتعصباً ومتصلباً في رأيه ومُتحيِّزاً ويكره يوطيخوس، وينفر منه (وهو رأي خاص للكاتبة).

+ فلما أرسله الامبراطور للمجمع، آخذ معه نحو ألف راهب، وضربوا خيامهم حول الكنيسة (في أفسس) حتى ضايقوا حرس الحكومة ومنعوهم من حفظ السلام، واستتباب الأمن في المجمع!!

---

(١) ملحوظة كل ما كتبته السيدة بوتشر في هذا الفصل هو في الواقع - **يتعلق بمجمع أفسس الثاني. وليس بمجمع خلقيدونية** (٤٥١م).

(٢) وقد أخطأت الكاتبة أيضاً في هذا الأمر، لأن هذه الرسالة أرسلت من قِبَل لاون إلى مجمع أفسس الثاني. ولم يمنع البابا ديوسقورس من قراءتها، كما زعمت السيدة بوتشر، وكما توضحه محاضر المجمع المذكور، السليمة والموجودة في مصادر غريبة أيضاً.

+ فلما أفتتح المجلس جلساته، جاهر يوسيبوس برغبته في الحكم علي أوطاخي بحرّمه، لعداوته له. وعندما قرأ كاتب الجلسة قرارات مجمع القسطنطنية المحلي (٤٤٩م) الذي سبق الحكم فيه علي أوطاخي، وظل الأعضاء ساكنين يصغون، إلي أن وصل القاريء إلي التعديل الذي أدخله باسيلي أسقف سلوشيا (سلوقيا) علي إقرار فلافيان بطريرك القسطنطنية، فيما يختص بالطبيعتين والمشيئتين وهي قوله: «إنني أعبد المسيح ذا الطبيعتين، حتي بعد التجسد» حتي هاج الأعضاء.

+ وقام أسقف أورشليم وطلب من باسيلي أن ينكر اعترافه هذا، أو يحذف منه الكلمات التي أوجبت هذا السخط.

+ ولما هدأ الهياج سأل ديوسقورس المجمع عما إذا كان يحكم علي أوطاخي. أو يبرئه، **فأجاب الأعضاء بالتتابع ببراءته**، وإعادته إلي وظيفته، كما كان (رئيس دير).

+ **وقد يعسر علي العقل تصديق القول بأن الأساقفة برأوا أوطاخي ضد ذمتهم.** أما الهياج الذي حدث ضد فلافيان، فكل واحد يعلم أن ديوسقورس هو الذي أحدثه، **وأن اللوم فيه واقع عليه** (ولكن ما ذكرته الكاتبة يكذب هذا الإدعاء، في نصفه الثاني).

+ ولو أقتصر الأمر علي ما ذُكر لغابت هرطقة أوطاخي، ولما تجدّد ذكر ما حدث في مصر، فيما بعد!! وكان هذا الانتصار الذي أحرزه ديوسقورس في المجمع (= أفسس الثاني) قد جعله يعمل علي إذلال بطريرك القسطنطنية خصمه، فذكر عبارة، ليست ضد يوسيبوس فقط، بل ضد فلافيان نفسه، مما أوقع المجمع كله في خوف واضطراب!!

* فقام النائب عن بطريرك روما، وأبدي معارضة لرأي ديوسقورس. أما فلافيان فقال بعدم أعتباره لسلطة المجلس، وأعلن إنسحابه منه، ولكن لم

يسمع أحد باعتراض نائب روما، أو بانسحاب بطريرك القسطنطنية بسبب الضوضاء.

+ وتفصيل هذه الجلبة أن كثيرين من الأساقفة رموا أنفسهم تحت قدّمي ديوسقورس، وطلبوا منه الرأفة والتساهل قائلين: «إذا كان فلافيان يستحق اللوم والتعنيف، فيجب عليك أن توبخه، ولكننا نتوسل إليك أن لا تحكم علي بطريرك بالحرمان، لأجل قس بسيط».

+ حينئذٍ نهض ديوسقورس – كخروج أسد من عرينه – وصعد علي درجات عرش رئاسة المجمع، وشخص في الحاضرين فساد السكوت. فقال مخاطباً الأعضاء: «إن الذي يتوّقف منكم عن التوقيع علي الحكم علي فلافيان، سيكون له معي شأن آخر، لأنني لازلت أنادي بحرم فلافيان وشجبه، حتي لو قُطِع لساني. أما إذا أردتم الثورة، فليس في إمكانكم وليس في روسائكم إمكانه».

+ وبينما كان ديوسقورس يتكلم بهذا، سمع رهبان برسوم ضجة في داخل المجمع. فاندفعوا إلي المجمع، مع جنود وأشرار، وظلوا يصيحون، ثم بدأوا يضربون الاعضاء باللكمات. مما لطخ **مجمع أفسس الثاني**[(١)] بنقطة سوداء!!

+ ولم يكتفوا بهذا كله، بل تعدُّوا علي فلافيان، وأوسعوه ضرباً، وداسوه تحت أقدامهم، وكان برسوم يشجعهم، ويحرضهم علي قتله بالسكاكين والحراب.

+ فخاف الأساقفة علي حياتهم، وأستجابوا لكل طلب سألوهم إياه، حتي أنهم وقعُّوا علي ورقة بيضاء، كُتب عليها – بعد ذلك – الحرمان ضد فلافيان (وهو ما دحضه ديوسقورس في مجمع خلقيدونية).

(١) هنا تشير الكاتبة – لأول مرة – أنه كان مجمع أفسس الثاني، وليس مجمع خلقيدونية، كما ذكرته من قبل، مما يؤكد عدم دقة كلامها وعدم صحة مصادرها عن هذا المجمع.

+ أما نائب بطريرك روما فقد أسرع بالهرب . وقد آثرت الضربات واللكمات في فلافيان، فمات علي أثرها!!

+ وعلي ذلك عاد ديوسقورس يحف به النصر والفخر، مما آغاظ ليو (Leon) خصوصاً وأن بطريرك الإسكندرية هذا كانت له سلطة في الشرق تعلو علي سلطة الملوك والحُكام، **بينما كان بابا رومه يحاول جهده ليحط من قوة خصمه وتخفيض شأنه.** فلم يدع وسيلة لمقاومة بابا الإسكندرية إلا واستخدمها.

+ حتي أنه كتب للامبراطور ثيؤدوسيوس يقول: «إن الدين المسيحي سوف يتلاشي من الوجود ما لم يتم إلغاء حُكم **مجمع خلقيدونية** (والأصح حكم مجمع أفسس الثاني).

+ كما أرسل رسالة أخري إلي بولكريا شقيقة الإمبراطور، التي كانت ساخطة علي حرمان فلافيان، سخطاً يدل علي رقة إحساسها وجميل عواطفها!! (وهي في الواقع لا تستحق هذا الثناء من الكاتبة، كما سنري فيما بعد).

+ وكتب ليو إلي فلافيان - الذي كان قد انتقل من أرض الشقاء إلي دار النعيم والبقاء!! وفي رسالته تحريض لكنيسة القسطنطنية لنبذ قرارات المجمع والإزدراء بها.

+ ولما لم تُفدّه هذه الحيل رمي نفسه بين يديَّ ڤالنتيان امبراطور رومية، ورجاه آن يطلب من زميله الإمبراطور ثيؤدوسيوس المساعدة في عقد مجمع جديد في رومية، لمناقشة مسألة فلافيان.

+ وأما ثيؤدوسيوس فقد كتب له بأنه يُعتبر مجمع خلقيدونية (والأصح مجمع أفسس الثاني) مجمعاً قانونياً صحيحاً، وأن الحكم الذي صدر علي فلافيان كان في محله، فلا يقبل نقضاً ولا تحويلاً (تغييراً). وكان تاريخ

هذه الخطابات أول سنة ٤٥٠م، وفي شهر يوليو مات الامبراطور ثيؤدوسيوس.

+ ولما رأي ديوسقورس أن ليو (لاون) تمادي في عدوانه وأفرط في المعاكسة شرع في حرمه وتجريده من وظيفته (كبطريرك لرومية)، ولأنه سعي إلي إبطال قرارات مجمع نظامي شرعي.

+ وقد أختلف المؤرخون عما إذا كان ديوسقورس قد حرمه قبل موت ثيؤدوسيوس أو بعده، فالذين قالوا إن ديوسقورس ناصب ليو العداء قبل موت الامبراطور، بنوا رأيهم علي أن الامبراطور ثيؤدوسيوس كان ميالاً لتشجيع ديوسقورس، والأخذ بيده، لأنه من رعاياه المخلصين له، كما أنه كان يسعي لخفض شأن بابا رومية، لأنه لم يستجب لطلبه عندما دعاه لحضور مجمع خلقيدونية (أفسس الثاني).

* أما الذين زعموا أن ديوسقورس قد حرم العاهل الروماني، بعد وفاة ثيؤدوسيوس فاستندوا علي أن الحرم تم حيث تشكل مجمع (محلي) في نيقية سنة ٤٥١م[١]، حيث وقعّ عشرة أساقفة علي الحكم الذي صدر ضد البطريرك الروماني!! مما دفع بعض الكُتّاب إلي الظن أن هذا الحُكم قد صدر في مصر وليس في نيقية، لأن أكثر الموقعين عليه من المصريين.

+ وبعد موت الإمبراطور ثيؤدوسيوس تزوّجت أخته بولكاريا (الراهبة السابقة) من أحد النُبلاء الأشراف (قائد حربي) يُسمي مركيانوس ليساعدها في تدبير مهام الامبراطورية (البيزنطية الشرقية).

+ وكانت هذه الامبراطورة ميالة لمباديء فلافيان، ولكن الأحوال السياسية قد

---

(١) لم يرد ذكر له في مصادر مصرية، والمذكور فعلاً هو أنه قد اجتمع في هذا التاريخ مجمع بخلقيدونية بأمر الامبراطور مركيان.

تجلّت - أمام عينيها - وكانت مخفية عن أخيها الراحل. فقد رأت مدي الحد الذي وصل اليه بابا الإسكندرية (ديوسقورس) من القوة واتساع سلطته، إلي الدرجة التي قد تضرّ بدولتها، ضرراً لا يجب السكوت عليه، إذ لا يُستبعد أن تضيع مصر من يدها، وهي أخصب أراضي سلطنتها، وأوفرها ثروة وأعظمها غنيً وأكثرها رضوخاً (للحكم البيزنطي).

+ لذلك سلكت **بولكريا** (بولخيريا = بولشيريا) مع زوجها (مرقيان) مسلك **دهاة السياسة**، فلم تسمح لإمبراطور روما بالتدخّل في أمور بطاركتها ومجامعها.

+ كما أنها اتخذت من مسألة الاختلافات المذهبية والانشقاقات الكنسية سيفاً حاداً تحارب به خصومها. ورأت بدهائها، أن أقوي سلاح يُقطِّع أوصال ديوسقورس، ويهدم أركان سلطانه هو أتهامه بالهرطقة.

+ وكان لديوسقورس - في ذلك الحين - سفير مفوّض، ينوب عنه أمام حكومة القسطنطنية، ثم صار بطريركاً لها بواسطة ديوسقورس. فأوّل عمل شرعت فيه الامبراطورة وزوجها هو إجبار سفير ديوسقورس (بطريرك القسطنطنية) علي حرم أوطاخي ونسطور، في مجمع رسمي (خلقيدونية سنة ٤٥١م) والمصادقة علي أفكار العاهل الروماني ليو (لاون).

+ وكتب مرقيان إلي ليو بأنه مستعد أن يجمع له مجمعاً تحت رئاسته، إذا أحب الانتقال من مكانه إليه (في الشرق) وأنه إذا رآي أن في السفر مشقّة له، فإنه يرأس المجمع بنفسه وينوب عنه.

+ وكتب مرقيان إلي ليو بأنه مستعد أن يجمع له مجمعاً تحت رئاسته، إذا أحب الانتقال من مكانه إليه (في الشرق) وإذا رأي أن في السفر مشقّه له، فإنه يرأس المجمع بنفسه وينوب عنه.

+ فردّ مرقيانوس بخطاب مؤرخ في أبريل سنة ٤٥١م بأنه لا حاجة لهذا المجمع، لتخطئه اعتقاد أوطاخي أو تفنيد آراء ديوسقورس وأحكامه (في مجمع أفسس الثاني)، وأنه إذا انعقد مجمع، فليكن أول موضوع تتم المناقشة فيه هو الأوجّه التي يجب الصفح بها عن أولئك الأساقفة، الذين اتبعوٌا رأي ديوسقورس، وساروا في طريقه في المجمع الأخير.

+ ولم يرق لمرقيانوس تشكيل المجمع واجتماعه في روما حسب فكر ليو، بل أمر بعقده في نيقية. فساء ذلك ليو، ولم يذعن للحضور هذه المرة أيضاً، وأرسل نواباً عنه، وأدعيً – فيما بعد – أنهم رأسوا الجلسات باسمه!!

+ والحقيقة إن مرقيانوس اختار ١٩ عضواً من أشراف المملكة وكبار موظفيها، ليترأسوا المجمع بدلاً منه. أما نواب روما فقد أكتفوا بالجلوس علي منصات علي من التي جلس عليها الأساقفة.

+ ولم يجتمع المجمع في نيقية، بل إن الاكثر من ٥٠٠ أسقف، الذين وفدوا اليها، صدر لهم الأمر بالرحيل إلي «**خلقيدونية**» حيث تم عقد المجمع بها سنة ٤٥١م.

+ وكان أول اقتراح قدمه مندوبو بابا روما هو ضرورة انسحاب ديوسقورس من الاجتماع. فسأل رئيس المجمع (من مندوبي الامبراطور مرقيان) عن الأسباب التي تدعو المجمع إلي إخراج هذا البطريرك من قاعته؟!!

+ فكان اعتراض هؤلاء المندوبين أن ديوسقورس شكّل مجمعاً، دون أن يستأذن الكرسي الرسولي (بابا رومة). وهي دعوي لم يبّق لهؤلاء

الباباوات غيرها من أشكال الرئاسة والخيلاء، ولو أنها صارت في يدهم إسماً لا فعلاً.

+ فلم يوافق مندبو الحكومة علي هذا الاقتراح السقيم، وقرر المجمع بقاء ديوسقورس ضمن أعضائه، ولكن ليس علي كرسي الرئاسة. كما كان الحال (للمصريين) في المجامع السابقة، لأنها صارت بيد رجال الامبراطور البيزنطي (مركيان).

+ والذي فتح باب هذا الاقتراح السابق. هو يوسيبوس. عدو أوطاخي. فرّد عليه البابا ديوسقورس – رداً غاية الرصانة والتعقُّل – قائلاً: «إنه لم يكن هناك حاجة لاستئذان {الكرسي الرسولي} في عقد المجامع، مادام قد صدر أمر الامبراطور (البيزنطي) يقضي بتشكيلها».

+ ثم طلب قراءة القرارات، التي أقرّها المجمع الأخير (أفسس الثاني).

+ وقبل أن يقرأ القاريء قرارات المجمع السابق، دخل تاودروس (Theodorus) الانطاكي، فأحدث دخوله ضجيجاً. كما حدث في أفسس، وقام الحزبان ضد بعضهما، يرمي كلٍ منهما خصمه بأقبح المطاعن. حتي كادت صالة الاجتماع تصير مجالاً للعراك، لولا أن مندوبي الامبراطور استعملوا سلطتهم ونفوذهم في إعادة النظام والهدوء للجلسة.

+ ووقف واحد منهم وقال: «لا يجدر بالأساقفة وكبار رجال الدين أن يأتوا بمثل هذه التصرّفات المشينة، من صياح وصراخ وسب وضرب، ويجب أن تكونوا قدوة للشعب، وأن يستخدم الدليل. بدلاً من الهُراء، وأن تستمعوا إلي ما يُتلي عليكم».

+ فقرأ الكاتب قرارات المجمع السابق. وكان أعضاء الفريقين يقاطعونه بضجيج الاستحسان أو الاستهجان. إلا البابا ديوسقورس فإنه سار

سير الحكيم العاقل، ولم تبدُ منه أية إشارة تدل علي التهوُّر. بل كان يقدّم البرهان القاطع، ويتكلم بمنتهي الفصاحة والحكمة، ويذكر ما يعتقد به في مسألة الطبيعتين والمشيئتين، بلا خوف من أحد.

+ ومما قاله ديوسقورس، في هذا المجمع (الخلقيدوني): «إن الأسباب التي تم علي أساسها الحُكم علي (البطريرك) فلافيان واضحة وصريحة، وهي أنه كان يعتقد بوجود طبيعتين للمسيح بعد التجسُّد».

* ثم أضاف قداسته قائلاً «ولقد عثرت علي شواهد، من أقوال البطاركة: أثناسيوس وغريغوريوس وكيرلس (عمود الدين)[1]، وفيها أنهم **كانوا يعتقدون بعدم وجود طبيعتين للمسيح بعد التجسُّد**، بل أن الكلمة المتجسد (Logos) قد أتخذ طبيعة واحدة فقط».

* ثم أردف قائلاً: «فإذا كان في اعتقادي خطأ، فيكون أصله من خطأ هؤلاء الآباء العظام. الذين أنا أقول بقولهم. ولا أتحوّل عن مبادئهم، وحتي يكون المجمع علي ثقة من كلامي، أُخبِرُه أنني نقلت أقوالهم هذه بالحرف الواحد، واعتنيت كثيراً في ضبطها علي الأصل، والتحقُّق من صحتها».

+ فتذمَّر مندوبو بابا روما من إعطاء ديوسقورس الحرية في التعبير عن آرائه. وقالوا إن (البطريرك) فلافيان لم يُسمح له بمثل هذه الحرية في مجمع أفسس.

+ فأجابهم رئيس المجمع (مندوب الامبراطور) «إن هذا المجمع يبحث عن

(١) يلاحظ أن الحزبين المُتضادين - في هذا المجتمع - اتفقا علي السير علي رأي البابا كيرلس (المصري) لأنه يتفق مع نص العهد الجديد (**هامش اصلي**).

العدل والحق (العقيدة السليمة) في أعماله، لذا فهو يمنح الحرية لعرض الأفكار الصحيحة، لجميع الأعضاء علي السواء».

+ وتخرج الكاتبة عن حيادها فتقول: «وبعد هذا نظر المجمع في الشدة التي استعملها ديوسقورس في مجمع أفسس (الثاني)، والعُنف الذي ظهر في جميع تصرفاته!! فاقترح مفوضو الحكومة عزله – هو وخمسة أساقفة – من وظائفهم، لأنهم رسموا لهم حينئذٍ خطة جديدة غير حميدة!!».

+ ثم قالت «فصادف هذا الاقتراح تصفيق الاستحسان، وتهليل الفرح من الخصوم، **ولكن أغلبية المجمع لم توافق عليه**»!!

+ ثم تقول السيدة بوتشر: «ثم طرح بعضهم آراء ليو، بخصوص الطبيعتين. وطلب غيرهم البحث في الخطاب الثالث، الذي كان قد بعث به البطريرك كيرلس (عمود الدين) إلي نسطور. وكان الوقت قد طال. فرأي مندوبو الحكومة تأجيل المجمع مدة خمسة أيام!!

+ ولكن حزب بطريرك روما أقنع باقي الأعضاء بالاجتماع (سراً) بعد ثلاثة أيام بدلاً من خمسة، **ليستطيعوا تنفيذ أغراضهم، دون تدخل مندوبو الحكومة في أمرهم**.

+ فلما أجتمع المجمع بعد ٣ أيام، لم يحضره ديوسقورس، لأن رجال الامبراطورة (قضاة المجمع) **لم يكونوا هناك. ولم يعترفوا بصحة هذا الاجتماع** (السري).

+ وانتهز خصوم ديوسقورس فرصة غيابه، وغياب هؤلاء المندوبين الساميين،

ووجهوا اليه كل أنواع الاتهامات الشائنة والوصمات المُعيبة، كما فعل أسلافهم مع البابا أثناسيوس (الرسولي) في الأيام السابقة.

+ وأخيراً استقر رأيهم علي عزل ديوسقورس، وأرسلوا له إعلاناً رسمياً بهذا القرار. ثم بعثوا بصورته إلي أعضاء كنيسته، وأساقفته الموجودين معه في خلقيدونية، وإلي مركيانوس وإلي بولكريا، وإلي الامبراطور (الروماني) فالنتيان، وإلي كرسي القسطنطنية وخلقيدونية.

+ وفي ١٧ أكتوبر سنة ٤٥١م اجتمع المجمع بهيئته الرسمية، وكان في بداية أعماله **اعتراض مندوبي الحكومة علي عزل بابا الإسكندرية في غيابهم**، وبدون تصديق الامبراطورة (بولكريا).

+ وتُعلّق الكاتبة فتقول: وكان من ذلك أن الحكم علي ديوسقورس **لم يصادق عليه المجمع (الخلقيدوني) بطريقة قانونية. مع أنه نفذ.. وذكر في أول (بنود) القرارات الصادرة منه**!!

+ أما الخمسة الأساقفة الذين حُكم عليهم معه. فصفح عنهم المجمع، وردهم إلي وظائفهم!!

+ ثم أرسل المجلس واستدعي ١٣ أسقفاً مصرياً، وطلب منهم أن يحرموا أوطاخي، وأن يصادقوا علي آراء ليو (التي تميل للأفكار الأريوسية). وبعد أخذ وردّ ورفض، **قبل هؤلاء الاساقفة حرم أوطاخي**، ولكنهم رفضوا الموافقة علي أفكار ليو، إلا بأذن من بطريركهم ديوسقورس الاسكندري.

+ وأعلنوا أنهم لو وافقوا بدون أذن رئيسهم – أو السير علي غير منهاجه – فإن الأقباط سيمزقون أجسادهم عندما يعودون. فوعدهم رجال الحكومة

بالدفاع عنهم، أو بالتصريح لهم بالاقامة في القسطنطنية حتي تتم رسامة بطريرك جديد لمصر، ولكنهم لم يقبلوا، ولم يُقروا علي صحة آراء العاهل الروماني.

+ وحيث أن باقي قرارات مجمع خلقيدونية لا تُهم الأقباط، فلا حاجة إلي إيرادها هنا، خصوصاً وأنها مشهورة ومنشورة في كل كتاب ديني جدلي.

+ فقط نقول إن نتيجة هذا المجمع، كانت خلع ديوسقورس من كرسيه، كما يُخلع الملوك من عروشهم (بالثورة)، وهذا سببه الحدة والشدة، اللتان أشرنا إليهما سابقاً.

+ ولذلك قبل ديوسقورس هذا الحكم بكل طاعة ورضوخ وعزم علي عدم العودة إلي مصر!! (وهو كلام غير مقبول بالطبع). وقضي باقي أيام حياته في بلدة (جزيرة) جنجرا (Gangra)، وكان قد نُفِي اليها عقب صدور هذا الحُكم (الفاسد) حيث عاش عيشة هادئة ومطمئنة (لأنه كان مظلوماً بالطبع).

+ وأما أقباط مصر، فلم يذعنوا لهذا القرار، الذي صدر ضد بطريركهم ولازالوا إلي يومنا هذا (١٨٩٧م) يرفضون قرارات مجمع خلقيدونية. ويقولون بعدم صحتها. ولذلك فالكنيسة القبطية لا تعتبر المجمع المذكور من المجامع المسكونية الشرعية[١].

+ + +

(١) وكان علي السيدة بوتشر أن تكون مؤرخة مُنصفة وتشهد للحق. بأكثر صراحة وليس تلميحاً. وتنصف البابا ديوسقورس. كما ذكرته من قبل.

الفصل الخامس والعشرون

نتيجة الشقاق بين الكنائس

ومركز الأروام في مصر

(٤٥١م=١٦٧ش)

+ ولما علم المصريون (الأقباط) بما لحق ببطريركهم (القديس ديوسقورس) من حرم وعزل عن كرسيه، غضبوا واتفقوا علي عدم الاعتراف بقرار مجمع خلقيدونية بشأنه. وأعلنوا اعتباره بطريركهم، ولو أنه محروم!!

+ وأكدوا أن إيمانه هو نفس إيمانهم ومعتقدهم (الأرثوذكسي)، مهما خالفه كل أباطرة القسطنطنية وبطاركة روما.

+ وقد أعلنوا أن الحكم ضد بطريركهم ماس بحريتهم الوطنية ومُجحف بحقوقهم السياسية، وأن تعليمه سيظلون متمسكين به.

+ وكان من نتيجة هذا كله اشتداد أسباب الشحناء والبغضْاء، التي نمت وتعاظمت بين الأقباط الوطنيين وبين الروم الْمُقيمين في مصر.

+ وزادت عوامل الجفاء والخصام بينهم. خصوصاً عندما انحاز اليونان (الأروام) إلي الكنيسة الرومانية، مع أنهم كانوا مثل المصريين في العادات والأخلاق.

+ وعندما جاء إلي مصر أربعة من الأساقفة (البيزنطيين) مع مندوب من قبل الامبراطورة (بولكاريا) لانتخاب بطريرك جديد للإسكندرية، غضب الأقباط، لأنهم كانوا لا يزالون يقولون إن ديوسقورس هو بطريركهم، وأنهم لا يقبلون عنه بديلاً، طالما كان علي قيد الحياة (حسب قانون الكنيسة).

+ ولكن قوة الحزب الرومـي في كنيسة الإسكندرية تغلبت علي نخوة المصريين!! وأنتهي الأمر بترشيح رئيس كهنة الإسكندرية، وإسمه بروتوريوس للبطريركية، مع أن ديوسقورس كان يثق به، حتي عهد إليه بإدارة الكنائس[1]. إلا أنه خالف هذه الثقة، وصرّح بقبول أحكام مجمع خلقيدونية، ليكون مقبولاً في عيون مختاريه من الأروام. كما أنه أعترف بصحة آراء البابا ليو، عندما طُلِب منه المصادقة عليها[2].

+ ولما أتفق الأساقفة المصريون علي رسامة «**بروتوريوس**»[3]!! ثارت الأمة المصرية كلها. واشتّد هياج الشعب، لأنهم اعتبروه خائناً لوطنه، وخادعاً للكنيسة. وأعتبروه منافقاً ومُرائياً أيضاً.

+ وأرسل الوالي (البيزنطي) كتيبة لإخضاع الشعب الثائر، فحاصروها في

(١) هذا الكلام يخالف الواقع، فقد كان البابا ديوسقورس قد تنبآ عن هذا القس بآنه سيُعرض عليه الكرسي المرقسي، وحذَّره من ذلك، كما نبهه إلي ذلك القديس مكاريوس أسقف إدكو، ولكنه اشتهاه للأسف.

(٢) لم يقبل بابا روما بقرارات مجمع خلقيدونية لأنها لم تعطه الاقرار بآن له الأولوية علي باقي الكراسي الرسولية، بل بالعكس جاء في المادة الثامنة تجريد لكرسي روما من هذه الدعاوي الفارغة، وبآنه لا حق له في الأسبقية علي الكنائس الشرقية. وقد أغتاظ ليو أيضاً، لأنه كان يريد إدخال عبارة «نحن نواب بابا روما – **رئيس الكنيسة الجامعة** – نحرم ديوسقورس بمصادقة المجمع علي ذلك». ومع أن «بروتوريوس» (المُغتصب للكرسي المرقسي) صادق ليو، لكنه لم يتنازل له عن أولوية الكنيسة القبطية في إصدار رسائل الفصح، التي كان يكتبها بطاركة مصر علي الدوام (لمصر والخارج لتحديد موعده حسب قرار مجمع نيقية)....» (**هامش أصلي**).

(٣) وهو علي غير الحقيقة. فلم يرد في أي مصدر أن أي اسقف أرثوذكسي مصري شارك في رسامة هذا القس الطامع في الكرسي المرقسي، بل قام باضطهادهم لامتناعهم فعلاً عن المشاركة في الرسامة وفي الصلاة معه.

قباب معبد السيرابيوم المُتهدم وأحرقوهم. ففرض الوالي (فلورس) عقاباً علي السكان بالإسكندرية. وطلب نجدة من العاصمة البيزنطية، فأرسلت له القسطنطنية ألفَّي رجل، وكانوا حديثي عهد بالخدمة العسكرية وبالتدريب، فتمردوا وعصوا الأوامر، فاضطر فلورس للتصالح مع المصريين (الأقباط).

+ وكان الأسقف المزيف «بروتوريوس» تحرسه قوات خوفاً من الشعب. وكان الكهنة والأساقفة يهزأون به، لأنه رفض ذكر اسم «ديوسقورس» في القداس. وكان يقاومه شماس يُدعي «تيموثاوس» كان قد حُكم عليه بالحرم مع شماس آخر اسمه «بطرس». وتم نفيهما إلي ليبيا، مع خمسة أساقفة وعدد من رهبان الإسكندرية، لأنهم رفضوا الاعتراف به بطريركياً، في حياة البابا ديوسقورس (في المنفي).

+ وفي عام ٤٥٤ م تنيّح البابا ديوسقورس، ومع ذلك ظل المصريون يُنكرون بطريركية بروتوريوس، ولكنهم لم يتمكنوا من رسامة خلف لديوسقورس. إلا بعد مرور ٣ سنوات، أي بعد موت مركيانوس، المُشجّع للبطريرك المُزّيف!!

+ فلما سمع الشماس تيموثاوس بموت الامبراطور عاد للإسكندرية، فرسمه الأساقفة الذين كانوا يرفضون بروتوريوس. ولما كانت هذه الرسامة قد تمت، وكان الوالي غائباً عن الإسكندرية، فقد تضايق منه. وحدث بينهما الشقاق.

+ وقد قامت جماعة من الأشرار بقتل بروتوريوس مع ستة من القسوس الذين كانوا يؤيدونه. وكان البابا تيموثاوس غائباً عن الإسكندرية، ولم تكن له يد في هذه الجناية القطيعة، ولكنه لا يخلو من اللوم[1].

(١) قال يوحنا النقيوسي (القرن ٧م) إن تيموثاوس كان راهباً قديساً. وبعد توليّه الكرسي المرقسي بعد ديوسقورس تغيرّت مبادئه!! (**هامش أصلي**). ولم يرد ذلك في مصدر آخر.

+ وقام بحرم ١٤ أسقفاً وعزلهم من كراسيهم. فرفعوا شكاويهم للإمبراطور الجديد ليو (Leo)، كما أرسل البابا تيموثاوس كتاباً مع وفد من الأساقفة والقسوس له، مبرراً عمله.

+ فارتبك الامبراطور ليو من كثرة الدعاوي التي رفعها اليه بطاركة الإسكندرية وروميه والقسطنطنية. كما ظهرت في العاصمة جماعة قوية، لمقاومة أعمال مجمع خلقيدونيا وطالبت بتغيير قراراته. وكان من رأي الامبراطور ليو عقد مجمع عام (مسكوني) للنظر إن كانت أحكام مجمع خلقيدونية صحيحة أم لا؟!

+ ويقول المؤرخ (الاسقف) يوحنا النقيوسي أنه لم يؤيد البابا تيموثاوس سوي أسقفين. وقال آخرون إن رسامته لم تكن سليمة!!

+ وقد رأي الامبراطور ليو (البيزنطي) أنه من حُسن السياسة وصحة الرأي أن يترك المصريين وشأنهم، ولا يتدّخل في أمرهم حتي يسكتوا. وكان يمكن أن تكف المناوشات والخصام، لولا أن بابا روما تمادي في حماقته، وأخذ يُدبّر الدسائس والمكائد، حتي أقنع الامبراطور البيزنطي (سنة ٤٦٠م) بأن ينفي تيموثاوس الاسكندري ويتم تنصيب آخر بدلاً منه.

+ وتذكر بوتشر أنه لما علم تيموثاوس تظاهر بأنه يقبل الانحياز إلي آراء مجمع خلقيدونية[١]، إذا عدل الامبراطور ليو عن نفيه، ولكن البابا ليو أغري هذا الامبراطور – بدسائسه وخداعه – علي عدم قبول هذا الرأي من تيموثاوس، فتم نفي هذا البطريرك إلي (جزيرة) غاغرا!!

---

(١) تعتمد بوتشر علي رأي يوحنا النقيوسي بأن البابا تيموثاوس قد تغيرت مبادئه بعد رسامته، وهو رأي لم نقرأه في أي مصدر قبطي آخر.

+ وبعد نفي تيموثاوس (الأول)، أختير تيموثاوس آخر بدلاً منه، ولم يكن مثل سميّه وسلفه[1] في الصفات والأخلاق، بل كان تقياً وديعاً وداعياً لمحبة الله، وجلس علي الكرسي المرقسي ١٦ سنة (وفي المصادر القبطية من عام ٤٥٥ – ٤٧٧م) في سلام وآمان، مُظهراً العطف والانصاف لكل الناس علي السواء، غيوراً علي كنيسته غيرة صادقة من قلب سليم وإيمان قوي.

+ ومع أنه أغاظ البابا ليو والامبراطور ليو، بذكر إسم ديوسقورس في القداس، إلا أن هذين العنيدين لم يستطيعا معاندته أو مقاومته، لأنه أمتلك محبة الشعب والاكليروس، وفض الخلاف الذي حدث بين الطبقات، حتي أن المتطرفين الذين رفضوا – في البداية – الاعتراف برئاسته، كانوا إذا ما نظروه ماراً في الشوارع يحيونه بتهليل قائلين: «إننا وإن لم نُقّر بانتخابك، لكننا نُحبك بشدة»!!

+ وأظهر هذا البابا حكمة وتعقلاً – في جميع أعماله وتصرُّفاته – حتي أنه كان لا يوافق الامبراطور علي اضطهاد الهراطقة، علي أساس أن كل إنسان حر في اعتقاده، ولو لم يقصف الله عُمر ليو بابا روما حالاً، لكان تيموثاوس الاسكندري قد لاقي من دسائسه المزيد من المتاعب.

+ وجاء بعده علي كرسي روما البابا هيلاري، ولم يتدّخل في شئون الكنائس الشرقية – مثل سلفه ليو – الذي كان يُكثر من التدُّخل والتطفُل، بزعم الرئاسة المطلقة علي جميع كنائس العالم. **وهي دعوي فارغة تركت لليو أثراً (سجلاً) أسوداً.**

---

(١) البابا تيموثاوس الأول (البطريرك ٢٢ من ٣٧٩ – ٣٨٠م) أما تيموثاوس الثاني (البطريرك ٢٦ من ٤٥٥ – ٤٧٧م) وبالتالي لم يكن يليه مباشرة.

+ وفي عام ٤٧٤م مات الامبراطور ليو، وتولي مكانه «**زينون**» (Zeno)، الذي لم يمْضِ سنة في الحكم، حتي هرب من وجه باسيليكوس الجبار، الذي طرده وجلس مكانه علي عرش القسطنطنية.

+ وكان باسيليكوس منحازاً لمذهب أوطاخي، ولهذا انتهز رجال هذا الحزب هذه الفرصة وطلبوا إعادة تيموثاوس (الأول) إلي كرسي البطريركية. فأجاب هذا الامبراطور الظالم طلبهم، أما تيموثاوس الحالي (الثاني) فمضي إلي ديره، دون أن يعترض علي هذا الأمر[١].

+ وعاد تيموثاوس الأول إلي الكرسي المرقسي – من منفاه – وأنه عوضاً عن أن يقتدي بزميله تيموثاوس الثاني – ويتخذ السلام شعاراً له – سعي إلي التحزُّب والتعصُّب، وأوعز للامبراطور (باسيليكوس) أن يصدر منشوراً يطعن في (قرارات) مجمع خلقيدونية، ويطلب من البطاركة والأساقفة تفنيد قراراته وعدم اعتبار أحكامه (قانونية).

+ ومن الذين رفضوا ذلك اكاشيوس – بطريرك القسطنطنية – ولذلك تم عقد مجمع (محلي) في أفسس سنة ٤٧٧م لمحاكمته، فتم الحُكم عليه بالعزل، ولكنه لم يُنفّذ!!

+ ولم يدم فرح تيموثاوس (الأول) لأنه سنة ٤٧٧م استرد الملك زينون مُلكه، وكاد يُصدر أمراً بنفيه، لولا أنه وجده طاعناً في السن، ولا يحتمل عناء السفر لمكان المنفي.

+ وأما تيموثاوس الثاني (صاحب القلنسوة البيضاء) فلم يرغب في العودة

---

(١) يفُهم من كلام السيدة بوتشر أن الكنيسة القبطية تتبع مذهب الهرطوقي أوطاخي ودليل تخبُّطها أيضاً أنها أشارت إلي إعادة البابا تيموثاوس الأول ليحل محل البابا تيموثاوس الثاني، بينما الآخير قد جلس علي الكرسي المرقسي بعد نياحة الأول بسبعين سنة.

لكرسيه، حتي أنه لما مات تيموثاوس الأول، فضَّل البقاء في ديره تجنباً للنزاع لأنه وجد أن جماعة كُبرَي - في الإسكندرية - تُعانده وتُقاومه[1]!!

+ ولذلك تم اختيار «**بطرس**» صديق تيموثاوس الأول، بطريركاً للإسكندرية (٤٧٧ - ٤٨٩). وقد تضاربت الأقوال، واختلفت الأسانيد في أمر انتخاب البابا بطرس (الثالث). وذكر أكثر المؤرخين أن معظم الأساقفة، لم يشاركوا في رسامته. وربما كان هذا (الرأي) صحيحاً.

+ ولكننا لا نقبل رأي المؤرخ الانجليزي «نيل» (Neale) بأن أسقفاً واحداً فقط هو الذي حضر رسامة هذا البطريرك، إذ أن جملة الأساقفة المصريين - في ذلك الوقت - كانوا أكثر من مائة أسقف.

+ وليس من المُستبَّعد أن يكون أكثر الأساقفة قد خافوا من الامبراطور زينو، فلم يشاركوا في الرسامة، وكان هو يريد تعيين البابا المصري بنفسه، مخالفاً العقل والنقل (التقليد الكنسي).

+ وكان خوفهم في محله، لأنه عندما بلغه خبر رسامة الأنبا يطرس للبطريركية حتي آصدر آوامره بنفيه، وإعادة تيموثاوس صاحب القلنسوة البيضاء. إلا أن البابا بطرس (البطريرك ٢٧) لم يبتعد عن الإسكندرية، بل ظل مختبئاً فيها مدة الخمس سنوات التي جلس فيها تيموثاوس (الثاني) علي الكرسي المرقسي. وكان مملوءاً من الحنان والسلام.

+ وقد خطر علي بال تيموثاوس وشعبه رأي سليم (في نظر الكاتبة) وهو

---

(١) وهو كلام يناقض ما ذكرته عنه الكاتبة سابقاً. بالاضافة الي المدي الزمني الطويل بين البابا تيموثاوس الأول (البطريرك ٢٢) والبابا تيموثاوس الثاني (البابا ٢٦). والأول تنيّح سنة ٣٨٥م، والثاني تولي الكرسي المرقسي سنة ٤٥٥م.

وضع قاعدة عامة تسير عليها الأمة، في انتخاب خليفة للبطريرك الموجود – بعد موته – منعاً للخصام الذي يحدُث بين كثيرين يُرشحون أنفسهم لهذه الوظيفة، ويتحفزّون لاغتصابها عند فراغها!!

+ فاتفق رأي الشعب علي إرسال وفد للامبراطور، يطلب منه السماح للمصريين بحق انتخاب بطريرك (جديد) لهم، كما جرت عليه العادة من قديم الزمان، في مقابل أن الذي يتم تعيينه يتحتم عليه قبول آراء مجمع خلقيدونية[1]!!

+ وكان زعيم هذا الوفد المدعو يوحنا التلاوي (ربما نسبةً إلي تلا بالمنوفية)، وكان صديقاً للبابا تيموثاوس والوالي إيلوس، المغضوب عليه من البلاط البيزنطي، لإتهامه بالخيانة.

+ ويروي المؤرخون أن الامبراطور اعتقد أن يوحنا هذا كان يسعي لرتبة البطريركية، ولم يرغب زينو في إعطائها له. فلما تنيَّح تيموثاوس سنة ٤٨٢م (وفي المصادر القبطية عام ٤٧٧م) أُختير يوحنا التلاوي بطريركاً، وقَبِل هذه الوظيفة مسروراً، فأثار الامبراطور، ولاسيما عندما بعث إلي البابا الروماني سمبليشيوس وللامبراطور ولأكاشيوس (أكاكيوس) بطريرك القسطنطنية يُعلمهم فيها بانتخابه.

+ ولكن الرسالتين للامبراطور ولاكاشيوس لم تصلا اليهما، لأنه أرسلهما إلي صديقه الوالي إيلوس، ومعهما مبلغ من المال كرشوة، لكي يساعده رجال البلاط، ولكنه كان غائباً في انطاكية لعدم قبوله من السلطات البيزنطية.

(١) لست أدري من أين أتت السيدة بوتشر بهذا الكلام، الذي يُناقض تماماً مبدأ قبول الأقباط لقرارات مجمع خلقيدونية، ونسيت الكاتبة كل ماجري للأقباط من اضطهادات، واستمرت بشدة حتي القرن السابع، لرفض هذا المجمع الفاسد.

+ فاغتاظ الامبراطور لأن يوحنا كتب للبابا وتجاهله، فأرسل زينو رسالة لبابا روما يعلمه بأنه عازم علي تعيين بطرس، لأن تعيينه يُوجد سلاماً، فردّ العامل الروماني برسالة تمتليء بالكبرياء وحُب الرئاسة، وطلب التدَّخل في أمـور الكنيسة المصرية (الأرثوذكسية) كما فعل ليو من قبـله، وفي نغمة الكبرياء قال للإمبراطور إنه لم يوافق علي اختيار يوحنا، وهو لا يقبل تعيين بطرس بطريركاً لمصر (كأنه لا يُعيّن البطريرك القبطي إلا بتصديق بابا روما!!).

+ فاغتاظ زينو وأكاشيوس من هذا التطفل والتدّخل الغير مقبول، وأرسل الامبراطور أمراً للإسكندرية بتنصيب «بطرس» علي كرسي مارمرقس، بشـرط أن يُوّقع علي القـرار، المرسل له بيد برغامْس وإلـي مـصـر الجديد!!

+ وكان يُسمي «**أساس الاتحاد**» وقد أرسله لجميع رجال الدين والرهبان والعلمانيين في مصر وليبيا. وقيل إن بطريرك القسطنطنية هو الذي أملاه عليه. والقصد منه إزالة أسباب الشقاق والخلاف الموجود بخصوص موضوع الطبيعة والطبيعتين!!، وأنه يري أن علي كل مذهب أن يفسره بما يوافق مذهبه واعتقاده!!

+ وكاد مشروع الاتحاد ينجح، لولا أن بابا روما عارضه وقاومه، مُدعياً أنه مستخرج من قرارات مجمع خلقيدونية، التي لا يصادق عليها هو. وكان من أهداف هذا العاهل الروماني - وسلفاه وخليفتاه - أن يُزيدوا الإنشقاقات داخل الكنيسة المصرية، وبين كنائس الشرق والغرب، والتي استمرت ناره مشتعلة أكثر من ٤٠ سنة أخري!!

+ وكان قبول البطريرك المصري لكتاب «**الاتحاد**» (الذي وضعه زينو) من أجل

مصلحته، وسعي لنشره، فرفضه بعض الأساقفة والرهبان المصريين فنفاهم[1]!!

+ وأما يوحنا التلاوي فلم يرجع لمصر بعد نفيه، مع أنه رفع دعواه الي الامبراطور انسطاسيوس خليفة زينو، لوجود صلة قديمة بينهما، فلم يسمع له، وأكتفي بتعيينه أسقفاً في إبروشية ما!!

+ وقد مات أكاشيوس بطريرك القسطنطنية سنة ٤٨٩ م ومات بطرس الاسكندري سنة ٤٩٠م، ومات زينو ٤٩١م، ومات فيلكس الروماني – الذي قطع كل صلة بينه وبين الكنائس الشرقية سنة ٤٩٢م.

+ وهكذا قضي الرب علي شخصيات الانقسام، التي بذرت الشقاق والخصام، وأصبحت الكنيسة المسيحية – في القرن الخامس – تطعن الواحدة في الاخري، بسبب حب الرئاسة والانتفاخ المقوت!! واستجاب الكل الي الشيطان الذي زرع الزوان وسط حقول القمح!!

+ وقد قال مؤرخ: «إن هذا الاختلاف نشأ من حرفين فقط:

* فقال البعض: «إن المسيح **ذو** طبيعتين»

* وقال آخرون: «إن المسيح **من** طبيعتين».

* وأضاف بأنه لو فكر الفريقان لاتضح عدم وجود اختلاف في الرأيين!!

+ فالذي يقول بأن المسيح «**ذو**» طبيعتين، يعتقد بأنه إله وإنسان في نفس الوقت، وهذا يثبت وجود اللاهوت والناسوت في المُخلص.

---

(١) وتُبَرر الكاتبة ذلك الرفض: إما لأنهم لم يفهموه، أو لأنهم أقروا بصحة مجمع خلقيدونية، وكلاهما مبرران يثيران السُخرية!!

+ والذي يقـول أنه «**من**» طبيعتين يقصد أن له لاهوتاً وناسوتاً. وهو نفس الاعتقاد الأول، ولا فرق بينهما، سوي أن كلمّتي: «**ذو**»، «**من**»، هو فرق لا يُدركه إلا ضعاف العقول!!

+ ومن ذلك الحين لحد يومنا هذا (١٨٩٧ م) ومركز كنيسة القسطنطنية في مصر، واسمها الآن «**كنيسة الأروام**» (اليونان)، لم يتغيّر، ولم يدخل عليه عوامل التقدم أو التأخر (كل كنيسة بعيدة عن الأخري)، رغم وجود شبه قرابة، بل صلة رحم قوية بينهما، خصوصاً في التعاليم والتقليد (المصري القديم).

+ وظل أباطرة الرومان (البيزنطيون) يضغطون علي الأقباط في تعيين بطاركة أروام (تابعون لآراء مجمع خلقيدونية)، كما حدث من سنة ٤٨٢م لغاية عام ٥٨٩م. ثم استمر ذلك الوضع حتي الغزو العربي (٦٤١م).

+ وكان نتيجة ذلك أن عدد التابعين للكنيسة الرومانية – علي اختلاف مذاهبهم وجنسياتهم لا يتجاوز ٦٠٠٠ نفس. بينما بلغ عدد أبناء الكنيسة الوطنية – الأقباط الارثوذكس – نحو عُشر سكان القطر المصري (في نهاية القرن ١٩).

✢ ✢ ✢

الفصل السادس والعشرون
زمن للراحة والسلام
(٤٩١م=٢٠١ش)

+ كان الامبراطور **أنسطاسيوس**، الذي تولي عرش القسطنطنية بعد زينون وتزوج بأرملته (أريادن) عارفاً بأحوال مصر وأخبارها، لأن زينو قد نفاه في بلدة منوف، وكان له فيها أصدقاء كثيرون من المصريين.

+ وقد إلتقي هناك براهب قديس يُدعي «إرميا». أعلمه بأنه سيصير إمبراطوراً. وحذّره من عمل شيء يضر بالديانة المسيحية ولا يعمل شراً، ولا يُصادق علي قرارات مجمع خلقيدونية.

+ وبني خلال منفاه كنيسة كبري. ولما تولي الحُكم، بعث بهدايا لأصدقائه المصريين، وعيّن بعضهم ولاة للأقاليم المصرية. وأقام قلعة علي البحر الأحمر، ورمم منارة الإسكندرية. وكان محباً ومحبوباً للمصريين.

+ وتم اختيار الشعب البابا أثناسيوس الثاني (٤٨٩ - ٤٩٦م) بإجماع الآراء، ولذلك كان انتخابه قانونياً، بعد وفاة أنبا بطرس الثالث.

+ وقد سعي هذا البابا - والامبراطور - علي رفض المناقشات والمجادلات المذهبية العقيمة، وأن علي كل بلد تتبّع المذهب الذي يراه رئيسها الديني.

+ وأن يتوقف كل رئيس عن مُحاكمة -ومُطاردة - كل من لا يوافقهم في عقيدتهم.

+ وذكر مؤرخ أن هذا الامبراطور نقل بعض الأساقفة الذين كانوا يثيرون الشقاقات المذهبية.

+ وبذلك أزيلت أسباب العداوة بين كراسي الإسكندرية وأنطاكية وأورشليم والقسطنطنية، وزادت الصداقة والتعاون بينها، إلا كرسي روما"! فلم يكُفْ باباواته عن تعصبهم الذميم. ونادوا بضرورة حرمان نسطور وأوطاخي وديوسقورس وبطرس وأكاشيوس، حرماناً باتاً «من فم الآباء القديسين» ولو أنهم كلهم كانوا قد ماتوا!!

+ ولم تقتصر فائدة السلام والراحة علي المسيحيين فقط، بل وصلت إلي جماعة الوثنيين بالإسكندرية، فإن «هيروكليس» أحد مشاهير فلسفة

الوثنية بالإسكندرية - الذي تم تعذيبه في القسطنطنية بسبب أفكاره - قد عاد للإسكندرية، وحاول التوفيق بين آداب المسيحية والوثنية.

+ ومن مشاهير تلك الفترة طبيب قبطي يُدعي «إتيوس» أعدّ مؤلفاً طبياً عظيماً. وكان قد آمن بالمسيحية وتعمد، ولكنه مال لآراء آريوس الهرطوقي.

+ وقد جلس البابا **يوحنا الأول** (٤٩٦ - ٥٠٥م) وعُرف بالحكمة مثل سلفه، ونعمت البلاد بالهدوء والسلام. في حين كانت القلاقل في باقي الامبراطورية، وإن ساد مصر مرض وبائي قيل عنه أنه نوع من الصرع المُعدي.

+ ثم تولي الكرسي المرقسي البابا **يوحنا الثاني** (٥٠٥ - ٥١٦م) وكان قبل رسامته في دير الغار، الذي كان علي مقربة من بلبيس (بالشرقية) وتبادل الرسائل مع بطريرك أنطاكية. وظلت تلك العادة مستمرة إلي ما قبل أيامنا بقليل.

+ وكان بطريرك أنطاكية هو «**ساويرس**» وقد تحزب ضد مجمع خلقيدونية. وكان قبل رسامته مُقيماً في الإسكندرية، فاختاره الامبراطور بطريركاً لأنطاكية. وقد آسف لتعيينه، لأنه لم يعرف التساهل والتسامح، بل كان يضطهد كل من يقبل قرارات مجمع خلقيدونية[١].

+ وظلت الحبشة (إثيوبيا) تخضع للبابا القبطي وترفض قرارات مجمع خلقيدونية. وكانت رسامة مطرانها تتم علي يد بطريرك أقباط مصر،

---

(١) والواقع أن القديس ساويرس كان أرثوذكسياً صميما. ولم يضطهد أحدا، بل إن الامبراطور چستنيان البيزنطي هو الذي اضطهده، حتي اضطر إلي الهرب، والمعيشة سراً في مصر، إلي أن تنيَّح فيها.

ويستحيل قبول أي مطران آخر لا يرسمه البابا المصري، وظل الأحباش محافظين علي هذا المبدأ، حتي وقتنا الحاضر (أواخر القرن ١٩م).

+ وقد غزا جيش الفُرس مصر عام ٥٠١م، واستباحوا كل شيء في الوجه البحري حتي وصلوا إلي أسوار الإسكندرية. ولكن هزمهم الرومان، وطردوهم من مصر، ولكن بعدما أخربوها. وعاني منهم الشعب المصري، كما اشتدت المجاعة بمصر.

+ وكان أحد اليهود - الذي صار مسيحياً بالإسكندرية - قد تبرَّع بتوزيع كميات كبيرة من القمح علي الفقراء الجياع - يوم عيد القيامة - فازدحم عدد ضخم منهم حول الكنيسة، وسقط نحو ٣٠٠ تحت الأقدام المزدحمة وماتوا!!

+ وقد نبغ شاعر قبطي من طيبة (الأقصر) لا تزال أشعاره عند اليونان، واسمه كريستودورس. وكتب عالم قُبطي يُدعي ديسكوريدس عن عالم النبات - بناء علي طلب إحدي الأميرات الروميات. وزّينه بالرسوم الرائعة، وهو موجود بمكتبة ڤينا بالنمسا إلي يومنا هذا (١٨٩٧م).

+ كما توجد بنفس المكتبة نُسخة - من هذا العصر - لسفر التكوين، كُتبت في مصر، وتحتوي علي أكثر من ٨٨ صورة رائعة.

+ ولما تنيّح البابا يوحنا، رغب الامبراطور في تنصيب «ديوسقورس» ابن عم تيموثاوس الأول(١)، وكان محبوباً من الشعب. ولكنهم رفضوه لأنهم لم يقبلوا تدّخل الإمبراطور في أمر تعيين بطريرك له، وأنه يُسلّم نفسه لإرادة الشعوب فينتخبوه أم لا، حسب رغبتهم، ووفق القواعد المرعية في الكنيسة القبطية.

---

(١) لا يُعقل أن يكون إبن عم تيموثاوس الذي أنتقل للعالم الآخر منذ أكثر من ١٢٠ عاماً.

+ ولم يشرعوا في أنتخاب ديوسقورس الثاني (٥١٦ - ٥١٨م) إلا بعد فترة، ومع ذلك ثار الاشرار وقتلوا ابن الوالي البيزنطي، ونالوا جزاءهم، لكن الامبراطور غضب وأراد الانتقام من كل الشعب، فذهب إليه البابا وحصل علي عفو عام لمدينة الإسكندرية.

+ ومما يدعو للإعجاب به أنه أحتمل اهانات انصار مجمع خلقيدونية في القسطنطنية. فلم يُرّد بكلمة علي الأشرار، الذين كانوا يشتمونه في أثناء سيره في الشوارع هناك.

+ ومن سوء حظ مصر أن مات الامبراطور انسطاسيوس والبابا ديوسقورس (الثاني)، وتولي الامبراطور **يوستينوس** (چستنيان Justiniaus) وكان جندياً قليل الرُتبة العسكرية، وكان أمياً، من الجنس السلاقي المغولي. فقاده طبعه وجهله إلي السير ضد خطة سلفه، كما آنه كان مؤيداً لمباديء مجمع خلقيدونية.

+ لذلك أمر بالقبض علي ساويرس الانطاكي وقطع لسانه، ولكنه فرَّ إلي الإسكندرية (سراً)، حيث أضرَّ بأهلها (حسب زعم الكاتبة) لأنه آوجد ميلاً إلي تجديد المنازعات الدينية والمجادلات المذهبية، لولا أن الرب رزق مصر بطريركاً حكيماً هو تيموثاوس الثالث (٥١٨ - ٥٣٦م).

+ وقد تمتعت مصر بالهدوء في بداية الخمس سنوات الأولي من حُكم چستنيان، لأنه كان مشغولاً بتدعيم حُكمِه في المشرق والمغرب. وآتم الصلّح بين الكنيستين اليونانية والرومانية.

+ ثم استدار لاضطهاد أنصار مجمع خلقيدونية في مصر. وأول عمل شرع فيه أنه أرسل في استدعاء البابا تيموثاوس الإسكندري إلي العاصمة البيزنطية. وفيما هو يستعد للسفر إليها أُصيب بالمرض، وأنتقل إلي السماء!!

الفصل السابع والعشرون

كـــل أول ولـــه آخـــر

(٥٢٧م=٢٣٧ش)

+ كان الامبراطور چستنيانوس منحازاً إلي آراء مجمع خلقيدونية. ولكن مالت زوجته «ثاؤدورا» (Theodora) للمذهب القبطي (الارثوذكسي) مما حد من تيار اندفاعه نحو اضطهاد الأقباط.

+ ولكن حدثت ظروف صعبة، أختلف المؤرخون في ذكر سببها، فقيل أنه أرسل قائده أبوليناريوس بجيش كبير ليُجبر الأقباط علي قبول آراء مجمع خلقيدونية، فسالت الدماء أنهاراً، ولم يستجب المصريون.

+ ومن قائل أنه عيّن المدعو أبوليناريوس بطريركاً، دون آخذ رأي الشعب المصري. فحدثت قلاقل - في الإسكندرية - زعزت السلام السابق.

+ وقال المؤرخ القبطي الأسقف يوحنا النقيوسي إن الامبراطور حاول إجبار المصريين علي قبول مذهبه، وأن البابا تيموثاوس أرسل وفداً للقسطنطنية نجح - بواسطة تدُخل الامبراطورة ثيؤدورا - فأرسل الأمر إلي جيشه بالتحرُك من الإسكندرية إلي شمال إفريقية.

+ وأغلب الظن أن چستنيان لم يسَع إلي تعيين بطريرك روماني (بيزنطي) في مصر، إلا بعد نياحة البابا تيموثاوس، وكان في نيته - هو وزوجته - عدم التدُخل، إلا أنه بعد نياحة البابا تيموثاوس حدث شقاق بين حزبين أحدهما نادي بأن جسد المسيح كان شبيهاً بجسدنا في جوهره ومادته. فهو نظيرنا قابل للفناء والفساد!! وقال الحزب الثاني إن جسد المُخلَص لم يّر فساداً، بل كان يشبه جسدنا شبهاً ظاهرياً وليس حقيقياً.

+ وقامت غالبية الشعب بانتخاب ثيؤدوسيوس، أحد رجال الحزب الأول، وكان كاتب البابا ثيموثاوس الأول!! واختار الثاني رجلاً يُسمَّي «غيناس» لمنصب البطريرك.

+ ولما كانت العادة أن يبقي المرشح ليلة بجوار جثة البطريرك الراحل، وبينما كان يفعل ذلك جاء أشرار فخاف ثيؤدوسوس وهرب من المدينة، فاختير غيناس. فتدّخل جستنيان وأعاد ثيؤدوسوس للكرسي المرقسي، وهو مسلك لم يرق في عيون المصريين، فحاول إقناع شعبه بأن تدّخل الامبراطور لإرجاعه لكرسيه، لا يعني خضوعه لإرادته ولا قبول معتقده.

+ ولما أراد جستنيان أن يخضع ثيؤدوسيوس لمعتقداته لم يقبل، فتمت رسامة رجل يُدعي «بولس»، في القسطنطنية، وأرسله إلي مصر، تحت حراسة قوة عسكرية سنة ٥٤١م، وقام بنفي ثيؤدوسيوس.

+ ولم يحسبه المصريون بطريركاً لهم، ولقبوهّ «يهوذا الثاني» ورفض الموظفون البيزنطيون الاعتراف بسلطته، وقد تسبب في قتل شماس يُدعي «بيوس»، فتم نفي بولس الدخيل إلي غزة، حيث اجتمع هناك والي مصر وبطريركيّ انطاكية وأورشليم وحكموا عليه بالعزل والحرم.

+ وعيّن الامبراطور المدعو «زويلوس» ليجلس علي كرسي مارمرقس، فقابله المصريون بالاحتقار. ولم يعترفوا سوي بالبابا ثيؤدوسيوس، الذي جيء به من منفاه. وتم سجنه في القسطنطنية.

+ ومن ذلك الوقت، وحتي الغزو الاسلامي كان يحكم مصر بطريركان في آن واحد – بطريرك رومي دخـيل يضع يده علي أغني كنائس الإسكندرية ويبتلع إيرادها، وتحتقره الآمة وتزدري بسلطته، وبطريرك آخر قبطي شرعي، وكان يقيم بدير بوادي النطرون، ويُصدِر تعاليمه وتعليماته من هناك.

+ وأما الضرر الذي لحق بالكنيسة المصرية فلم يقتصر علي الأمور الدينية والسياسية فقط، بل أمتد للعوز المالي أيضاً، فقد كان البطريرك الدخيل مع الولاة البيزنطيين ينهبون المرتبات والصدقات المخصصة للكنائس القبطية، وكانت تصل الي نحو ثمانين الف جنية سنوياً.

+ ومن ذلك الوقت بَطُل استعمال اللغة اليونانية في الكنائس وفي المجتمعات المصرية، ولم يبّقَ لها أثر سوي في كنيسة الحكومة التي بناها الامبراطور للموظفين (الروم) وكان يصلي الاقباط - في كنائسهم - باللغة القبطية، وترجموا جميع الكتب الطقسية اليها.

+ ومن أعمال چستنيان في مصر أنه بني ٣ حصون لدير جبل سيناء (سانت كاترين) وديريّ أنبا بولا وأنبا أنطونيوس بالبحر الأحمر، وذلك من الأموال المغتصبة من الأكليروس والكنائس القبطية.

+ وكان من نتيجة هذا الانشقاق والمرارة التي كانت في قلوب الروم المستوطنين بمصر من جهة، وجمهور المسيحيين من الاقباط من جهة أخري، أنه عند قدوم العرب - في القرن التالي - أن الأقباط رحبوا بهم، بزعم انقاذهم من الروم المسيحيين[١].

+ وإن الذنب الكبير الذي لا يُغتفر لفئة قليلة من الاقباط غررّت ببلادها وسلمتها إلي أعداء دينها، فحصدت جزاء ما زرعت، وذاقت القصاص المُريع من أيدي الذين أدخلوهم[٢]، ما يُذيب من هوله الحجر.

(١) هذا الرأي خاطيء، فلم يرحب الاقباط بالعرب، بل ظلوا متباعدين تماماً عن الصراع الذي نشأ بين جيش المسلمين والجيش الرومي بمصر، ولم يساعدوا أي طرف منهما.

(٢) نحن نلوم سلبية المصريين في التصدّي للفريقين أي الغُزاة العرب والروم، وكانت الفُرصة سانحة أمام نحو ٢٤ مليون قبطي لطرد كل الغُزاة، ولكنهم وقفوا متفرجين للآسف، حتي أعطوا الفرصة *للغُرباء الجُدد*، كما سنراه فيما بعد.

+ ولكن لعل لهم عذراً، لأن الروم (البيزنطيين) آغاظوا الأقباط وأغتصبوا كنائسهم واختلسوا إيراداتها، واستولي عليها البطريرك الرومي الدخيل، والذي حل محل البابا المصري الشرعي، المنفي أو المختفي. مع فساد الحكومة الأجنبية الظالمة والغاشمة، والتي كانت قيادتها في يد البطريرك الدخيل، فتولي السلطتين الدينية والمدّنية أحياناً.

+ وأمر جستنيان بحرم آوريجانوس وتكفيره، وفي عام ٤٥٤م وزع منشوراً أتهم ثلاثة من مشاهير المؤلفين بفلسطين بالهرطقة.وأمر جميع البطاركة والأساقفة بالتوقيع عليه.

+ ومع أن هذا المنشور سفَّه آراء مجمع خلقيدونية، ومُوافِق لمعتقدات الكنيسة القبطية، لكنها اتبعت المبدأ، الذي وضعه أساقفة شمال افريقيا (قرطاجنة) بعدم جواز حرم الموتي وإنما الاكتفاء بتوضيح أخطائهم اللاهوتية.والابتعاد عن أفكارهم المنحرفة.

+ ونظراً لأن جستنيان كان امبراطوراً للشرق والغرب معاً، لذلك بعث بمنشوره لبابا روما «فيجيلميوس» فاضطر للتوقيع عليه، خوفاً منه.

+ ثم حلت الكوارث الطبيعية علي مصر – في سلسلة متتابعة الحلقات – فإنها ـ فضلاً عن المنازعات المدنية والدينية ـ أصابتها الزلازل وامتدت للشرق كله، ويذكر المؤرخ يوحنا النقيوسي أن الهزات استمرت لمدة سنة كاملة!! وأعقبها طاعون، وجوع أضر بشدة بالوجه البحري.

+ أما الوجه القبلي، فكان لا يُبالي سكانه بسطوة الامبراطور. وقلّت فيه سلطاته، وأزدهرت فيه المسيحية.

+ وفي بداية القرن السادس انتشرت المسيحية في كل البلاد من الإسكندرية شمالاً إلي حدود الحبشة، ووصلت بعثات جستنيان إلي جزيرة فيلة (أسوان) وجنوبها (وإلي جنوب ليبيا أيضاً).

+ كما قام البطريرك ثيؤدوسيوس بإرسال البعثات التبشيرية إلي السودان، وإن كان الوجه البحري يعاني من الخلافات الدينية، لكن عُرف الوجه القبلي بالغيرة علي الأرثوذكسية وتقدُّم المسيحية، حيث كان أهالي الصعيد يتجنبُّون الخوضَ في السياسة، ويبتعدون عن التعصب المذهبي، والتحيُّز لأي شخص مُبتدع.

+ ولما مات الامبراطور چستنيان سنة ٥٦٦م، وتنيَّح البابا ثيؤدوسيوس سنة ٥٦٧م، ظن أبوليناريوس الدخيل أن الجو قد خَلاَ له، وأنه يسهُل عليه إعلان رئاسته علي الكرسي الإسكندري، فأعَّد مأدبة فاخرة لهذا الغرض - في الإسكندرية - ولكن أسرع الأقباط بانتخاب بطريرك اسمه بطرس الرابع (٥٦٧ - ٥٦٩) من أطيب رجال الإكليروس سُمعةً وأكثرهم عِلماً وحكمة.

+ وفي عهده جاء إلي مصر القديس «**يعقوب البرادعي**» السُرياني، وكان قد وُلِد في بلدة تيلا قُرب انطاكية. وفي سنة ٥٤١م أحضروه من ديره عند القسطنطنية ورسمه البابا ثيؤدوسيوس الإسكندري أسقفاً - مع مجموعة من المصريين الذين كان چستنيان قد حجزهم في ذلك الدير.

+ وكان يجول في الولايات الرومانية - عدا مصر - ليضم سكانها لحظيرة الكنيسة المصرية (الأرثوذكسية) ولم يخف من الخطر من موظفي وكهنة البيزنطيين. وقيل إنه رسم ٨٩ أسقفاً، وألوفاً من الكهنة. ومن ذلك الحين أُطلقت كلمة «**يعقوبيين**» علي جميع الذين يومنون بالطبيعة الواحدة للمسيح (والأصح الأرثوذكس) اشتقاقاً من اسم هذا الزعيم الروحي السرياني.

+ ولكن من الخلط الكبير، والتخبُّط الذي يدل علي الجهل إطلاق صفة «**اليعقوبيين**» علي الكنيسة القبطية المصرية (الارثوذكسية) إذ أنها لم تخضع ليعقوب البرادعي. أما إذا سمّيت الكنيسة الرومانية (الرومية = اليونانية) بمصر بالكنيسة «**الملكية**» (أو أتباع المذهب الملكاني في بعض الكتب) فأنت مُصيب، وغير مُخطيء، لأن هذا الأسم صار لقباً للكنيسة المذكورة، بعد الغزو الإسلامي، وهو اسم عربي مشتق من كلمة «ملك». ومعناه الذين ينحازون إلي الملك - أو الامبراطور - الروماني (البيزنطي أو الرومـي) مذهباً وسياسةً.

+ وعزم يعقوب علي إصلاح العلاقات التي ساءت بين الكنيستين المصرية والسريانية بسبب حُكم أصدره البابا بطرس الاسكندري بحرم بولس البطريرك السرياني المنحرف.

+ ثم زار البرادعي الإسكندرية في أيام البابا دميان (٥٦٩ - ٦٠٥م) ومرِض. ثم تنيّح بسلام في دير بمصر.

+ وكان الأنبا بطرس قد جلس علي كرسي البطريركية سنتين، وخلفه البابا دميان، الذي سار بالتعُقل وابتعد عن كل شقاق ديني، أو نزاع مذهبي. وقضي معظم وقته في قلايته بوادي النطرون.

+ ومات الأسقف الملكاني أبوليناريوس سنة ٥٦٩م وخلفه أسقف دخيل آخر يُسمي يوحنا، من قواد الجيش المتقاعدين. وتمت رسامته في القسطنطنية وأُرسِل للإسكندرية لقبض إيراد الكنائس القبطية، ولكنه لم يكن كسابقيه مُجبِرًا الاقباط علي تغيير مذهبهم. بل عاش في سلام معهم.

+ وسعت الحكومة الرومانية (البيزنطية) إلي عدم إلحاق أي مصري بالجيش.

وإن كانت تتساهل فيه أحياناً، لكن عادت ومنعته، لأنها راعت فيه جانب السياسة، أكثر من جانب الوطنية - أو المذهب الديني.

+ كما عمَد الروم إلي إضعاف تجارة مصر، ولكنهم لم يقدروا علي مُلاشاتها. فكانت السفن المصرية تُشحن بالغلال لإنجلترا وتعود بالمعادن، وخاصةً القصدير.

+ وقد نبغ تاجر قبطي اسمه «**قزمان**» بالملاحة والسياحة، فوصل إلي الهند، ووضع كتباً عما شاهده هناك من إنسان وحيوان ونبات وجغرافيا وآثار.

+ وأنحطت الإسكندرية في علومها وتجارتها. وكثر الموظفون الروم بها، وسكن أغلبهم في تبوصيرص غربّي الإسكندرية. ولا تزال خرائب قصورها وحماماتها الشهيرة تدل علي ما كان لها من العظمة.

+ وفي عهد جستنيان - وخليفتيه يوستينوس الثاني وطيباريوس الثاني - أتسعت الهُوَّة وزادت العداوة - والنفور - بين المصريين والروم (البيزنطيين)، كما سيأتي في الفصول التالية.

+ + +

الفصل الثامن والعشرون

ثورة الثلاثة إخوة

٥٨٢م - ٢٩٨ش

+ في أوائل حُكم الامبراطور موريس، الذي تولي بعد طيباريوس الثاني، حدثت ثورة في الوجه البحري بزعامة ثلاثة أخوة من الأقباط هم: بسخيرون ومينا ويعقوب، وتغلبُّوا علي الولاة الروم.

+ فأرسل الإمبراطور ليوحنا - والي الإسكندرية - لإخماد الثورة. ولما فشل طالب الامبراطور بمفاوضة الثوار علي شروط الصُلح، وشارك فيه البطريرك الملكاني أولوجيوس، الذي صار حاكماً أيضاً.

+ ثم استطاع الجيش القبض علي الثُوَّار، وتم إعدامهم. ومع ذلك كثرت الثورات في عهد الامبراطور موريس وخلفائه، وخاصةً في أخميم، واستطاع الجيش الرومي هزيمتهم، كما ثارت خمس مدن أخري هي صان وخربتا وبطرة وبلقطر وسنهور (بالبحيرة) واستخدم الروم معهم القسوة حتي قضوا علي الثورة.

+ ومن ذلك الوقت علم المصريون أنه من الصعب عليهم التخلُّص من نير الحكم الرومي، ولذلك نظروا للمسلمين عساهم يجدون عندهم المساعدة، فوقعوا في ظلم أشد، إلي يومنا هذا!،وأذاقوهم العذاب، أكثر مما فعل دقلديانوس ونيرون!!

✣ ✣ ✣

الفصل التاسع والعشرون

الغـــــــزو الفارســـــــي

٦٠٣م=٣١٩ش

+ لما تولَّي البابا انسطاسيوس سنة ٦٠٣ كان رجلاً شجاعاً، وجاء للإسكندرية ولم يهب الموت. وكان يرسم أساقفة وكهنة. وافتقد رعاياه في الريف. وبني كنيسة كُبري بالإسكندرية بإسم الملاك ميخائيل.

+ وقد ثار هرقل - والي شمال إفريقيا - علي الإمبراطور فوكاس، يريد الاستيلاء علي مصر، وانضم عدد كبير من المصريين لهرقل ومنهم

تــادرس أســقف ابشــادي، وانضم آخــرون لحــزب فـوكــاس، وأنتـصــر الأخير.

+ ولكن جاء قائد يُدعي نستاس ومعه جيش من قِبَل هرقل، فاستولي علي سمنود، وكان بالقُرب منها راهب قديس اسمه «**ثاوفيلس**» عُرِف بالتقوي والقداسة. وظل ٤٠ سنة علي عمود. فمضي اليه نسيتاس ليستشيره في أمر تلك الحرب، فتنبأ له بأن هرقل سوف يجلس علي كرسي القسطنطنية.

+ ولما استتب الأمر لنستاس، حوَّل نظرهْ لإجراء العدل. والنظام في مصر، بسبب انتشار الفوضي، وقام بعض المصريين بنهب الروم، مما اضطر كثيرون منهم إلي الهجرة من مصر. وبعضهم عاد للوثنية!!

+ وبعد أربع سنوات غزا جيش كسري ملك الفُرس الشام، ووصل لحدود مصر يهددها، وفر كثيرون من السريان إلي مصر من ظلم الفْرس وقسوتهم، فأكرُمهم البطريرك الرومي يوحنا، الذي عيّنه هرقل، والبابا المصري أنسطاسيوس أكرمهم أيضاً.

+ وكان من بين من وفدوا لمصر بطريرك أنطاكية. فاستقبله البابا القبطي انسطاسيوس، وقدم له مساعدات كثيرة، رغم قلة دخله، وانخفاض فيضان النيل في تك الفترة.

+ ولما تنيّح البابا أنسطاسيوس، الذي كان محبوباً من رعاياه، وخلفه البابا اندرونيكوس (٦١٦ - ٦٢٣) أَذِنَت له الحكومة (البيزنطية) بالبقاء في الإسكندرية، وساد السلام محل الشقاق والانقسام والخصام.

+ وقابل المصريون الفُرس بهدوء، لأنهم ظنوا أنهم سوف يُخلصوّنهم من ظلم البيزنطيين. وفر القائد نسيتاس مع البطريرك الملكاني يوحنا من

الإسكندرية، فاحتل الفُرس الإسكندرية سنة ٦٢٠م. ثم استولوا علي كل مصر.

+ ولما استولي هرقل علي القسطنطنية انشغل في صد هجمات الأعداء عنها فلم يتحرّك لطرد الفُرس من مصر، ولا عيّن بطريركاً لكنيسة الآروام. بينما تنيّح البابا المصري اندرونيكوس، وشرع الأقباط في ترشيح بطريرك لهم. وتمت رسامة البابا بنيامين، وأسرع الروم باختيار المدعو جرجس، خوفاً من سيطرة البابا القبطي علي كل دخل كنائس الإسكندرية.

+ وكان البابا بنيامين الأول (٦٢٣ - ٦٦٢م) من أسرة مُوسِرَة، وترَّهب في إحدي الأديرة، وعُرِف عنه الزُهد الكثير، والميل للعبادة الحارة. وكان مع البابا أندرونيكوس في الإسكندرية، إلي أن تم ترشيحه ورسامته.

✣ ✣ ✣

الفصل الثلاثون

مشـــروع الاتحـــاد

٦٢٩م = ٣٥ش

+ فـي سنة ٦٢٩م أقام هرقل حرباً علي الفُرس في الشرق. ولما انتصر عليهم اتجه نحو مصر ليستردها من أيديهم. وقد علمتّه التجارب والخبرة أنه لا يستطيع إعادة هذا القطر للحُكم البيزنطي، إلا اذا اصطلح مع الأقباط.

+ لذلك جمع لديه أثناسيوس بطريرك إنطاكية (الذي إلتجأ لمصر) وسرجيوس بطريرك القسطنطنية وقيروس، أحد أساقفة المملكة الغربية. وأستشارهم

في أنجح الطرق لإتمام هذا الصُلح مع أقباط مصر. وبعد مناقشة اتفقوا علي عدم ذكر مجمع خلقيدونية، لأن مجرد ذكره - سواء بالمدح أو بالذم - يثير أعصاب الأحزاب ويُغضبهم.

+ ثم قرروا وضع مشروع أسموه «**مشروع الاتحاد**»، وتضمَّن القول بأن السيد المسيح «**مشيئة**» واحدة، بدلاً من قولهم «**طبيعة**» واحدة.

+ ثم عيّن الامبراطور الأسقف قيرش (Cyrus) بطريركاً للإسكندرية (للروم) وأعطاه السلطان علي إتمام الصُلح، علي أساس مشروع الاتحاد.

+ فلما وصل قيرس للاسكندرية لم يجد صعوبة في إتمام مأموريته، لأن عامة الشعب القبطي ورجال الاكليروس قبلوا مبدأ «**الإتحاد**» هذا، مادام يدعو إلي القَول «**بمشيئة واحدة**» وهو يُؤيّد اعتقادهم بالطبيعة الواحدة للمسيح.

+ ولكن قام رجل من الكنيسة الرومية - اسمه صفرونيوس - كان مشهوراً بعلمه وسعة إطلاعه، وجاء قيرس، ورجاه عدم نشر هذا التعليم الجديد، لأنه بدعة رسمها الامبراطور لهم.

+ ولم يعبأ البطريرك الملكاني بكلامه، وحاول إقناع البابا القبطي بمشروع هرقل، فأعلن له إنه لا يقبل قراراً دينياً صادراً من الامبراطور، وليس من شأنه تقرير مباديء لاهوتية.

+ وعمَد قيرس إلي تنفيذ رأيه بالقوة. فهرب وُجهَاء الأقباط المعضدين للبابا من الإسكندرية، وتم نفي البابا بنيامين إلي دير بمصر الوسطي.

+ وغادر صفرونيوس مصر إلي سوريا، حيث تمّت رسامته بطريركاً (رومياً) لأورشليم (القدس).

+ ولما ذهب هرقل لزيارة أورشليم وجد أن اليهود قد خرّبوها (خلال الاحتلال الفارسي) بسبب شدة كراهيتهم للمسيحية.

+ ويذكر المقريزي أن مسيحيّ سوريا (الروم) طلبوا من هرقل الأنتقام من اليهود، الذين قد وعدهم بالأمان، وأنهم أخذوا علي عاتقهم التكفير عن حنثه بقسمه بأن يصوم جميع المسيحيين أسبوعاً كل عام». فأقتنع هرقل بهذا الكلام، وقتل كثيرين من اليهود في كل الولايات.

+ ومن الغريب أنه لم يبقَ بمصر - من مشروع الاتحاد الذي وضعه هرقل - سوي صوم أسبوع عنه، ولم تكن الكنيسة القبطية في حاجة إليه لكثرة أصوامها وشدتها[1]!!

+ ومن ذلك الحين أرسل بطريرك أورشليم وأساقفته (الروم) منشوراً لجميع البلدان يؤكدون علي ضرورة صوم المسيحيين سبعة أيام كل عام. ويدعونه «أسبوع هرقل» (ولا دخل للأقباط بالطبع في هذا كله).

+ وبعد طرد الفُرس من مصر عادت سُلطة الرومان (البيزنطيون)، ووُضِعت حاميات عسكرية في الوجه البحري. بينما ظل الوجه القبلي يحكم نفسه بنفسه، إلي أن جاء ذلك الشخص الوهمي الذي يُسمّونه (= العرب) «المُقوقس»!

---

(١) هذا الرأي خاطيء من عدة وجوه، ومنها أن الأقباط لا دخل لهم فيما فعله هرقل من قتل لليهود الغادرين، والذين فتكوا بمسيحيّي القدس وهدموا أماكنها المقدسة. كما أن الأقباط كانوا يصومون أسبوعاً - يسبق الصوم الكبير - ويزعم البعض أنه للتكفير عن جريمة هرقل. والواقع أنه بدلاً عن السبوت التي لا يجوز الصوم الانقطاعي فيها (راجع كتابنا ١٢٠ سؤال هام عن الأصوام، طبع مكتبة المحبة).

+ ولم يمضِ وقت طويل حتي ظهر عدو جديد للروم، هو العرب (المسلمون)، ومع أن محمداً - زعيم هذا الدين - قد آنتقل من العالم، إلا آن خليفته عُمر (بن الخطاب) قد استولي علي معظم المشرق (الشام)، ولم تأتِ سنة ٦٤٠م (وليست ٦٣٨م كما يزعمُ بعض المؤرخين) حتي كان قد انتهي القائد العربي عمرو بن العاصي من الاستيلاء علي منطقة مصر (القديمة) بالحيلة والخديعة!!

+ + +

الفصل الواحد والثلاثون

الغـــزو الاســـلامي لـــمصر

(٦٤٠م=٣٥٦ش=١٨هـ)

+ عندما بدأ العرب في الهجوم علي مصر (٦٤٠م) كان المصريون في ضيق شديد من الحكومة البيزنطية،التي كانت قد استردّت مصر من الاحتلال الفارسي (٦٣٠م). وكان حكام الأقاليم يستولون علي الضرائب، التي كانت تتقاضاها دولة الروم. وكانت قد ضعُفت بحيث استقل بعض الحُكام بولاياتهم.

+ وكان هرقل قد فشل في فرض سُلطته علي مصر، إذ لم يمل المصريون إلي مشروعه الديني، الذي كان يهدف منه إلي استمالتهم بواسطة الدين، ويرفع من بينهم الاختلاف المذهبي، الذي كان السبب القوي في تلك القلاقل والاضطرابات.

+ ولم يحسب الامبراطور للبابا بنيامين أدني حساب. بل اضطهده وأغاظه.

ثم نفاه لعدم قبول رأيه في الاتحاد، فكرهه الشعب القبطي. كما كان بعض الحُكام المصريين يريدون آن يستقلوا عن الروم.

+ ومن هؤلاء الخائنين لمصر وأشنعهم ذنباً ولؤماً «**المقوقس**». ومازال كثيرون يبحثون عن ماهية اسمه ووظيفته وجنسيته. وقد تم العثور علي أوراق من البردي تُزيح الستار عنه!

+ وذكر معظم المؤرخين أن كلمة «**المقوقس**» لقب أو رُتبة. والحقيقة أنه كان والياً واسمه جرجس بن مينا بركوبوس. وهو مصري في رآي الكاتبة!!

+ وكان ولاة مصر - في ذلك العهد - ليسوا عسكريين، ويتولون الأمن وتحصيل الضرائب وحفر الترع وصك النقود، وضبط المكاييل والمقاييس والموازين، ولكن كان الجيش خارجاً عن سلطة المقوقس، وكان في كل مديرية حامية قليلة العدد، وبها جماعة من الكهنة. وكانوا أقويٌ من الوالي والجيش معاً (في هيبتهم).

+ ومعلوم أن الحكومة كانت تستخدم اللغة اليونانية. وكان الحُكَّام يضعون في أوائل اسمائهم كلمة «مقوقس» التي تعني المعظم آو الأفخم. كما يقولون: جناب، آو المحترم، آو سعادة فلان .... الخ.

+ وقد ظنها العرب جزءاً من اسم حاكم مصر. وظل الشرير (المُقوَقس) هو الحاكم من قِبَل الروم عند الغزو العربي للبلاد.

+ **ونذكر ظروف البلاد المصرية في تلك المرحلة كالآتي:**

+ فقد كان «**آمون مينا**» والياً للوجه البحري، ولا نعرف عنه سوي أنه كاتباً جاهلاً متغطرساً يكره المصريين، ولذلك بقي في وظيفته بعد استيلاء العرب علي مصر!!

+ والثاني هو «**كيروس**» (Cyrus) حاكم مصر الوسطي (بني سويف والمنيا) وكان كل اهتمامه تسليم مصر للمسلمين.

+ والثالث هو «**جرجس**» الذي يدعونه العرب «**المقوقس**»[1] (عظيم القبط) وهو والي الوجه القبلي بما فيه بابيلون (مصر القديمة) التي اتخذها عاصمة له!!

+ وكان في كل هذه الولايات الثلاثة قائد عسكري وله حامية بيزنطية.

+ ثم وُجِد نظام - ربما بعد الاحتلال العربي بقليل - قضي بتعيين حَاكمين أقل سلطة من أولئك الحكام الثلاثة السابقين، والأول يُدعي فيلوكسينوس، لإقليم الفيوم، وآخر يُدعي شنودة للريف!!

+ ومن المؤكد أن ثلاثة من هؤلاء الولاة كانوا مصريين، كما يُستَدل من أسمائهم المصرية (آمون مينا، وجرجس مينا، وشنودة) ولكنهم لم يكونوا أعضاءً في الكنيسة الوطنية، التي تُسمي الآن «**القبطية**»[2] وكانوا تابعين للكنيسة الرومية (البيزنطية = الملكانية) وإلا فلم يُمكِن تعيينهم في هذه الوظائف الكبري والإدارية الهامة.

+ والذين قالوا إن المقوقس جرجس مصري مصيبون في قولهم، ولكنهم

---

(١) هناك رأي شائع بأن **المقوقس** هو نفسه **قيرس**،. وقيل إنه هو الحاكم السياسي والديني لمصر قبل الغزو العربي.

(٢) كان للمدن المصرية القديمة إسمان: مدني وديني. مثل «ممفيس» (منف = البدرشين بالجيزة) واسمها الديني «هاكابتاح» .بلد الإله بتاح» وحرّفه اليونانيون إلي «أجويتوس» (Egyptos) وأطلقوه علي القطر المصري كله، ومنها حرّف العرب إسم Egypt إلي قبطي، وجمعها قبط وأقباط (**هامش أصلي**)

مخطئون في نسبتهم إياه للكنيسة القبطية، لأنه كان رومي المذهب. وعلي أية حال، فقد خان عهده إلي الكنيسة وللإمبراطور ولمصر!!

+ وعندما هاجم العرب مصر كان جرجس هذا (المقوقس) قد مضي عليه زمن طويل في وظيفته (كحاكم للصعيد)، مما جعله قوي الكلمة، خصوصاً وأنه كان مقيماً في حصن بابيلون، علي أطراف ولايته من الشمال.

+ ونظراً لضعف السلطة البيزنطية في قبضتها علي مصر، فكان يستولي علي الضرائب لنفسه. فلما طالبه هرقل، بعد استرداد مصر من قبضة الفُرس، لهذا السبب - ولأسباب سياسية آخري - أرسل المقوس وفداً إلي زعيم المسلمين محمد، وزوّده بهدايا من عسل النحل وعدد من العبيد.

+ وكان المقوقس يترقب أخبار الحرب بين هرقل والعرب. وهو يناجي نفسه بأنه سيكون مع الغالب، فلما أنتصر هرقل - أولاً - علي العرب تقرّب اليه بأن يُزوّج إبنته «أرمانوسة» بقسطنطين إبن هرقل الاكبر ووريثه، وكان حاكماً لقيصرية، ودفع له مهراً كبيراً، جعل هذا الأمير يقبل طلبه ويتنازل عن المتأخرات الباقية من ضرائب مصر، التي لم يدفعها المقوقس لخزينة الامبراطورية.

+ ولما سارت العروس في موكب إلي حدود مصر، سمعت أن العرب حاصروا قيصرية ـ وهم يستعدون لحصار مصر ـ عادت وشجعت السكان للدفاع عن مصر.

+ ولما وصل عمرو بن العاص إلي بلبيس وحاصرها لمدة شهر وقفت أرمانوسة مع بعض القوات، وهي تصدهم وتخترق صفوفهم بشجاعة،

وأخيراً انهزمت أرمانوسة، لأن قواتها كانت من الفلاحين الذين جمعتهم من الحقول لقتال العرب، بدون تدريب.

+ ووقعت آرمانوسة أسيرة في يد ابن العاصي، فأرسلها إلي أبيها باحترام، لأنه كان يعلم أنه مع العرب!!

+ وكان حصن بابيلون شديد التحصين. وكان قريباً من نهر النيل – أكثر من الوقت الحاضر – وكان متصلاً مع (جزيرة) منيل الروضة بواسطة كوبري من المراكب، ومنها للجيزة بقوارب يستخدمها العسكريون.

+ ولما عرف الأمبراطور هرقل بحصار العرب لمصر، وكان يعلم ضعف مركزه فيها وعدم ميل سكانها اليه، أرسل له مندوبه، وهو البطريرك كيروس (Cyrus) ليفاوض عُمراً علي الانسحاب من مصر، نظير مبلغ من المال.

+ وعندما جاء إلي مصر عرض علي ابن العاصي أمر المال وأن يُزوَج ايدوشيا إبنة الامبراطور – أو أحدي الأميرات الروميات – بالخليفة عمر إبن الخطاب. ولكن الداهية – ابن العاصي – لم يقبل العرض، لأنه كان قد اتفق مع جرجس (المقوقس) علي أحتلال مصر .

+ ولما دام حصار بابيلون ٧ أشهر، أرسل إبن العاصي يطلب مدداً من الخليفة عمر بن الخطاب. فلما وصلت القوات العربية أرسلها ابن العاصي للفيوم، بهدف قطع الإمدادات عن جيش الامبراطور هرقل.

+ ووقف الاقباط ينظرون إلي معارك الطرفين الأجنبيين بحيرة وذهول. فقد كان بُغضهم للرومان والبيزنطيون قد منعهم من الوقوف الي جانبهم. ولم

تسمح ضمائرهم بالانضمام لقوم لا يدينون بدينهم، وأنهم ربما يذيقونهم العذاب مثل سابقيهم[١].

+ وقد اتفق المؤرخون علي أن حصن بابيلون قد سقط في أيدي المسلمين بالخديعة. ولم يستولوا عليه بحرب ولا بضرب، بل بتسليم واستسلام. فقد أقنع المقوقس جرجس قائد الجيش البيزنطي بالانسحاب من القلعة إلي منيل الروضة، فجاء العرب - بناء علي إشارة من جرجس - واحتلوها.

+ وأما كون جرجس أنه كان متحداً مع العرب وأنه اخطرهم بتحركات الجيش البيزنطي، فهو أمر صحيح للأسف (في نظر الكاتبة)!!

+ وكان ابن العاصي قد قسّم قواته إلي مجموعات. وذكر المؤرخ المدقق الأسقف **يوحنا النقيوسي** (القبطي)[٢] بأن ابن العاصي خدع الرومان بأن تظاهر بالتقهقر حتي يخرج الجنود من القلعة. فانخدعوا بحيلته، وأسرعوا وراء قواته، فأحاطت قواته بالرومان، واستبسل الجنود في المعركة. ولم يبقّ في حصن بابيلون سوي ٣٠٠ مقاتل فقط. فاتفقوا مع العرب علي تسليم القلعة دون قتال. وعلي أن يلحقوا بباقي الجيش الرومي المتقهقر عند جزيرة الروضة.

+ وقد أشترط المقوقس من بين الشروط - في الصُلح مع العرب - أن يُخوَّل ابن العاصي الحرية الدينية للأقباط إذا هم دفعوا الجزية. ولم يقاوموا العرب في احتلالهم لمصر.

---

(١) وهو حق، فالزعم بأن الأقباط ساعدوا العرب كلام يدعو للسُخرية.

(٢) للمزيد من التفاصيل عن غزوة العرب لمصر راجع كتاب النقيوسي (Jean de Nikiou, Histoire Eccles.) وكان معاصراً للأحداث.

+ ولما علم دومتيانوس القائد الرومي للفيوم، أسرَع بالهرب بقواته نحو الاسكندرية. ولم يقبل الانضمام لبقية الجيش الذي سار إلي نيقيوس (ابشادي مركز تلا بالمنوفية). فأسرع جيش ابن العاصي، وراءهم، وبعدما فر قائدهم تم ذبح الباقي، بعدما حاصرهم العرب. ولم ينجُ من هذه الكتيبة سوي جندي واحد - يُدعي زخاري - هرب بأعجوبة.

+ أما باقي الجنود فقد كانوا يحاربون ثم يسيرون إلي آن وصلوا إلي بلدة كريون (بمركز كفر الدوار بالبحيرة)، حيث حاربوا وانهزموا. فهربوا للإسكندرية، للدفاع عنها.

+ وأنتشر المسلمون في وجه بحري وآخذوا يسلبون وينهبون ويهتكون الأعراض، كما وصفه المؤرخ يوحنا النقيوسي (المعاصر للأحداث)، ولم يقف ضدهم سوي إثنين من أشرف الأقباط هما: مينا وقزمان. جمَعا مجموعة - غير مدربة- علي القتال وشنّا غارات علي كل أجنبي معتدٍ، سواء كان رومياً أو عربياً. فأوقفا عدوانهم قليلاً.

+ وأخذ ابن العاصي جزءاً من جيشه، قاصداً نحو الاسكندرية، تاركاً حامية عربية في بابيلون. وعند نيقيوس قتل العرب سكانها، مع أنهم لم يُبدُوا مقاومة ولم يستخدموا سلاحاً، فقتلوا كل ما وجدوا في الشوارع أو في الكنائس، ولم يترك ابن العاصي إمرأة أو صبياً أو شيخاً إلا وذبحه(١)!!

(١) يُحكي أنه لما أراد ابن العاصي الذهاب للإسكندرية، وأمر جنوده بنقل خيامهم، أخبره بعضهم بأن يمامتين قد عمِلَتا عُشاً فوق خيمته مع فراخهما، فأمر بترك الخيمة مكانها، حتي عاد من الإسكندرية، وقد تباهي المؤرخون العرب بتلك الشفقة، ونسوا تسجيل قسوته في ذبح أهل بلدة نيقيوس، الذين كانوا أوليّ بالإهتمام بالرحمة والشفقة من اليمام (**هامش أصلي**).

+ ولما علم هرقل بتقدّم المسلمين نحو الإسكندرية أرسل كيروس البطريرك ليجمع شتات السكان المتخاصمين والمتحاربين، والعدو يحيط بأسوار المدينة من الخارج!!

+ وساء القائد تادرس هذا العداء. وعمل علي فض الخلاف بين المصريين والروم، وقام بتجريد القائد دومتيانوس من رتبته ووظيفته، واعتمد علي المؤن من جهة البحر. ولذلك صمدت المدينة للحصار العربي لمدة سنة.

+ وكانوا يتوقعون وصول قوات من القسطنطنية، ولكنها كانت قد بلغت من التخبِّط والارتباك ما لا يساعدها علي استرداد مصر، علاوة علي مرض هرقل، الذي قضي عليه في شهر فبراير سنة ٦٤١م، وتولي ابنه الضعيف **قسطنطين** حكم الامبراطورية!!

+ ولما حدثت معركة كُبري بين الروم والعرب عند أبواب الإسكندرية، تم أسرُ ابن العاصي وأحد قواده وخادمه فيها. وتكلم معهم تادرس القائد دون أن يعرف شخصيتهم ووظائفهم، وأثناء الحوار بدرت من إبن العاصي بادرة كادت تكشف عن شخصيته، لولا أن عبده تنبه لذلك وصفع إبن العاصي علي وجهه، طالباً منه أن يسكت، ولا يتكلم بكلمة أمام أسياده، لأنه من أصغر الجنود، وأعلن القائد أنه سيعرض الأمر علي ابن العاصي عند رجوعهم اليه. وبهذه الخدعة لم يقع ابن العاصي في يدهم. فلما خرج ابن العاصي إلي جنوده هللوا لنجاته، وأدرك الروم أنهم أضاعوا فرصة ثمينة لصيد القائد!!

+ ولم يتوقف الروم عن مقاومة المسلمين وقتالهم، حتي أوشكوا أن يبعدوهم عن الإسكندرية، ويردوهم علي أعقابهم، إذ لم يكن ابن العاصي علي علم تام بما يجب عمله في الحصار، ولكن الخوف قاد الروم إلي التفاوض علي الصُلح، والخروج من أرض مصر!!

+ ويذكر المؤرخ يوحنا النقيوسي شروط معاهدة الصُلح، وتشمل منح العرب للروم هدنة لمدة ١١ شهراً، ليستطيع فيها كل رومي مُبارَحة مصر إذا شاء، بشرط دفع الفدية للمسلمين. وأن يدفع الذين يبغون الاقامة بمصر الجزية - مثل المصريين - وأن يغادر الجيش الرومي البلاد بكل معداته وأسلحته، بشرط أن لا يعود يدخل في حرب أو في سلم. وأخذ العرب مائة رجل رهينة، لاتمام هذه الشروط ٥٠ من ضباط الجيش. و٥٠ من وجهاء الروم.

+ وتعهد المسلمون بعدم اغتصاب كنائس الروم، وعدم التدُّخل في أمور دينهم. وصرحوا لليهود بالاقامة بالإسكندرية، لإنهم جمعوا الجزء الاكبر من المال الذي دفعه الروم للمسلمين. وهو بلا شك ذكاء ومكر من الحُكام الجُدد!!

+ فلما اتفق قيرس مع إبن العاصي، اختلف سكان الإسكندرية علي تلك الشروط، فأرسلوا وفداً لعرضها علي الامبراطور قسطنطين بن هرقل، ولكن إبن العاصي فاجأ السكان بدخوله. مما أرعبهم، ولكن قيرس أوقف غضبهم. وكان من نتيجة ذلك أن ساهموا في دفع الفدية المطلوبة عن الروم، مما يدل علي طيبة قلوب الأقباط.

+ وعلي هذه الصورة المخزنة وضعت مصر علي عنقها - بيدها - النير الاسلامي، منذ بدء شهر ديسمبر سنة ٦٤١م، ولم تقدر أن ترفعه حتي العصر الحاضر، فحكمها العرب والشراكسة (المماليك) والاتراك، الذين قضوا علي علومها وصناعاتها وفنونها وتمدنها وديانتها. وأنحدر سكانها حتي بلغوا الآن (في عصر الكاتبة في أواخر القرن ١٩) تسعة ملايين منهم فقط سبعمائة آلف قبطي، (بينما كانوا آكثر من عشرين مليوناً عند الاحتلال العربي) ولا شك فإنهم هم وحدهم سلالة المصريين القُدماء العظماء. وهؤلاء الاقباط المسيحيون قد أبقتهم العناية الإلهية «**وهي معجزة حقيقية**»، بعد اضطهاد شديد، استمر ١٩ قرناً، من ظلمٍ يهول، وعذابٍ شرَحه يطول!!

الفصل الثاني والثلاثون

المسلمـــون فـــي مـــصر

(٦٤٣م - ٣٥٨ش = ٣٠هـ)

+ قضت مصر سنوات طويلة جداً، وهي تدخل تحت حُكم دولة لتدخل تحت سلطة دولة أخري استعمارية. وتدين حكومتها بدينها، إلي أن تجيء أمة جديدة - وبدين جديد - فتتمسك به، وتحاول أن تفرضه علي المصريين (الأقباط) بالقوة!!

+ فقبل التاريخ المسيحي تركت مصر حكم البطالمة (خلفاء الإسكندر الاكبر) ودخلت تحت عبودية الرومان، ثم البيزنطيين، الذين فرضوا الفكر الخلقيدوني المنحرف منذ عام ٤٥١م، وحتي الاحتلال العربي (٦٤١م).

+ ولكن الكنيسة القبطية (الارثوذكسية) **ظلت محافظة علي مبادئها الروحية ولم تعرف رئيساً غير بابا الإسكندرية. ولم تتبع مذهبا سوي ما ورثته عن الآباء والأجداد. من القديسين والشهداء.**

+ ومنذ دخل المسلمون مصر أصبحت ديانة الحكومة الدين الاسلامي. الذي مد سطوته إلي معظم الأمة المصرية الحالية، ولا يزال يوجد سبعمائة ألف (في زمان الكاتبة) رُكْبة لم تجثُ لبعل (١ مل ١٩:١٨) ولا يزالون يُفاخرُون بكنيستهم القبطية[١].

+ وقد زعم البعض أن أكثر العلوم دخلت أوربا بواسطة العرب، وإن صح هذا القول، فلا يؤخذ دليلاً علي أن العرب قد جاءوا بهذه المعارف من عندهم، وإنما من الدول التي سيطرّوا عليها (مثل مصر) والدول التي اتصلوا بها (كالسُريان والفُرس والهنود والإغريق).

---

(١) يبلغ عددهم - في بداية القرن ٢١ - نحو ١٥ مليوناً.

+ كما أن الذين نقلوها (ترجموها) للعرب كانوا من الأمم، كما أن الذين أدخلوا بعض الفنون الهندسية والحِرَف - إلي العالم العربي - في القرون من ١٠ - ١٢م من اليونان والأرمن والشراكسة. وقيل إن أسماء اكثر العلوم عربية. ولكن ثبت علمياً أنها هي مصرية أو يونانية، مثل كلمة «كيمياء» من الاسم القبطي «كيمي» (تراب أسود) وهو الاسم الخاص بأرض مصر.

+ وكان الأطباء والمهندسون والمعماريون وأرباب الصناعة والفنون الجميلة من الأقباط، ولا تزال الحكومة المصرية تثق بمهارتهم وأمانتهم وتضعهم في الوظائف الهامة التي تحتاج الي استقامة، وجد يشتهر به الأقباط.

+ وقد كان أحد علماء الإسكندرية المدعو «يوحنا فيلوبومس» قد سمع أن القائد العربي (إبن العاصي) يريد حرق مكتبة الإسكندرية، فذهب إليه يوحنا ورجاه أن يسلمه كتبها، فظنه ابن العاصي معتوهاً، لأنه يبحث عن رقوق قديمة، فاستشار عمر بن الخطاب، حيث ذكر له الخليفة: «أنه إذا كانت هذه الكتب لا تحتوي علي شيء غير موجود في القرآن فهي كعدمها، وإن كانت تُنافي ماجاء به القرآن فهي ضارة، ولا يجب حفظها. إذن في كلتا الحالتين يجب حرقها».

+ وقد استخدمت هذه الذخائر العلمية العظيمة وقوداً لحمامات الإسكندرية لمدة ستة شهور بأكملها[1]!!

---

(١) إذا كانت مكتبة الإسكندرية القديمة قد أحرقها أغسطس قيصر، خلال الحرب عند الاستيلاء علي مصر (٣٠ ق.م) لكن أُعيد تجديدها، بعد نقل مكتبة برغامس من آسيا الصُغري إليها، (هدية لكيليوبترا) فصارت أشهر وأكبر وأنفع من الأولي (**هامش أصلي**).

+ وخلال وجود ابن العاصي في الاسكندرية، جاء اليه كثير من رهبان وادي النطرون. وطالبوه بإعطائهم الحرية الدينية والشخصية وإعادة بطريركهم الأنبا بنيامين من منفاه (من مكان اختبائه).

+ ولما أدرك ابن العاصي أهمية مهادنة الأقباط، منح الرهبان ما يطلبون وطالب بعودة البابا إلي كرسيه، حيث استقبله شعبه بالفرح والسرور.

+ أما البطريرك الروماني قيرس، فقد أصابه المرض، ومات كمداً (قيل إنه أنتحر). أما خليفته بطرس (الرومي)، فلما عرف أن البابا القبطي بنيامين (البطريرك ٣٨) هو الصاحب الوحيد للسُلطة الدينية في مصر، لم يعجبه البقاء بها، فرحل مع الروم المهاجرين إلي القسطنطنية. وظل الكرسي الأسقفي الرومي شاغراً، لمدة ٦٠ سنة، بعد موت بطرس الرومي المذكور.

+ ولما استولي العرب علي مصر، وكانت «**بنتابوليس**» (المدن الخمس الغربية بليبيا) تابعة للحُكم المصري (منذ عهد البطالمة) فقد انفصلت عنها. فأرسل لها إبن العاصي جيشاً لم يستطع اخضاعها، بل أكتفي بالاستيلاء علي غنائم وعبيد منها(١).

+ وجاء ابن العاصي، وانشأ مدينة جديدة (= الفسطاط) له ولأتباعه. شمالي بابيلون (مصر القديمة) {وشيدً بها مسجده الموجود للآن}.

+ ورغم أنه كان من الخشونة لكنه كان داهية في سياسته، فقد أبعد رجاله

---

(٢) للمزيد من هذه الحملة ونتائجها الصحيحة، راجع كتابنا«تاريخ كنيسة الخمس المدن الغربية» (طبع مطرانية البحيرة سنة ١٩٨٧م).

عن السكان، ولم يُعيّن واحداً منهم للإدارة والحكم، حتي لا ينفر المصريون منهم، وحتي لا يعيشون في إسراف وترف مُتلِف.

+ فأقام الولاة والحكام من الأقباط. واهتم بجمع الأموال منهم. ومن دهائه أنه ترك الحرية الدينية للمصريين والروم، وتظاهر بعدم الظلم علناً.

+ وأمر بترميم مقاييس النيل من جزيرة فيله (أسوان) إلي الروضة (بمصر القديمة) وتطهير ترعة تراجان وتوسيعها (الخليج المصري، الذي تم ردمه داخل القاهرة سنة ١٨٩٧، لأسباب صحية) وأقام قضاة مصريين، وأختص القضاة المسلمون بتطبيق الشريعة الاسلامية علي المسلمين فقط، ولكنه أخذ أعمدة مسجده من أعمدة الكنائس القديمة، وهو للأسف ما سار عليه خلفاؤه من بعده، في بناء جوامعهم!!

+ وبعد اغتيال الخليفة عُمر بن الخطاب، وتولي بعده عثمان بن عفان، استدعي ابن العاصي، وعيّن بدله «**عبد الله بن سعد**» (أخاه في الرضاعة) سنة ٦٤٧م (٢٥ هـ)، ولكنه لم يهتم سوي ببذل الجهد في زيادة الضرائب علي الأقباط.

+ + +

الفصل الثالث والثلاثون
الاستيلاء علي السودان
(٦٥٣م = ٣٦٩ش = ٣١هـ)

+ لم يستطع الرومان أن يُسيطروا علي النوبة، ولكن المسيحية بالحُب تعدت حدود السودان، وأمتدت إلي إثيوبيا، وفي عهد ابن العاصي هاجم العرب الممالك السودانية المسيحية، وعادت قواتهم بالهزيمة سنة ٦٤٣م.

+ وجاء في كتاب «فتوح البلدان» لأحمد الكوفي أن عمر بن الخطاب طلب من إبن العاصي غزو بلاد البرابرة.وأيضاً شمال إفريقية، وأنه جمع من سكان الاسكندرية عشرة آلاف دينار للحملة التي قادها عبد الله بن سعد (الذي تولي بعده) وكان الجنود العرب ينهبون ويقتلون ما تقع عليه أعينهم في الصعيد، فإنهزموا من أهل النوبة.

+ ثم أُرسِلت حملة أخري سنة ٦٥٢م وحاصرت دُنقلة وهدمت كنيستها الكُبري، وتم الاتفاق علي الصُلح، علي أساس إنشاء جامع، وعدم منع المسلمين من السُكني هناك.

+ ومن أشنع ما ورد في تلك المعاهدة خلق **مبدأ تجارة الرقيق**. إذ يجب توريد ضريبة من العبيد مقدارها ٣٦٠ عبداً تُرسل لوالي أسوان لإرسالها للخليفة. وأن يأخذ والي مصر ٤٠ عبداً، مع إرسال والي مصر للنوبة هدايا من القمح والشعير والثياب، وسمح القضاة الشرعيون المسلمون بتجارة الرقيق من السودانيين. وأنه يجوز البيع والشراء منهم.

+ ولما زاد عبد الله من الضرائب، ورأي الخطر ينهدده بالثورة عليه، مضي إلي بلاد العرب، فعزله الخليفة عثمان، وعيّن بدله محمد بن أبي بكر.

+ + +

الفصل الرابع والثلاثون

الوالي عبد العزيز بن مروان الأموي

(٦٦٠م=٤٥٦ش=٤١هـ)

+ لما تولي معاوية بن أبي سُفيان الخلافة في الدولة الأموية،أعاد **عمر بن**

العاصي لحُكم مصر، ولكنه مات بعد سنة، ثم خلفه **عقبة**، أخو معاوية الأصغر، ومات خلال عام. فتعيّن آخر بدله، ثم عُزل حالاً.

+ ثم تولي **مُسيلمة بن مخلد** سنة ٦٦٤م، ومات سنة ٦٨١م، ثم تولي بعده سعيد بن يزيد لمدة ٣ سنوات فقط. وفي عهدهما تمتعت مصر بالسلام، بينما كان المسلمون – في جهات أخري – في حروب أهلية بسبب ميلهم للرئاسة والعجرفة.

+ وقبل تنصيب معاوية تنيّح البابا بنيامين، شيخاً وشبعاناً من الأيام، بعدما عمل علي تشجيع أبنائه علي الثبات في الإيمان، وترميم الأديرة، التي خربها الغزاة ونهبوا ما فيها. وشيد كنيسة باسم القديس مكاريوس الكبير (أنبا مقار المصري).

+ وكان قد أرسل مطراناً جديداً للحبشة، ومعه راهب تقي وقديس يُدعي تكلا هيمانوت، مازال الأحباش (الأثيوبيون) يُجلونه حتي اليوم، ويقولون أنه أول من أوجد الرهبنة في بلادهم.

+ وجلس علي الكرسي المرقسي بعده البابا **أغاثو** (٦٦٢ – ٦٨٠م) الذي سلك مثل سابقه في الخدمة. وكانت مدة رئاسته ١٨ سنة. وقد تضايق من ثيؤدوسيوس الرومي، الذي استمّد سُلطته من الحكم الاسلامي، وضاعف من الضرائب علي الكنيسة القبطية، بدفعِه رشوة للخليفة.

+ ثم أصدر هذا الرومي أمره بألا يبرح البابا دار البطريركية، وإلا حلّ قتله. ولما تنيّح البابا أسرع الشرير بغلق دار البطريركية بالشمع، بدون قانون يسمح له بذلك. فتمت الشكوي القبطية للحاكم، فأمر برفع هذا الظُلم.

+ وبعد وقت قصير مات الشرير، بعدما أوقع الشقاق بين الأقباط والأروام، فانشغل به البابا يوحنا السمنودي (٦٨٠ - ٦٨٩م) ولم يحتفل بوصول الوالي الجديد بالوفد المعتاد إرساله بالهدايا. فانتهز أحد أنسباء ثيؤدوسيوس الشرير، ووشي بالبابا لدي الحاكم بأنه غني، ويجب عليه أن يفرض عليه غرامة مالية لإهماله في لقائه.

+ ففرض عليه الوالي **سعيد بن يزيد** مائة ألف قطعة من الذهب غرامة. فأعلن له البابا أنه لا يملك ولا مائة درهم. فقبض عليه ووضع رجليه فوق نار شديدة اللهب، ولم يبعده عنها إلا بعدما بلغه أن إمرأته أصيبت بمرض صعب، اعتبره قصاصاً له من الله، علي تعذيبه للبطريرك البُري والحَمَل الصامت.

+ ثم طرحه في السجن بالسلاسل في عنقه ويديه ورجليه، وظل محبوساً هكذا حتي تعهد الأقباط بدفع عشرة آلاف قطعة من الذهب فدية عنه. فخرج البابا من السجن يوم خميس العهد، ومضي للكنيسة، حيث غسل أرجل الفقراء، اقتداءً بسيده. ثم تناول من السر الأقدس بعد إتمام صلاة القداس.

+ وقام هذا البابا وسلفه بتجديد وترميم كنيسة مارمرقس بالإسكندرية.

+ وإن استراحت الكنيسة قليلاً، لكن الشعب عاني من الجوع ثلاث سنوات كاملة.

+ وفي سنة ٦٨٣م مات الخليفة يزيد، وخلفه إبنه معاوية الثاني لمدة ٦ أسابيع فقط. وتنازع الخلافة عبد الله بن الزبير، ومروان بن الحكم. ولما نال ابن الزبير الخلافة عينَّ الوالي **عبد الرحمن** حاكماً لمصر. ولكنه سرعان ما هاجمه جيش معاوية ودارت معركة بينهما. وهرب عبد الرحمن.

+ ولما استولي معاوية علي الفسطاط عيّن إبنه «**عبد العزيز**» حاكماً لمصر. وفي نفس اليوم مات ابن العاصي في بيته، فدفنوه **فيه**!

+ واعتبر عبد العزيز البابا القبطي خصمه. وظلم الأقباط بزيادة الضرائب والجزية عليهم. ولما تنيّح البابا يوحنا، أصدر عبد العزيز أمراً يقضي بأن ينتخب الاقباط بطريركهم الجديد في بابيلون بدلاً من الإسكندرية[1].

+ وأختار الأقباط راهباً من دير آبي مقار، إسمه آسحق للكرسي المرقسي (٦٩٠ - ٦٩٢م). وجاءه وفد من إحد ممالك السودان يشرح له عدم وجود عدد كافٍ من الاساقفة للخدمة الدينية. ويطلب تعيين مَنْ يلزم. ولكن ملك المملكة الشمالية - المتاخمة لحدود مصر - كان مسيحياً بالإسم، لأنه أتفق مع المسلمين علي شن غارات علي الممالك الجنوبية للحصول علي العبيد للجزية، وخشي البابا من أرسال أساقفة خوفاً من اغتيالهم بيده.

+ وأوقع الأعداء بين البابا إسحق وبين الوالي عبد العزيز، بزعم أنه كان يتآمر مع ملوك السودان لطرد المسلين من مصر. فأمر الوالي الشرير بالقبض علي البابا لقطع رآسه، ولكن البعض رجوه أن ينتظر حتي يسترجع الجواب المرسل للسودان وينظر في مضمونه.

+ وقام قبطي بتقليد خط البابا، وكتب خطاباً يخلو من الإساءة إلي المسلمين أو يغضبهم. فلما قرأه عبد العزيز عفي عن البطريرك.

---

(١) من ذلك الوقت (٦٩٠ م) حتي القرن ١١م كان يتم انتخاب البطاركة الاقباط في بابيلون. ولكن كانت تتم رسامتهم رسمياً في كنيسة الملائكة بالاسكندرية. وكان البابا يدفع من إيراده الشخصي مبلغاً لتعمير كنائس هذه المدينة (**هامش أصلي**).

+ ولما أنتشر وباء في الفسطاط، قصد عبد العزيز حلوان، وأقام بها. وشيّد بها الجوامع والبساتين والدور، وسمح للمسيحيين ببناء كنيستين بها، لكي يتم رونقها، لأن الكنائس كانت دائماً أحسن الأبنية وأجملها وأكملها. وتم جلب مواد المباني من ممفيس - الواقعة تجاه حلوان - فتركها أنقاضاً وأطلالاً.

+ وبعد نياحة البابا إسحق، تم ترشيح أنبا يوحنا (رئيس دير بوادي النطرون) ولكن كان له تلميذ سرياني يُدعي سيمون، أذا ع أحد الأساقفة بأنه أحق بكرسي البطريركية. فمال عبد العزيز إلي رأيه، وتمت رسامة سيمون، الذي أُختير رغماً عنه (٦٩٢ - ٧٠٠م). وجعل معلمه يوحنا وكيلاً ومرشداً يهتدي برأيه.

+ وتعد الكنيسة البابا سيمون من القديسين، وتنسب اليه كثيراً من المعجزات. وقد ظل زاهداً وحافظاً للرهبنة، فلم يأكل لحماً طوال حياته، واستعان بيوحنا (أسقف) نيقيوس للإشراف علي الأديرة. وكان كاتباً ومؤرخاً مدققاً. وللأسف ضا ع ما كتبه من تاريخ، ولم يُعثر إلا ترجمة لأسقف قبطي بالحبشة، وقال إنه ترجمها للأمهرية سنة ١٥٩٤م، ونقلها عن نسخة عربية غير كاملة(١)!!

+ ولما كان الأسقف يوحنا (النقيوسي) مفتشاً عاماً للأديرة، فقد تعب في هذا العمل، وبالأكثر عندما جلد راهباً فعل الدنس فمات. فهاج الاكليروس، لولا أن تدارك الاساقفة الأمـر. فتم عزله من خدمته وتجريده من درجته ورسامة آخر لأسقفية نيقيوس.

+ وفي أيام البابا سيمون (الأول) ظهرت بدعة الطلاق بدون سبب. تقليداً للمسلمين، فقام قداسته بحرم غير المُطيعين، فرفعوا شكواهم للوالي عبد

---

(١) وتمت ترجمتها إلي اللغة الفرنسية (ed. Zotenberg).

العزيز، الذي أمر بجمع كل أساقفة مصر - علي اختلاف مذاهبهم، لتشكيل مجمع ديني، لإصدار حكم نهائي في هذا الأمر.

+ فاجتمع ٦٤ أسقفاً - أكثرهم من الأقباط - وفيهم من الملكانيين وغيرهم، سنة ٦٩٥م في بابيلون. وخلال مناقشاتهم لهذا الموضوع - بروح بعيدة عن الشقاق - جاءت الأخبار بحدوث ثورة في القسطنطنية. وقامت بخلع الامبراطور يوستنيانوس وتنصيب قائد مكانه هو ليونتيوس.

+ فلما سمع عبد العزيز الوالي بما حدث، ظن أن سلطة الدولة الرومية قد أنحطّت، فقام باضطهاد الكنيسة القبطية ونهب أموال الأقباط، وعاني البابا سيمون من سخطه.

+ وقد جاء كاهن من الهند للبابا سيمون ليرسم لهم أسقفاً، فطلب البابا الحصول علي تصريح من الوالي قبل الرسامة. فلما سمع الأسقف الرومي «تاودروس» ذلك أعتبر طلب البابا القبطي جُبناً، ورسم أسقفاً. وأرسله مع إثنين من الكهنة إلي الهند، ولكن في الطريق قبض عليهم المسلمون بزعم أنهم جواسيس.

+ فأحضروهم أمام الخليفة عبد الملك - في دمشق - وفر القس الهندي. فقطع أيديهم وأرجلهم وأعادهم لمصر، بخطاب فيه لوم لأخيه عبد العزيز. وأمره أن يضرب البطريرك القبطي ٢٠٠ جلدة، وأن يدفع غرامة مالية !! .

+ فاحتج البابا بأنه بريء مما حدث. وسمع الكاهن الهندي بما حدث، فجاء إلي مصر، ليعلن الحقيقة، فصدر الحكم بحبسه، وصدر العفو عن البابا سيمون. وتم شنق الاسقف الرومي تاودروس.

+ وقد ذكر مؤرخو الأقباط أن المسلمين دسوا السُم للبابا سيمون، فمات مسموماً بعدما جلس علي الكرسي المرقسي ١٤ سنة[١].

+ ولم يتجاسر الأساقفة علي أنتخاب خلف له، بل عهدوا إلي غريغوريوس أسقف القيس (بمركز بني مزار) بإدارة أعمال الكنيسة حتي عام ٧٠٣م، حيث أنتخبوا اسكندر الثاني (ألكسندروس)[٢] وهو من رهبان وادي النطرون.

+ وفي أيامه تولي حكم مصر **عصبة بن عبد العزيز**، بعدما أعطاه أبوه الوالي السُلطة. فاستخدم قوته ومواهبه الفاسدة في مضايقة الأقباط واضطهادهم، وساعده في ذلك راهب شرير، أرتد عن الإيمان - كان إسمه بنيامين - وصار صديقاً له، وعلّمه كيف يضغط علي الأقباط.

+ وبدأ بفرض الضرائب علي الرهبان. وأمر بإحصاء عددهم، وأن لا يدخل أحد في الرهبنة إلا بأذن الوالي، كما فرض علي الأساقفة جزية سنوية مقدارها ٢٠٠٠ قطعة من الذهب.

+ ودخل عصبة إلي كنيسة في حلوان - أثناء وجود الأسقف - ونظر إلي صورة للعذراء وهي تحمل طفلها، فبصق عليها، وأقسم بأنه عندما يتولي أمر ولاية مصر - بعد أبيه - فسوف يلاشي الديانة المسيحية ويطمس معالمها!!

+ فلما رجع لأبيه أعلن له عن حلم مريع رآه. وبعده ابتلاه الله بحُمّي قاتلة ذاق فيها العذاب ثم مات. وقد تأثر أبوه برحيله، فمات بعده، بعدما تولي حكم مصر ٢٠ سنة، وفيها عاني الأقباط بشدة من ضرائبه الفادحة.

---

(١) وفي مصدر آخر ٨ سنوات فقط.

(٢) البابا ٤٣ (٧٠٤ - ٧٢٩م).

الفصل الخامس والثلاثون

ظلم ولاة مصر الأمويين الآخــرين

(٧٠٥م=٤٢١ش=٨٦هـ)

+ وتولي حكم مصر عبد الله بن الخليفة عبد الملك بن مروان (الأموي)، وكانت فترة حكمه ظلم يهول وشرح يطول. وكان لا يتناول إلا إذا قطع رأس قبطي - أثناء الأكل - ويفرح بدمائه وهي تسيل أمامه!!

+ وعندما ذهب البابا اسكندر لتقديم التحية له، طرحه في السجن وطلب منه فدية قدرها ٣٠٠٠ قطعة من الذهب.

+ ونظراً لأن الحُكام العرب كانوا في مُنتهي الجهل، فقد كانوا يستعينون بالاقباط في كل أعمال الحكومة، رغم بغضهم لهم.

+ وقد أفرجوا عن البابا بضمان شماس (deacon) إسمه جرجس، تعهَّد بسداد المبلغ المطلوب خلال شهرين، ولم يكن لدي هذا البابا المسكين من سبيل سوي طلب المال من رعاياه في الوجه البحري. فجمع المبلغ المطلوب. مما عدَّه عبد الله دليلاً علي حُسْن حال الأقباط وثرائهم. فضاعف الضريبة السنوية عليهم ثلاثة أضعاف، كما أضطهدهم بشدة، حتي اضطر كثيرون لاعتناق الاسلام رغماً عنهم!!

+ وقد مات كثيرون في سبيل إيمانهم شهداءً للمسيح. ولم تكن الحكومة تسمح بدفن أجسادهم إلا بعد دفع أهلهم أتاوة مالية!! وهاجر كثيرون من مصر، وآخرون ماتوا من الجوع. وتم هدم الكنائس. وتعطلت العبادة بدون مبرر لهذا الظلم الشديد.

+ وخَلَفه **قرة بن شريك**. وكان ظالماً مثل سلفه، فاضطهد الأقباط اضطهاداً

شديداً. وطلب من البابا دفع نفس الغرامة السابقة، فاعتذر بأنه جمع المبلغ الأول بالتسوُّل، فطلب منه أن يجمعه من أقباط وجه قبلي.

+ فسار قداسته الي الصعيد - مع سكرتيره، وأمين صندوقه - فكان الشعب يقابله بالترحيب والتهليل، ويعطونه ما لديهم، فتركهما البابا يجمعان المال، وسار نحو السودان.

+ وحدث أن طلب ناسك - في الصعيد - من تلميذيه أن يُقيما له صومعة (قلاية) فوجدا خمسة صناديق مملوءة بالعُملة الذهبية اليونانية القديمة، أثناء حفر الأساس. فأرشدهما شيطان محبة المال إلي إخفاء صندوق، وإظهار الأربعة للناسك. فأعلن أن الله أرسل المال في الوقت المناسب، وطلب إرساله للبابا، الذي لم يكن قد عاد بعد من الجنوب، فسلّمها التليمذان لسكرتير البابا وإلي أمين الصندوق، فأخذاها وأخفياها.

+ وانكشف الأمر للوالي فعزَّب الشخصين الغير حكيمين. وتم استلام الأربعة صناديق، كما شن غارة علي الكنيسة الكُبري والبطريركية بالإسكندرية. بحثاً عن المزيد من الكنوز الذهبية!!

+ ثم ألقي القبض علي البابا ووضع السلسلة في عنقه، بزعم أنه كذب عليه، وظل المسكين - سنتين كاملتين - يسعي ويستعطي حتي جمع المبلغ المطلوب. فظن الوالي الظالم بأن في البطريركية داراً لصك النقود، فأرسل مجموعة من الجند، فلم يجدوا شيئاً، فجلدوا البابا بالسياط حتي سال دمه، وأخذوا جميع أواني الكنائس. فلما حل موعد عيد القيامة صلي البابا القداس باستخدام كأس من الزجاج وصينية من الخشب!!

+ ولم يّر الاقباط راحة إلا بعدما عينت الحكومة قبطياً لجمع الضرائب منهم، وبذلك استراح البابا قليلاً. وأفتقد شعبه، مُعزياً ومُواسياً.

+ وقبل أن يتوقف ابن شريك عن اضطهاد الأقباط، وجد بعضهم يهاجرون بإيمانهم - من الظلم - فعيّن أحد الضباط لمنع الهجرة خارج مصر، وقتل كل مَنْ يشرع فيها.

+ وأشتد وباء الطاعون علي مصر، وقصف عُمر الوالي الظالم.

+ والوالي الذي تلاه لم يمكث في الحكم سوي ثلاثة أشهر فقط، خرَّب فيها أكثر كنائس الإسكندرية. وتم أخذ الحجارة والرخام والمرمر للجوامع.

+ ولما تولي **عصامة بن يزيد**، فرض اضطهاداً أشد علي الأقباط. وزاد الضرائب المفروضة علي الرهبان، وأمر باعطاء كل راهب - يدفع الأتاوة - قطعة من الحديد مكتوب عليها اسم ديره وسنة دفع الجزية ويلبسها علي يده اليُمني، سواء في الدير أو خارجه، ومن يخلعها تُقطع رأسه أو يُجلد حتي الموت!!

+ ومن وسائل تعذيبه للأقباط قطع أنوفهم وقلع عيونهم وآذانهم وأيديهم، وبتر أعضاء أخري. ثم يميتهم، ويضم أملاكهم لماله الخاص، دون أن يرتكبوا ذنباً، سوي التمسُّك بإيمانهم. وقد تقبلُّوا الألم من أجل المسيح بفرح.

+ وقد كَثُر المهاجرون من الأقباط، رغم منعهم وتهديدهم بالموت إذا هاجروا، وأصدر عصامة أمراً بأن يأخذ القبطي «جواز سفر» قبل مبارحة مصر، أو حتي عند التُّنقل من بلدة لأخري داخلها. وأن يدفع القبطي مقابل ذلك عشرة دنانير. ومن خالف ذلك تُقطع يداه الإثنتان!!

+ وقد اشترت سيدة جوازين - لها ولإبنها - ولكن تمساحاً ابتلع الصبي في النيل ومعه تصريحي السفر. فمع شدة حزنها علي فقيدها، اضطرت إلي تسوُّل ثمن جواز جديد، وإلا أضاعت حياتها هي الأخري!!

+ وكادت تقوم ثورة في مصر بسبب هذه المظالم، لولا أن مات الخليفة

سليمان بن عبد الملك أخو الوليد، وخَلَفه (الخليفة الأموي) عمر بن عبد العزيز. فسجن الوالي الظالم، وأماته في السجن أشنع ميتة سنة ٧١٧م، وعين بدلاً منه الوالي **أيوب بن شرحبيل**.

+ وتوّقف الاضطهاد مدة خلافه عُمر التي دامت سنتين، وتعيّن بعده يزيد بن عبد الملك (الأموي)، الذي عزل أيوب، وولي بدله **بشر بن صفوان**، وأمره أن يُخيّر أقباط مصر - وغيرهم - بين أمرين هما: إما أن يعتنقوا الاسلام، وإما أن يتركوا مصر وكل ما يمتلكوه فيها!!

+ ففضل الاقباط الهجرة، وأعتبروها فرصة للهرب من وجه الظلم. فخلت مديريات من السكان، وتم هدم الكنائس، أو أبقوا علي بعضها، بعدما أزالوا منها الصور والأيقونات، وغيروا معالمها، وجعلوها مساجد لهم.

+ وتوالي علي حكم مصر ولاة كثيرون، انحصرت أعمالهم في تعذيب الأقباط، وسلب أموالهم وهتك أعراضهم. وظلوا علي قسوتهم، حتي تولي حكم مصر **الحسن بن يوسف**، ومعه جابي ضرائب قاسي القلب يُسمي «**عُبيد الله**».

+ ولما طفح الكيل ثار الأقباط سنة ٧٢٥م في مديرية الشرقية. ولم يقفوا طويلاً أمام جبروت أعدائهم، لعدم درايتهم بالحرب، ولكنهم ظلوا صامدين حتي ذبحهم المسلمون عن آخرهم، كما شهد بذلك المؤرخون العرب، وأعلنوا صراحة أن المسلمين «قتلوا خلقاً لا يُحصي من الأقباط».

+ ولما خفت حدّة الثورة، دعا الوالي البابا اسكندر للقائه. ولما علم قداسته بما سيترتب علي هذا اللقاء، فرَّ مع جامول أسقف أوسيم (الجيزة). ولما

وصلا إلي مريوط أصاب البابا مرض أراحه من عذاب الاضطهاد.
وصعدت روحه للسماء {«من وجه الشر يُضَمّ الصدّيق» (إش ٥٧)}.

+ وتقرر القبض علي أسقف أوسيم. فقبض عليه أعوان الوالي، فطلب منه ألف قطعة من الفضة، فلم يقدر علي دفعها، فجلدوه وطافوا به شوارع وأزقة الفسطاط وبابيلون، وظلوا يضربونه إلي أن وصلوا لكنيسة «مارجرجس» بمصر القديمة، حيث ربطوه علي بابها، وضربوه بالسياط.
فجمع له الأقباط ٣٠٠ قطعة من الذهب، وخلّصوه من أيدي القُسَاة.

+ وقد لفتت الثورة نظر الخليفة الي ظلم واليه فعزله. واستراح الأقباط فترة رئاسة البابا قزما (قزمان) التي استمرت فترة قليلة (٧٢٩ – ٧٣٠م) وحصل الأقباط علي تصريح ببناء كنيسة مارمينا – بمصر القديمة – فغضب المسلمون، ولم يُرضهم إعفاء الأقباط من الاضطهاد. فابتلي الله البلاد بضربتين أسكتتا هؤلاء المُتعصبين، وهما الوباء والمجاعة، اللذان أفنيا عشرات الألوف من السكان.

+ كما جاءت نكبة ثالثة عندما هاجرت بعض قبائل إلي مصر، وبلغ عددهم أكثر من ثلاثين الفاً. فأسكنهم الوالي عبد الرحمن بن خالد عند الجبل الواقع عند الفسطاط. وترك لهم حرية نهب وسلب ما تصل اليه أيديهم!!

+ ومات هذا الوالي. وقيل إن الخليفة الأموي هشام بن الملك عزله، وولي بدلاً منه **حنظلة بن صفوان**، وهي ثاني ولاية له علي مصر، فضاعف الضرائب، وكوي الأقباط بعلامة بالنار.

+ وتنيّح البابا تاودروس (٧٣٠ – ٧٤٢م) فلم ينتخب الأقباط غيره، بسبب وجود شقاق بين إكليروس الإسكندرية وغيرهم. في اختيار المرشح.

+ وسعي الروم لإعادة كنيستهم بمصر، بعد هروب أسقفهم بطرس - منذ ٦٠ سنة - وكانت قد أنحطت، حتي أنهم لم يجدوا رجلاً يرسمونه سوي خياط يُسمَّي قزما. وكان أمياً، فلما تمت رسامته آرسل وفداً إلي الخليفة هشام (في دمشق) يشكو الأقباط بأنهم آستولوا علي كنيسته عند الغزو الاسلامي، وزعم أيضاً أنهم لقبُّوا أنفسهم «**بالكنيسة الوطنية**» وهو لقب لا يحل لهم حمله، في مذهب هذا البطريرك!!

+ والواقع أن ما حدث للكنيسة الرومية في مصر. كان سببه فرار بطريركهم بطرس، وليس استيلاء البابا بنيامين علي إيراداتهم ومقتنياتهم ووطنيتهم وأولوليتهم في السيطرة علي الكنائس المصرية.

+ وكانت تلك هي فرصة للخليفة هشام ليحارب بها الآقباط، الذين عصوا عليه. فأكرم قزما الرومي، وآصدر آمره لوالي مصر بوضع كل كنائس البلاد المصرية - وكل متعلقاتها - تحت أمر البطريرك الدخيل والجاهل.

+ ولم يستطع الوالي أخذ كل الكنائس القبطية، بل أعطي أهمها للأروام ومنها الكنيسة القيصرية الكُبري وكنيسة الملائكة - بالإسكندرية - والتي بناها الاقباط.

+ كما بقي الكرسي المرقسي بدون بطريرك، لأن الوالي المسلم طلب مبلغاً لم يكن في مقدور الاقباط دفعه، لاعطائهم تصريحاً برسامة بابا جديد.

+ ولما زاد ظلم حنظلة نقله الخليفة هشام إلي شمال افريقية، وولي بدلاً منه **حفص بن الوليد**. فسمح للأساقفة الاقباط بالاجتماع في بابيلون لانتخاب البابا الجديد، ولكن ظل الخلاف بين إكليروس الإسكندرية، وأساقفة البلاد، فرفعوا الأمر إلي موسي أسقف أوسيم.

+ + +

الفصل السادس والثلاثون

عصيان الأقباط وسقوط الدولة الأموية

(٧٤٣م=٤٥٩ش=١٢٤هـ)

+ أشتهرت أوسيم قديماً بكثرة كنائسها، وقوة مركزها الديني، ولكنها بعد الغزو العربي صارت مجرد قرية صغيرة في أوائل القرن ١٩، وقيل إنه كان بها ٣٦٠ كنيسة. وتري الكاتبة أن هذا العدد لم يكن مُبَالغاً فيه - علي إعتبار حساب الكنائس بعدد مذابحها - إذ كانت الكنيسة تحتوي نحو ثلاث مذابح، كما عليه الحال حتي الآن (١٨٩٨) ولشهرتها العظيمة القديمة.

+ ونظراً لمرض القديس موسي - أسقف أوسيم - فقد حملوه إلي بابيلون.

+ وقام الأسقف موسي الأوسيمي بطرد المجتمعين بعكازه، لعدم اتفاقهم علي مرشح، ولكن في اليوم التالي تم الأتفاق علي الراهب التقي **خائيل**، وصادق الوالي عليه. والتقي به الوفد الذي ذهب اليه في البرية وهو في طريقه للقاهرة للإعتراض علي ما اتخذه الوالي (السابق)، فعلم منهم بعزل الوالي السابق وباختياره هو للكرسي المرقسي (عام ٨٤٩م).

+ ولما مات الخليفة هشام، خلفه الوليد بن يزيد. الذي عزل حفص وعيْن **حسان بن عتاهية**، الذي أذاق الأقباط العذاب آلواناً.

+ وفي خلال أربع سنوات تعاقب علي الخلافة الأموية أربعة من الخلفاء، وكثير من الولاة في مصر. وكلهم عذبوا الأقباط، حتي اضطر أكثرهم

لبيع أملاكهم، كما باعوا أولادهم كعبيد ليسددوا الضرائب للولاة الجشعين وقساة القلب.

+ كما مضى أكثر الأساقفة إلي الأديرة، فراراً من العذابات الشديدة، وترك الكثيرون المسيحية، إما تخلصاً من الاضطهاد الشنيع، أو قبولاً لوعد وإغراء الولاة الماكرين بإعفائهم من التعذيب، إذا هم نطقوا بالشهادتين علي شرط أن يبقوا مسيحيين فعلاً ومسلمين أسماً، ولكن أبناء هؤلاء المساكين صاروا مسلمين فعلاً لا قولاً!! وقد بلغ المرتدون أكثر من ٢٤ ألفاً من الأقباط!!

+ وكان موسي أسقف أوسيم يعزي البائسين، ويساعد البابا خائيل في أيام تلك المصائب، والمصاعب الشديدة.

+ **وقام مروان بن محمد** (الملقب بالحمَّار) ضد الخليفة ابراهيم بن الوليد، واغتصب منه الخلافة، وعزل الوالي في مصر، وعيّن بدله **حوثرة بن سهيل**، الذي أراح الأقباط قليلاً من الظلم الذي قاسوه. ولذلك صرف البابا أكثر وقته في قبول توبة الذين أنكروا الإيمان خلال فترة شدة الاضطهاد الأموي.

+ وكان البطريرك الرومي قزما - المعروف بغباوته وغطرسته - منزوياً في أيام الضيق. فلما استراح الأقباط، قام يوالي هجماته علي الكنائس القبطية، مدعياً أنها من حقوقه الشرعية. كما طالب بكنيسة مارمينا العجايبي بمريوط وشكا للوالي بذلك. طمعاً في إيرادها الوفير.

+ ولما تقدم البابا القبطي والأسقف الرومي بما يثبت حقوق كل منهما في الكنيسة، لم يجد ما يُدّعم طلب قزما، ولكنه جمع مالاً وفيراً من الأروام بالإسكندرية، وقدَّمه رشوة للوالي، بينما لم يكن مع البابا مالاً، ليسمح له باسترداد الكنيسة. فقرر الوالي تأجيل النظر في موضوع الكنيسة.

+ ومع ذلك فقد كان البابا خائيل محباً ومؤدَباً، فوضع يده في يد قزما، لدفع الظُلم عن كنائسهما، في كثير من الحوادث التي وقعت فيما بعد!!

+ ومع أن الامبراطورية الاسلامية امتدت من شمال افريقية حتي الأندلس (أسبانيا) لكن الصراعات علي الخلافة لم تجعل هناك حكومة اسلامية منتظمة. ولم يستتب لها أمر، في أي قطر وقع تحت يدهم، بل كانوا يحكمون جميع البلدان التي وقعت في أيديهم بالقوة، وتُشبه الأحكام العرفية في هذه الأيام (في عهد الكاتبة).

+ واشتهر **مروان** – آخر خلفاء الدولة الأموية بسفك الدماء والقسوة. وقد قاومه رجل جبار اسمه «**أبو العباس**» الذي حمل لقب «السفاح».

+ وقام الوالي عبد الملك بن مروان باضطهاد الأقباط، وقبض علي البابا خَائيل وموسي أسقف أوسيم، ٣٠٠ قبطي وقبطية. وحبسهم في سرداب مُظلم، وحوّل البابا وأسقف أوسيم السجن إلي كنيسة، لمواساة المسجونين.

+ وكان ملك السودان «مرقوريوس» مُحباً لشعبه. حتي لقبّوه بقسطنطين الثاني. ثم آل الحكم إلي شخص يُدعي قرياقص. وكان قد اغتاظ من مطالبة المسلمين بالجزية من المال والعبيد. وابتدأ يتدخل في شئون مصر – منتهزاً فرصة الصراع بين مروان وأبي العباس، وأن والي مصر يضطهد الأقباط ويهينهم.

+ وأرسل قرياقص مندوباً لوالي مصر لأطلاق سراح البابا، ولكنه قبض علي هذا المندوب – المدعو إبريقس – وسجنه، فجاء الملك قرياقص. بجيش ضخم، واستولي علي الفسطاط. فأفرج الوالي عن المندوب السوداني والبابا القبطي، علي شرط أن يعود قرياقص إلي بلده. فتم ذلك.

+ ومع ذلك عاد الوالي إلي اضطهاد الأقباط بشدة، حتي اضطرهم للثورة!!

+ وطـرح البابا القبطي والبطريرك الرومي أسباب الشحناء المذهبية، واتفقا علي القيـام ضـد أعـداء دينهمـا، وسـارا في مـقـدمـة الثـائرين ليشجعاهم(١).

+ وانكسر جيش مروان بيد الثائر القبطي **يوحنا السمنودي**، فاغتاظ مروان، وأمر بنهب البلاد وسلبها أثناء تقهقر جيشه. كما أحرق مصر القديمة.

+ ولكن سنة ٧٥٠م إنهزم الثوار الأقباط في الوجه البحري (البشموريين)، وقبض مروان علي البطريركيين القبطي والرومي وسجنهما، ودفع بطريرك الروم فدية قدرها ألف قطعة من الذهب، ثم فر من مصر، ولم يُسمع عنه شيئاً إلا بعد ٥ سنوات، عندما اشتد النزاع بين الأروام حول موضوع كسر الأيقونات.

+ أما البابا خائيل، فلم يكن معه أي مال يدفعه. فجلدوه، قاصدين موته، ولكن مروان أبقي عليه، حتي يُفيده في تهدآة الثائرين. فأعاد سجنه.

+ وقام المسلمون بحرق محاصيل الأقباط ونهب الأديرة وتدنيس الراهبات العفيفات. ولما رأى الجنود راهبة جميلة تُدعي «**فبرونية**» لم يسيئوا إليها، بل أرادوا إبقائها هدية للخليفة مروان، ولكنها رفضت الدنس مع هذا الفاجر. وفكرت في حيلة، وتخلّصت بها من هذا الدنس، بأن أعلنت لقائد الجند أن عندها زيتاً مقدساً، إذا دهن به الإنسان جسمه لا تؤثر فيه السيوف الحادة. ثم طلبت أن تُجرّبه علي نفسها، فضربها الضابط بالسيف بشدة وأطاح برقبتها. ونالت إكليلها بشجاعة نادرة.

---

(١) لم تذكر أيه مصادر قبطية قديمة أن البابا القبطي شجع الثوار علي قتال العرب، بل العكس أنه كتب لهم، بأن المسيحية لا تُقر القتال والعنف، وأنهم لا يقدرون علي مقاومة الجيش العربي.

+ وقال المؤرخ أبو صالح[1]: «إن المسلمين ندموا وحزنوا علي موتها، وتركوا باقي الراهبات».

+ وفي عام ٧٥١م جاء جيش أبي العباس (السفاح) وعسكر علي شاطيء النيل تجاه مروان (الذي كان بالجيزة). ولما علم مروان أن بعض الأقباط أنضموا لجيش السفاح، أراد أن يغيظهم بتعذيب **البابا خائيل وأنبا موسي أسقف أوسيم**، بجلدهما علي مرآي من الأقباط علي الشاطيء الآخر. ثم حبسهما. وزاد من قسوته لهما.

+ ثم جمع مروان ١١ قسيساً، وأوقفهم علي شاطيء النيل وجاء بآلات التعذيب. فركعوا وطلبوا من البابا أن يصلي من أجلهم. وصاح الأقباط الذين كانوا مع أبي العباسي. وبكوا من أجل البابا وأسقف أوسيم والكهنة المعذبين أمامهم.

+ وصلي البابا بصوت جهوري، وبايمان ثابت، من أجل كهنته، ومن أجل معذبيهم أيضاً. ولما فرغ قداسته من صلاته، تقدم إبن مروان من وسط الجمع المزدحم، راجياً أن يعفو والده عن هؤلاء المساكين، ليس بدافع الشفقة، وإنما من الناحية السياسية، إذ أن قتل البابا بمثل هذه الشناعة سيجعل الأقباط ينضمون إلي العباسيين، للثأر لبطريركهم، فأعادهما إلي السجن. وصلي الشعب في جميع الكنائس من أجلهما.

+ وعبر جيش السفاح النيل (إلي الجيزة) وطارد جنود مروان. وتم قتله بين يدّي جيشه، وفر إبنه لدي السلطان السوداني المسيحي، الذي وبخه علي قسوة المسلمين، وطلب منه مغادرة بلاده، فعاد إلي مصر، حيث قبض عليه العباسيون، وسجنوه حتي مات في السجن.والجزاء دائماً من جنس العمل!

---

(١) والأصح أن المؤلف هو المؤرخ القبطي أبو المكارم سعد الله (١٢٠٠م).

الفصل السابع والثلاثون

ظلم العباسيين للأقباط

(٧٥١م=٤٦٧ش=١٣٣هـ)

+ خلال الأربع والخمسين سنة التالية (من العصر العباسي) تولي حُكم مصر ٤٥ والياً، من قبل خمسة خلفاء تعاقبوا علي العرش، الواحد بعد الآخر (في بغداد).

+ وليس المهم ذكر أسمائهم، ولكننا نذكر شيئاً واحداً يعمهم جميعاً وهو **ظلمهم واضطهادهم الشديد للأقباط**. آما أعطاؤهم بعض الحرية – في بداية الاحتلال العباسي لمصر – فكانت بسبب معجزة زيادة مياه النيل بصلوات الاقباط وتضرعاتهم إلي اللّه، كما وصفه يوحنا شماس البابا خائيل بقوله:

* «في ١٧ توت (٢٩ سبتمبر) وهو يوم عيد الصليب المجيد، اجتمع قسوس الجيزة وضواحيها، وجمهور من أقباط الفسطاط من الصغار والكبار والنساء. وملأوا كنيسة ماربطرس التي علي الشاطيء (بالجيزة). ولما صلي البطريرك ومعه أنبا مينا أسقف ممفيس (الجيزة) ورفعوا التسابيح علي الشاطيء، وصرخوا قائلين «كيرياليصون» (يارب أرحم) بصوتٍ مرتفع أيقظ اليهود والمسلمين... وأجاب الرب بأن أرتفع الماء ذراعاً واحداً»!!

+ ولما وقع هذا الخبر علي مسامع الوالي المسلم اندهش وأرتعب هو وجنوده.

+ وساءه أن تتم المعجزة علي يد الأقباط وينسبها الناس لطلباتهم. فأمر أن يذهب المسلمون – لنفس المكان الذي صلي فيه الأقباط – ويصلوا، عساهم يزيدون النيل ذراعاً آخر، فانخفضت مياه النيل ذراعاً، ثم صلي

الاقباط فأرتفعت المياه إلي مستوي ١٧ ذراعاً، وزال الخوف من الجفاف واستراح الأقباط،من المسلمين ٤ سنوات.

+ وفي خلالها زار البابا خائيل شعبه لافتقادهم، وقد عثر علي ٣٠٠ رجل من أتباع ميليتيوس الهرطوقي - في إحدي الواحات - فضمهم إلي حضن الكنيسة الأم بحكمته المشهورة.

+ أما الذي زعزع دعائم السلام وأعاد القلق لأقباط مصر، فهو إسحق أسقف حاران، الذي لما تنيّح بطريرك انطاكية (السرياني) سعي لدي الخليفة العباسي ليتولي الكرسي الانطاكي، وهو ما يخالف قوانين الكنيسة، وتصدي له مطرانان، قتلهما الخليفة، وأجلس إسحق علي كرسي انطاكية، رغم أنف رجال الاكليروس السريان(١).

+ ثم أرسل إعلاناً للبابا خائيل كالعادة، يخبره بأنه صار بطريركاً لإنطاكية، وبعث الخليفة بأوامره إلي الوالي العباسي في مصر، مهدداً بأنه إذا لم يصادق البابا خائيل علي تعيين إسحق. فلابُد من القبض عليه. وإرساله للخليفة، لكي يعاقبه بنفسه!!

+ وجمع البابا الأساقفة في مجمع في بابيلون، وأصر آنبا خائيل علي الذهاب إلي الخليفة وأراد أنبا موسي أسقف آوسيم، والشماس يوحنا (كاتب السيرة) السفر معه. وعند الاستعداد للسفر مات اسحق الشرير. وبذلك حل الله المشكلة بطريقته الإلهية.

+ وعاش البابا خائيل بعد تلك الحادثة نحو ١١ سنة، جاهد فيها بأمانة. ثم تنيّح سنة ٧٦٧م. وكان معاصراً للخليفة العباسي «أبو جعفر المنصور»،

---

(١) تذكر بعض المصادر أن الخليفة قد أحب الأسقف اسحق السرياني، لأنه صلي من أجل زوجته العاقر، فانجبت له إبناً، فأراد مكافأته بشغل كرسي إنطاكيا السورية.

الذي جعل عاصمته بغداد. وكان واليه في مصر يزيد بن حاتم، الذي نقل الدواوين إلي قصر الشمع (حصن بابيلون).

+ وجلس بعد البابا خائيل راهب اسمه مينا، من دير أنبا مقار (٧٦٧ - ٧٧٦م) وظلت الكنيسة علي عهده بلا عذابات. إلي أن طلب شماس يُدعي «بطرس» من البابا مينا أن يرسمه أسقفاً، فرفض بالطبع.

+ فسافر إلي بغداد وجاء بأمر من المنصور - لوالي مصر - بعزل البابا مينا، وتنصيب بطرس مكانه. فجمع البابا مجمعاً من الأساقفة في بابيلون، لمناقشة هذا الموضوع، فهجم بطرس الشرير علي الكنيسة ومعه بعض الجند، فنهض أسقف أوسيم مع بعض الأساقفة وطردوا هذا الشماس الشرير من الكنيسة. فهجمت عليهم العساكر وساقتهم للسجن.

+ كما ادعّي شخص شرير آخر بأن البابا يعرف صناعة تحويل المعادن الرخيصة إلي ذهب. فطلب الوالي جميع أواني الفضة والذهب الموجودة في كل الكنائس القبطية، ولكن البابا أفهمه بأنه لا يعرف كيفية تحويل المعادن إلي ذهب وأن الكنائس تستخدم كؤوساً من زجاج وصينيات من الخشب، لسر الشكر.

+ ثم أرسل الوالي البابا مينا وأساقفته ليشتغلوا في ترسانتها (السفن) كما يشتغل المجرمون أشغالاً شاقة. فثار الأقباط في الوجه البحري، وطردوا الموظفين المسلمين، وزاولوا عملهم بأنفسهم. كما قال المقريزي، أنه تمت محاصرتهم وقتلهم وأنتهت ثورتهم بسبب قوة أعدائهم. واضطروا أن يأكلوا جثث الموتي، لشدة الجوع!!

+ وتم هدم جميع الكنائس القبطية - في مصر القديمة - ولم تبق منها سوي كنيسة أنبا شنودة، وقدم الأقباط للوالي ٥٠ ألف دينار ليتجاوز عن هدم كنيسة في الحصن، فرفض المبلغ. وهدمها للأسف!!

+ وبعد ٣ سنوات خلفه أخوه محمد ثم موسي بن علي سنة ٧٧٢م. ولما فحص حالة المسجونين، وعرف سبب اعتقال بطرس. فقدم أعذاراً كاذبة حملت الوالي علي إخراجه من الحبس. وأرسله للخليفة المنصور. فأكرمه وأرجعه لينتقم من البابا مينا وجميع الأقباط، بعدما أخذ إسماً جديداً، نفهم منه أنه ترك الإيمان.

+ وأراد الأقباط الثورة ضد هذا المرتد بسبب اضطهاده لهم بلا مبرر، ولكن الله نقل الخليفة إلي العالم الآخر. فأصبح بطرس ذليلاً ومرفوضاً من أهله إلي أن مات بلا حكمة!!

+ وبعد نياحة البابا مينا، بقي الكرسي البطريركي شاغراً لمدة سنة. لعدم الاتفاق علي مرشح. فأتجهوا إلي الاقتراع علي المرشحين. وسارت الكنيسة المصرية - مدة من الزمن - علي قاعدة «**القرعة الهيكلية**».

+ وتم ترشيح مائة راهب[1] وكان يُشتَرط في المرشح للبطريركية أن يكون إبناً لبكر. وليس من الرقيق، ومن والدين شريفين، كامل الأعضاء والصحة وغير متزوج، وعمره ٥٠ سنة علي الأقل، مصري الجنس، ويعرف لغة البلاد، مستقيم السلوك وله علم كامل، ومن غير الأساقفة، ويتمسك بالمذهب الأرثوكسي، ولا يتدخل الوالي في أمر أنتخابه.

+ وتمت غربلة المرشحين إلي ثلاثة، وأُختير منهم يوحنا (الرابع) وجلس علي الكرسي المرقسي ٢٤ سنة (وفي مصدر آخر من ٧٧٧ - ٧٩٩م).

+ ومات البطريرك الرومي قزمان. بعدما حاول التدخل في مسألة تكسير

(١) تقول الكاتبة «إنه من المؤكد أنه في العصور الأولي كان بطاركة الكنيسة القبطية ينتخبون من غير الرهبان (حيث لم تبدأ الرهبنة بعد) وبدليل أن أكثرهم كانوا متزوجين ولهم أولاد»!! وهو رأي غير سليم، فقد كان البطاركة كلهم بتوليين، ومن الاكليروس غير المتزوجين، ماعدا أنيانوس وديمتريوس الكرام. والأخير كان يحيا مع زوجته في بتولية.

الأيقونات والتماثيل في الكنائس، مما كان شائعاً في أوربا والشام. ولم تتدخل الكنيسة القبطية في هذه المناقشات، لأنها لم توافق علي عمل تماثيل.

+ وقد صرف البابا يوحنا علي إعادة بناء الكنائس التي تهدمت أثناء الاضطهادات الأخيرة، من ماله الخاص. ولو أن الكاتبة تقول «إنه يعسر تصدّيق ذلك، لأنه كان راهباً فقيراً، وهذا العمل يحتاج لمال كثير». ولا نستبعد أن يكون قد ورث مالاً، أو جمعه من تبرعات الشعب القبطي السخي في العطاء، لبناء بعض الكنائس.

+ وأعظم كنيسة شيدها هي باسم رئيس الملائكة ميخائيل بالإسكندرية، وهي التي أغاظت الأروام بجمالها وزخارفها. فذهب واحد حاقد منهم إلي الوالي العباسي وأعلمه بأن الكنائس الجديدة صارت أوسع من القديمة، وأن يوحنا قد استولي علي مساحات من أراضي الحكومة، وأدخلها في الكنائس. ففرض الوالي غرامة مالية، دفعها البابا، دون أن يوقف البناء يوماً واحداً.

+ ولما حدث قحط وجوع، صرف البابا يوحنا كل ماله علي سد حاجة المساكين. وقد تكررت المجاعات، بسبب عدم اهتمام الولاة بتطهير الترع، أو حفر قنوات عندما ينخفض فيضان النيل، ويعقبه جوع شديد، ويموت كثيرون بعد انفاق كل ثرواتهم. أو يموتون بسبب الشغب – طلباً للطعام – أو تقتلهم الحكومة للتخلص من إعالتهم.

+ ومن الغريب أن أحد الولاة تنبّه إلي أهمية تطهير وتوسيع الترع، فساق اليها عدداً من الأقباط بلا قوت، فماتوا من الجوع والتعب، وبقيت جثثهم مُكوَّمة، مما أُوجِّد وباء الطاعون، الذي زاد من شقاء البلاد وبلائها.

الفصل الثامن والثلاثون

آخــر ثــورة هــائلة للأقبــاط

(٧٨٥م=٥١ش=١٦٨هـ)

+ في عام ٧٨٥م مات الخليفة المهدي بن المنصور (العباسي) وخلفه إبنه الهادي، الذي مات بعد عدة أشهر، ثم تولي أخوه هارون الرشيد، الذي حارب بقايا البيزنطيين، وشجَّع علي الترجمة للعلوم والرياضة والفلسفة.

+ ولم يكن يثق بأحد لإدارة مصر، خوفاً من الاستقلال بها، ولعظم ثرواتها، لذلك سلك – مثل أبيه – في أسلوب تغيير الولاة كل عام، مما أربك نظام البلاد. وكان هارون يضطهد الاقباط، ويُضيِّق عليهم، وينظر لبطريركهم بعين الشك والخوف ـ بدون مبرر ـ للأسف.

+ ولما تولي حكم مصر عبيّد الله، أرسل لهارون فتاة جميلة، ولما مرضت حزن عليها، فذهب إليه «بوليشان» البطريرك الرومي الاسكندري، وعالجها. فطلب منه أن يستولي علي بعض الكنائس القبطية. فنال مُناه الشرير.

+ وفي عام ٧٩٩م تنيّح البابا يوحنا، ثم لحقه بطريرك الأروام، الذي خلفه رجل كان يعمل نساجاً للكتان، وكان قد عثر علي كنز من المال في ضريح قديم فأعطي من ماله لكنيسته، فاختاره الروم رئيساً لهم.

+ وأنتخب الأقباط البابا مرقس (٧٩٩ – ٨١٩م) وكان بارعاً ومخلصاً ونقي القلب. وقد ضم العديد من الشيع المنحرفة. وامتحن أحد أساقفتهم بأن يُنزله لدرجة كاهن بسيط فقط، فقبل هذا الشرط. فأعاد البابا تكريس كنائسهم، لتتلاءم مع الطقوس القبطية الأرثوذكسية. ورسم أسقفهم المطيع أسقفاً قانونياً، علي رعاياه السابقين.

+ وفي عام ٨٠٨م مات هارون الرشيد، فاستفحل الصراع بين ولديه الأمين والمأمون، لمدة ٥ سنين، وأنتهي بقتل الآمين وتنصيب المأمون خليفة لبغداد (الدولة العباسية).

+ ويذكر المؤرخ شمس الدين أن ٨ من الولاة العباسيين تعيّنوا لحكم مصر، خلال خمس سنوات، ولم يأتوا اليها. ولا عملوا فيها آي عمل!!

+ والذي يراجع أقوال مؤرخي المسلمين – في ذلك الوقت – يجدها غامضة ومتناقضة، ولا يتضح منها سوي أن عدواً طمع في السيطرة علي مصر. فهاجمها من الجهة الشمالية الغربية.

+ وفي الغالب كان هؤلاء من مُسلمي الأندلس (آسبانيا) فانتبه العباسيون، وآخذوا في تحصين الإسكندرية. وإمدادها بمزيد من الجند. ومضي اليها البابا مرقس ليفتقد رعاياه. أما البطريرك الرومي خريستوفر، فلم يرد له ذِكْر، في وقت تلك الظروف، لأنه كان مُسَناً، ولا يقدر فعلاً علي الحركة.

+ لذلك وجه البابا مرقس اهتمامه بجميع المسيحيين علي السواء. ولم يُميّز بين قبطي ورومي. واقتحم صفوف المقاتلين بشجاعة، إلي أن وصل لقائد الجند، ودفع له فدية لجميع أسري المسيحيين، الذين نوي القائد آن يأخذهم عبيداً. وأنقذ ٦٠٠٠ أسير، وزوّدهم بالمال ليسافروا لبلادهم، آما غير القادرين فقد أبقاهم بالإسكندرية.

+ وقد آمل الأقباط – في مسلمي الأندلس – لينالوا علي يدهم العدل والحرية، ولكنهم للأسف قتلوا من المسيحيين نحو ٨٠٠ شخص، وأنطلقت الأيدي الأجنبية في السلب والنهب في الإسكندرية. وأحرقوا كنيسة المُخلّص بعد نهب ما بها. ثم أشعلوا النيران في كل المدينة!!

+ واضطر البابا مرقس إلي الاختفاء في دير مهجور، ومن هناك كان يرسل بارشاداته لرعيته، وبعد ٥ سنوات منحه والي مصر الأمان، وصرح له بالإقامة في دير بوادي النطرون، وفي أثنائها أنتهت الهُدنة بين المسلمين (العباسيين والأندلسيين في الإسكندرية) وقاموا جميعهم بسلب الأقباط وقتلهم!!

+ وذلك لأن الوالي العباسي الجديد **عبد بن الله بن طاهر** أباح لجنوده نهب الأديرة وإحراق الكنائس، فحزن البابا مرقس، وأصابته الحُمَّي، ثم رحل إلي عالم المجد.

+ وقد عانت مصر من **ثلاث بلايا** هي استيلاء مسلمي الأندلس علي الإسكندرية والمناطق الساحلية، والثانية: الوالي عبد الله، الذي دمر الفسطاط، والمصيبة الثالثة شخص إسمه «**عبد العزيز**»، لما اشتد نفوذه، قويت شروره بشدة، وقام بحرق مخازن الغلال، مما أحدّث جوعاً في البلاد، بزعم أنه يُميت مُسلّمي أسبانيا (المُحتّلين للمناطق الشمالية المصرية).

+ وتدخل عبد العزيز في اختيار البابا الجديد. وتم اختيار راهب يُدعَي يعقوب (ياكوبوس) فأقسم الوالي الشرير بأن يُسلِّم يعقوب نفسه إليه حالاً، وإلا قتل الأساقفة وهدم الكنائس. وقبل أن يذهب إليه أنبا يعقوب، أصابه مرض، قصف عمره، والحمد لله علي أمره.

+ وجاء المأمون بن الرشيد لمصر، فطرد مسلمي الأندلس، ودفع مبلغاً لعبد الله بن طاهر ليترك الولاية، وأقام أخاه المعتصم والياً علي مصر وسوريا معاً.

+ وذكـر المؤرخ أبو الفـرج الأصـفـهـانـي أن دنيس (ديونسـيـوس) بطـريرك أنطاكية زار مصر مرتين في أيام البابا يعقوب (٨١٩ - ٨٣٠ م). ففي المرة الأولي جاء عن طريق البحر حتي مدينة صان (بالشرقية) فخرج سكانها وكانوا نحو ثلاثين ألف قبطي، يتقدمهم البابا - وكثير من الأساقفة - لاستقباله. وكان عالماً بالتاريخ.

+ وقد جاء هذه المرة ليشكو من تصرفات أخي عبد الله بن طاهر في إديسا (بسوريا) الذي أشتد ظلمه. وقد حصل البطريرك الانطاكي علي خطاب من عبد الله - إلي أخيه - ينهاه عن تخريب ما بقي من الكنائس - في إديسا - وأن يكف عن شروره للمسيحيين.

+ وجاء دنيس - في المرة الثانية - مع الخليفة المأمون، الذي عينّه مع البابا يعقوب الإسكندري لإخماد ثورة الأقباط (البشامرة)، ووضع حد لعصيانهم للدولة العباسية.

+ وقد كتب دينيس عن الأقباط يقول: «وجدّتُ بطريركهم وأساقفتهم أنقياء وأتقياء ومتواضعين، يُحبُّون الله ويخافونه من كل قلوبهم». وقد أنتقد الأقباط في أنهم يغفلون قراءة الكتاب المقدس، ولا يهتمون بقراءته كثيراً، وأنهم يفرضون ٢٠٠ - ٣٠٠ قطعة من الفضة يدفعها الأسقف عند رسامته، وهو يعتبر - هذا الرسم - بيعاً للمواهب الروحية (سيمونية). كما أخذ علي الأقباط تأخيرهم عماد الأطفال ٣٠ - ٤٠ يوماً بعد ولادتهم (لحين مشاركة الأم في طقوس العماد).

+ ولم يفلح البابا المصري والبطريرك السرياني في إيقاف ثورة الاقباط. وقبل مجيء الخليفة المأمون، أرسل البابا يعقوب إلي الثوار (البشموريين) للخضوع للخليفة، لاستحالة نجاحهم في ثورتهم. وأكد لهم أن العصيان علي الدولة يجلب سفك دماء غزيرة، ويعقبه اضطهاد هائل.

+ وكان البابا يرسل رسائله للثوار - عن طريق الأساقفة - ولكنهم أعلنوا لهم أنهم يفُضلّون الموت بالسيف من أن يعيشوا تحت سلطة الظُلم.

+ ولما جاء المأمون بجيشه تقهقر الثوار، وتحصنوا بقلعة بابيلون، ولكن تم اكتساحها، وقتل الكثير من الأقباط ونهبهم، وبيعهم عبيداً، حتي اضطر ضُعفاء الإيمان إلي ترك الإيمان. رغبةً في الخلاص من العذاب، خاصة بعد اسلام ربع السكان الأقباط، وبعد استيلاء العرب علي أراضيهم، في القري التي اغتصبوها منهم. فزاد عددهم، وقويت عصبيتهم.

+ وبعدما هدأت الأحوال عزم البابا يعقوب علي حرم أسقفّي بابيلون وصان لشكوي شعبيهما من سوء تصرفاتهما، وعدم سماعهما لنصائح البابا الحكيم.

+ فسعي الأسقفان للإنتقام من البابا، بأن ذهبا إلي الأمير «**الأفشين**» قائد الجيش في مصر، وزعما كذباً بأن البابا يعقوب كان يتظاهر بإطفاء نار الثورة القبطية، وأنه هو مُشعلّها!!

+ ودون أن يفحص الأفشين هذا الأفتراء، أرسل جنوده وأمرهم بأن يهجموا علي البابا - وهو يصلي القُداس - في كنيسته ويقتلوه، فلما علم سراً بالمكيدة، ترك الكنيسة قبل وصول الجنود، ومضي بشجاعة إلي الإفشين، وبرهن له علي براءته. فأمر بإعدام الأسقفين الفاسدين، ولكن البابا رجاه الصفح عنهما.

+ فتعجب من هذا الطلب، وتحيّر ماذا يفعل؟! فرفع الأمر للخليفة، الذي أُعجب بالبابا، وأصدر أمره بأن أي حكم (كنسي) يصدر من البابا - ضد أي قبطي - لا يجوز استئنافه أمام الولاة (السلطة المدنّية).

+ ورحل البابا بعد أيام قليلة إلي المجد، حزناً علي ما أصاب شعبه من ويلات، في تلك الفترة بالذات.

+ وامتاز المأمون بميله لترجمة علوم القدماء، من الكُتب المصرية والسريانية واليونانية إلي العربية، ثم وصلت أوروبا – عربية صرفة – فظنها البعض أنها من أفكار العرب، وقل من يعرفها. بدليل غضب وغيظ كثيرون من المسلمين، من تعلّق المأمون بهذه العلوم والآداب، التي عدوها زندقة (كُفراً)!!

+ وتولي بعده أخوه المعتصم الذي كان والياً علي مصر وسوريا، وكان شهوانياً جاهلاً، ولكنه كان شجاعاً، لا يهاب الموت، وقد كثر أسري الحروب في عهده – ومنهم الأتراك – الذين شابهوا سادتهم العرب، وأتخذوا الحرب حرفة حتي قويت شوكتهم، لاسيما بعدما مال المعتصم إليهم، وجمع منهم جيشاً ليساعده، ولكنه خاف منهم، لئلا يقضون عليه، فلم يستطع الاقامة في بغداد.

+ ومن بين الأسري الأتراك أحمد بن طولون، الذي كان له دور هو وإبنه في حكم مصر، وفي أحداثها، كما سنراه في فصل تالٍ.

+ + +

الفصل التاسع والثلاثون

مقابلة ولي عهد السودان للخليفة

(٨٣١م=٥٤٧ش=٢١٦هـ)

+ لما تنيّح البابا يعقوب تولي بعده البطريرك سيمون (سمعان) ولم يعش سوي عدة أشهر. ثم وقع خلاف حول من يخلفه. فقد رأي جزء كبير من

الأقباط، ومعهم زخاري (زكريا) أسقف أوسيم، وتاودروس (تادرس) أسقف بابيلون، اختيار رجل غني وعالم إسمه إيساك (إسحق)، ورفضه الحزب الثاني، لأنه كان متزوجاً وله أولاد، ولم يكن يتم رسامة بابا متزوج حتي الآن، ماعدا ديمتريوس المُلقّب «بالكرّام»، الذي عاش مع زوجته كأخ مع أخته (بمعجزة)، وهو قول فاسد، ومنقوض من كل وجه[1]!!.

+ ومن ضمن حزب المعارضة الأنبا ميخائيل أسقف البحيرة، ويوحنا أسقف بنا وأبو صير، وهؤلاء أختاروا شخصاً إسمه «يوسف» وكان رئيساً لدير أبي مقار. وكان بالوجه البحري نائب للوالي المسلم، عُرِف بالظلم والقسوة، ولم يُرضِهِ اختيار يوسف، وطالب برسامة إسحق،طمعاً في ثروته،وأملاً في أخذ رشوة كبيرة منه، وإن كانوا يريدون رسامة يوسف بطريركاً لهم،يدفعون ألف قطعة من الذهب له. ولما كانت سلطة هذا الغاشم لا تمتد إلي بابيلون، فقد قرر الاساقفة رسامة يوسف في مصر القديمة (٨٣١م).

+ ولما قويت ممالك السودان المسيحية توقفت عن دفع جزية العبيد التي فرضها عليهم المسلمون، ولم يرسلوا رقيقاً، في أيام المأمون والمعتصم. كما كانت هذه الجزية تثير متاعباً وحروباً بين الممالك السودانية. كما كانت منافية للتعاليم المسيحية.

+ وقد دفع جرجس ولي عهد المملكة الشمالية المتاخمة لمصر والده لإيقاف إرسال الرقيق، في وقت انشغال المسلمين بثورة الأقباط، فلما انهزموا خاف الملك زخاري، وأرسل إبنه جرجس إلي الخليفة العباسي في بغداد.

(١) هذا هو رأي الكاتبة، التي لم تؤمن بالمعجزة التي أظهرها البابا ديمتريوس وزوجته بحمل جمر في غطاء رأسها دون أن يحترق، كطلب الرب وبمعونته، وكما آكدته جميع المصادر القبطية القديمة، الموثوق فيها.

+ ورأي جرجس – وهو في طريقه للخليفة – دلائل القوة الاسلامية – وعلامات الاستعداد الحربي، فاستنتج عدم قدرة السودان علي مقاومة هذه القوة العُظمي. ورأي الخليفة – أهمية السودان، فأراد أن يهادنه، ولذلك أحتفي بجرجس وأعطاه هدايا فاخرة، وأمر بتقديم جزية العبيد كل ٣ سنوات، كما منحه قصراً في الجيزة وآخر في الفسطاط، ونزل فيهما، عندما رجع لمصر، وبحث مسائل كثيرة مع البابا يوسف (يوساب) وطلب منه أن يدشن مذبحاً متنقلاً. يستخدم خلال تنقلات الملك النوبي. وأقر بعدم محاربة المسلمين.

+ وقد فر مطران الحبشة إلي مصر من مضايقات الملكة، أثناء غياب زوجها في حرب، فانهزم فيها، ولما رجع علم بما فعلته زوجته مع المطران المصري، فتوسل للبابا يوسف أن يعود المطران، فرحب به ملك الحبشة، بعد عودته إليها.

+ واشتهر البابا يوسف بتقواه وحكمته، واستمال الخليفة اليه، حتي بُطلت الاضطهادات والاضطرابات ضد الأقباط، كما كان له نفوذ قوي في الحبشة، وأكتسب صداقة بطريرك الأروام «صفرونيوس»، فتوقفت الانشقاقات بين الأقباط والروم.وتوسّع في الحملات التبشيرية في الخارج. ودعم الكنيسة القبطية التي أصابتها الشدائد سنوات عديدة.

+ ثم عادت المتاعب له، بمطالبة قس إسمه تاودروس أن يحل محل إسحق أسقف أوسيم بعد نياحته، ولكنه رفض رسامته، لأن شعب هذه الأبروشية طلب رسامة آخر، أصلح منه.

+ فرفع شكواه للوالي، الذي اتخذ هذه المسألة حجة لكي يرتشي، فأصدر

أمره بضرورة تعيين تادرس هذا أسقفاً لأوسيم. فرفض البابا، فأصدر الوالي أمره بهدم كنائس الفسطاط وبابيلون، مُبتدئاً بكنائس حصن بابيلون، الذي أسماه العرب «قصر الشمع»[1].

+ وقد ألح الأقباط علي البابا كثيراً لإجابة طلب الوالي، حتي لا تخرب الكنائس، فاضطر لرسامة تادرس أسقفاً لأوسيم، ولكن بعدما دُمرت الكنائس. كما طالب الوالي بغرامة قدرها ٢٠٠٠ قطعة من الذهب، جمعها الأقباط حالاً، ودفعوها له. وبذلك توقف الاضطهاد عن البابا وكنائسه.

+ وطالب أسقف بابيلون (مصر القديمة) بجعله مطراناً، ليخرج من سيطرة البطريرك علي عاصمة البلاد القريبة منه (الفسطاط) وليكون مساوياً له في الدرجة[2]، ورفع شكواه للمحكمة الاسلامية الشرعية للأسف!!

+ وبروح الحكمة قدّم البابا يوسف القرار الذي أصدره الخليفة المأمون، بأن

---

(١) تقول السيدة بوتشرآن أصل كلمة «الشمع» مشتق غالباً من «**كيمي أو شيمي**» (chemi) ومعناه قصر مصر" ويري آخرون أنها تُشير لكثرة الشموع، التي تضيء بكنائسها.

(٢) وكان بطريرك الأروام قد رفع ٤ أسقفيات إلي **مطرانيات**. ومنها بابيلون. وطالب الأسقف القبطي أن يكون مثل مطران مصر القديمة الرومي. إلا أن الأساليب التي استخدمها لم تكن جائزة (وقد تمت ترقية بعض الأسقفيات القبطية إلي مطرانيات، تقليداً للأقباط الكاثوليك في مصر، بإنشاء مطرانيتين في المنيا وطهطا في عهد الكاتبة). {**هامش أصلي**}.

- والواقع أن الايبارشيات الكُبري التي يكون بها أكثر من أسقف يتم ترقية أقدمهم إلي درجة «**مطران**» والتي تعني أسقف المدينة الكُبري، ليكون رئيساً عليهم مثل درجة «قمص» الذي يرأس قسوس كنيسة قبطية في أي مكان بمصر.

يرضخ كل قبطي لحكم البابا، **ولا يجوز استئنافه أمام الولاة المسلمين**. (ولم يكن البابا يعرف كلمة عربية، فكان نقاشه مع الوالي من خلال مترجم) فلم يقترب الوالي منه.

+ وفي ذلك الوقت جلس المتوكل علي كرسي الخلافة العباسية وولي إبنه «**المنتصر**» حكم مصر. وكانا كلاهما متعصبين ويكرهان الأقباط، مع أنهما كانا يحتاجان إلي أعمالهم الهندسية والحسابية (المالية) والطبية، وإلي كل عمل يحتاج لعلم وذكاء وأمانة. ومع ذلك عاملاهم بالقسوة والظلم، رغم أمانتهم وخبرتهم العملية النافعة.

+ وجاء مهندس رومي إسمه ليعازر من بغداد، ومعه أمر من الخليفة بخلع جميع الرخام وأعمدة المرمر الرائعة بكنيسة مارمينا بمريوط لوضعها في قصور الخليفة، ورغم توسلات البابا في الإبقاء عليها، لكن لشرّه لم يتركها في موضعها. وقيل إن هذا الشرير ندم علي مافعله وأرسل مبلغاً لخليفة البابا يوسف ليرممها به!!

+ ولم يمكث الوالي «**المنتصر**» في مصر، بل رحل عنها، وعين نائباً عنه، اسمه **اسحق بن يحي**. فاضطهد البابا القبطي بشدة في نهاية حياته وشيخوخته.

+ ومن ذلك أنه استقبل وفداً من قبل بطريرك إنطاكية. فانتهز نائب الوالي القاسي القلب وألقي القبض علي البابا بدون سبب، وجلده علناً – في الشوارع – وأمام الوفد الأنطاكي الزائر، بقصد تحقيره أمام الأجانب الزائرين له، ولكن هؤلاء الآباء السريان امتدحوا صبره، وأثنوا علي تقواه وشجاعته (وهو خير درس لكل نفس تحتمل الألم والظلم).

+ كما دخل الوالي الفاسد الي قلاية البابا ومعه سراريه ومحظياته، ودنسهن في هذا المكان المقدس، فصبر البابا علي هذا الفعل القبيح.

+ ثم زعم الوالي الفاسد أن البابا يوسف يدبر مؤامرة - مع بطريرك الأروام - ضد الدولة الاسلامية، وطرحه ظلماً في سجن ضيق، لا يمكنه أن ينام فيه، ولا تدخله شمس ولا ضوء، وصار يجلده كل يوم، حتي يسيل دمه.

+ وفهم الأقباط أنه يفعل ذلك طمعاً في رشوة، فجمعوا له ألف قطعة من الذهب. ولم تمر ثلاثة أسابيع علي إطلاق سراحه، حتي استراح في الرب سنة ٨٤٩ م.

+ وتدخلت يد الله للأنتقام من نائب الوالي الظالم، فقصفت عمره قبل نياحة البابا يوسف بأيام قليلة، وسوف ينال جزاءه الأشد في عالم الأبد .

+ + +

الفصل الأربعون

أحمد بن طولون

(٨٤٩م=٥٦٥ش=٢٣٥هـ)

+ تولي البابا **خائيل الثاني** سنة ٨٤٩ م وطلب منه الوالي المسلم مبالغ كبيرة كرشوة، حتي أضطر أن يبع أواني الكنائس ويسدد المطلوب. ولم تطل مدة هذا البابا سوي سنة واحده، وتنيح. فأضطر الأقباط إلي دفع رشوة أخري لأجل الموافقة علي تعيين بطريرك جديد، قبل أن يخلصوا من هَمْ الرشوة السابقة!!

+ وأختيرقزمان الثاني من رهبان دير أبي مقار، وكانت مدة رئاسته للكرسي

المرقسي سبع سنوات (٨٥١-٨٥٨م). وقد زاد الأضطهاد في عهده أكثر مما كان في أيام البابا يوسف، شدة وصرامة!!

+ وقد أصدر المتوكل الأمر- تلو الأمر- ضد المسيحيين عموماً، في أنحاء الدولة الإسلامية، وخصوصاً مصر، التي لم يتوّقف فيها الأضطهاد العباسي سنة واحدة!! وكان الغرض من تعليماته إذلال المسيحيين.

+فقد صدر الأمر بأن تلبس نساء الأقباط أحزمة مُعَّينه. ثم صدر أمر آخر بأن يلبسها الرجال الأقباط فقط، بهدف تحقيرهم، وإذا هم خالفوا أموراً بسيطة أماتوهم أو سلبوهم!! ومن نماذج ذلك عدم ركوب سوي حمار صغير أو بغل ذميم، علي سرج وسِخ، عليه علامه مخصوصة، وأن يضع القبطي رُقعة، بلونٍ عسلي أو أصفر،مهما كان لون ثوبه!! ، وأن تلبس كل سيدة قبطية بُرقعاً عسليَّ اللون (وكان هذا اللبس خاصاً بالنساء الدنسات فقط).

+ وأن يُلزِم الأقباط بوضع علي أبواب بيوتهم تمثالاً خشبياً، يمثل قرداً أو كلباً أو عفريتاً!! ومنعوهم من إيقاد أنوار(زينات) أو عمل أحتفالات للزاوج، وعدم أستخدام الصلبان حتي في الخدمات الكنسية.. ألخ. وفصْل جميع العاملين الأقباط من وظائف الحكومة، مما جلب المعاناة الأقتصادية لعائلات قبطية كثيرة.

+ وتم هدم جميع الكنائس التي أعيد بناؤها بعد الثورة القبطية الأخيرة، + ونُبِشَت أو أزيلت قبورهم، مع ماأصاب الأقباط من ظلم الجيران المسلمين وعدوانهم عليهم بأستمرار!!

+ كما صدر أمر من الخليفة - أو من والي مصر العربي- بإبطال الصلاة علي كل ميت قبطي. وغلق الكنائس لكي لا تُؤدَّي فيها صلوات، بهدف

محو أثار الديانة المسيحية في مصر، وأتلاف الكروم ومنع بيع النبيذ، حتي لا يجد الأقباط خمراً لخدمة سر الشكر، فكانوا يحاولون أستيراد العنب، أو الزبيب سراً، لإعداده للقداسات.

+ وفي عام ٨٢٥م حاول البيزنطيون أسترداد مصر من قبضة العرب، فاحتلوا دمياط- فترة من الزمن- مما أضرّ بالأقباط. إذ صدرت الأوامر بأضطهاد المسيحيين في مصر، وأصاب الأقباط الجزء الأكبر منها !!.

+ وتنيّح البابا قزمان الثاني في تلك الأيام الصعبة، وبعد خلاف تم أنتخاب ورسامة الأنبا شنودة الأول(٨٥٩-٨٨٠). وطلب الوالي مبلغاً كبيراً كرشوة، فمضي البابا لزيارة الأديرة البعيدة- هرباً من الوالي- ولم يعرف المسلمون مقرّه. ولذلك نهبوا الكنائس. وأغلقوها في الفسطاط وبابيلون إلا واحدة فقط!!

+ ولما علم البابا أن أبناءه الكهنة يُعذّبون ويهانون بسبب هروبه. عزم أن يُسلّم نفسه للوالي. وقدّم الأقباط نحو ٤٠٠٠ قطعه من الذهب للوالي حتي عفا عنه. وعاد إلي كرسيه .

+ وقد تم قتل الخليفة المتوكل بيد إبنه المنتصر، الذي صار خليفة لمدة نصف سنة فقط. وعندم موته تصارع إبناه المستعين والمعتز علي الخلافة، كما أنحاز القواد الأتراك إلي جانب المعتصم، وأعلنوا أن لهم الحق في تنصيب ما يريدون لكرسي الخلافة العباسية.

+ وتوجه إثنان من كبار الأقباط - مع دعوات البابا - إلي الخليفة العباسي«المستعين» وشرحا له ماعاناه الأقباط من الذل والظلم من الولاة، فاستراحت مصر قليلاً. إذ ظن أن الأقباط سيكونون خير سند له إذا هو

سالمهم - فأصدر أمراً بردّ الآراضي والكنائس والآديرة وأواني المذبح التي سلُبت منهم. فقام البابا بنشر القرار علي جميع الآساقفه. ومُرفقاً صورته بخطاب، يُثني فيه علي الخليفة،ويشكره علي قراره.

+وذكر مؤرخ معاصر له بآن جميع الكنائس المصرية- من الآسكندرية حتي أسوان- صارت الخدمات الكنيسة تُمارس فيها كالعادة. وقد نجاً الله مصر من الإرتباك الذي آصاب الدولة العباسية عند سجن المستعين، وآنتهي بخلافة آخية وقاتله - المُعتزّ- إذ عيّن تركياً يسمي«**مزاحم بن خاقان**» والياً علي مصر.

+وقد جاء مزاحم مع قوات من الآتراك الذين كانوا يحتقرون العرب المسلمين والآقباط المسيحيين. فآوجد نوعاً من العدل. وتساوي القبطي والمسلم في المعاملة، وتوقف السلب والنهب. ونشطت الصناعه من جديد.

+وقد أنتهز البابا شنودة (الأول) هذه الفرصة، وآجري إصلاحات عديدة للكنائس، وأوصل المياه لداخل الإسكندرية، في قناة بني لها صهريجاً مرتفعاً ومد منه المواسير للمساكن، فشرب أهلها المياه النقية بسهولة، وبصورة أحسن من الوقت الحاضر (١٨٩٧م).

+ ومات مزاحم للأسف بعد سنتين سنة ٨٦٨ م. وتعين بدله تركي، ولكنه لم يأتِ إلي مصر، بل جعل له مندوبين، آحدهما يسمي «المندوب المالي» لجمع الضرائب، والثاني«المندوب العسكري» لقيادة الجند، وهو **أحمد بن طولون**، وكان تركياً.وله بعض المعرفة والعقل وحُسن التربية.

+ وكانت لابن طولون مطامع في السيطرة علي مصر. فسعي لتجريد زميله- المندوب المالي- من كل سُلطة، ولم يمده بالجنود الذين يساعدونه علي

تحصيل الضرائب، حتي يظهر – أمام المصريين– بالضعف، ويعرفون أن ابن طولون هو الحاكم الوحيد لمصر.

+وكان المندوب المالي– المدعو أحمد أيضاً– قد كرهه المصريون، في الفترة التي أقامها في مصر– قبل قدوم ابن طولون إليها– لأنه ضاعف الضرائب علي المسيحيين والمسلمين علي السواء، واحتكر بيع (ملح النطرون وصيد السمك لصالح الحكومة. فأزاح ابن طولون زميله من منصبه، وتولاه هو!!

+ ولما تولي المعتمد الخلافة، لم يوافق عليه حاكم سوريا (الشام) ، فطلب من ابن طولون مشاركته في السيطرة علي الدولة العباسية في عهده، وكان في نيته أن يؤلف مملكة مستقلة من سوريا وأرمينيا ومصر، وهو نفس الفكر الذي جال بخاطر ابن طولون.

+ فسار ابن طولون بجيش– من الأسري والعبيد والأحباش والأروام– وترك رجاله الأتراك لحراسة مصر. وكان الخليفة قد طرد والي سوريا وعين شخصاً آخر بدون مقاومة.فعاد ابن طولون ومعه فكرة القيام بتأليف مملكة مستقلة تحت رئاسته.

+ وقام ببناء مدينة جديدة شمالي الفسطاط، وقسّمها إلي أجزاء، لبناء أماكن الحكومة، ووزع الباقي علي أتباعه والأعيان، وكان هذا الموقع قديماً مدفناً لليهود ثم الأقباط. فهدم المقابر وبني المدينة الجديدة.

+ ولما وصل خبر تلك الأعمال للخليفة داخله الشك في أمره. فطلب أستدعاؤه، ولكنه أرسل له هدايا ثمينة ومبلغاً ضخماً علي سبيل الرشوة، فثبّته في وظيفته العسكرية، وأعطي الولاية لبرقوق، وكان صهراً لأبن

طولون. ففصل المندوب المالي، وحاكم الإسكندرية. وأصبح أبن طولون حاكم مصر الفعلي، مع أنه كان نائب الوالي فقط.

+ وخفف أبن طولون من ثقل الضرائب . وأستراح الأقباط لأنهم تساووا مع المسلمين في كل وجه ٠ مع أنه كان يُميِّز الأتراك علي العرب، والروم علي الأقباط.

+ وكان يعتبر بطريرك الأقباط خصمه، فأخترع طرقاً كثيرة، يسلب بها أموال الأقباط، حتي يظلوا دائماً في حالة ضعف بسبب العوز، ولم يفرض عليهم ضريبة مباشرة، إنما فرض علي البابا مبالغ باهظة، وأضطره أن يجمعها من الشعب.

+ وقيل إن ابن طولون عثر علي كنز فرعوني قديم - قيمته مليون دينار - أستخدمه لمشاريعه، وهو ما أوجد طموحاً عند المسلمين في التنقيب علي كنوز قديمة، فأتلفوا مدينة عين شمس، ودمروا أطلالها الأثرية القديمة الباقية!!

+ وقد أستعان بمهندس قبطي في عمل مشروع لتوصيل المياه لمدينته الجديدة. وعمل له صهريج تجري منه المياة إليها. وكانت قناة المياه التي عملها إحدي العجائب في زمانه، وبينما كان أبن طولون راكباً إلي حفل، سقط من فوق حصانه بسبب إهمال أحد العُمال في نقل أتربة وحجارة متخلفة من المشروع، فقبض علي المهندس (أبن كاتب الفرجاني) وحبسه، ولم يدفع له المقاولة المتفق عليها في المشروع.

+ وطهّر أبن طولون ترعة الأسكندرية ورمم حوافها المنهارة وأصلح المنارة، وشيد مقياس النيل بالروضة (بالقاهرة) ومستشفي بالفسطاط. وحمامات عمومية للشعب.

الفصل الواحد والأربعون

مدينة أبن طولون الجديدة وجامعه

(٨٨٠م = ٥٩٦ش = ٢٦٦هـ)

+ كان أبن طولون يترّقب الفرصة لأضطهاد الأقباط وبطريكهم. وجاءت تلك الفرصة عندما تقدم قبطي شرير لأبن طولون بشكوي كاذبة بأن البابا شنودة (الأول) لديه أموالاً هائلة. فقبض عليه مع أساقفته، ووضع السلاسل في رقابهم، وساقهم من بابيلون إلي مصر، حيث جردهم من الملابس الكهنوتية، وأركبهم علي حمير بدون سروج. وأمر بأن يطوفوا بهم في الشوارع، علامة علي الأحتقار، والمهانة لهم!!

+ ثم طرح البابا فقط في السجن، حيث مكث فيه شهراً، وهو يتألم من داء النقرس. ثم جئ به أمام أبن طولون، حيث أثبت كذب الشماس الشرير. ومع ذلك صفح قداسته عنه، وأعطاه جملاً للرجوع لبلدته، ومالاً للطريق وثلاثة حُلَل ليلبسها، ودعا له، حتي أن سكرتيره وبخه علي رحمته به لأنه لا يستحق سوي العقاب (والدرس الخاص هو أن المريض بالروح في حاجة للحب لا الضرب).

+ وقد صدق كلامه، لأن هذا الشماس الشرير عاد يتهم الأقباط بتُهم كاذبة لدي الحكام المسلمين، ليحصل علي المال بهذه الوسيلة الشريرة!! ولكن الله أنتقم منه، إذ جلده حاكم الشرقية حتي مات من شدة الجلّد. وقد قلده بعض المسيحيين بالإسم، وأتهموا إخوانهم من الأقباط بما ليس فيهم لينالوا رضا ولاة المسلمين، الذين كانوا يتخذون هذه التُهم الكاذبة حُجة لتعذيب الأقباط (وهو درس آخر لكل قاسي).

+ وكان البطريرك شنودة مُحباً لجمع الكتب القديمة والمهمة. وعندما أمر ابن

طولون بتفتيش الصناديق والخزائن الموجوده عنده وجدوها تضم تلك المخطوطات القيمّة. وقد أتهمه المسلمون بأنّه يساعد علي إرجاع الذين أسلموا إلي المسيحية، وكان الأمركذلك، مع أنه كان مقاوماً أوامر الخليفة التي صدرت حديثاً، وكانت تقضي بالقضاء علي المسيحية في مصر (وهي رسالة خادم الله الحقيقي المحب لخلاص النفوس).

+ إلا أن هذه الأوامر لم تُنفّذ، ولم يُزد الاضطهاد ضد الأقباط، آكثر من ذي قبل، لأن أبن طولون عصي تنفيذ أوامر مولاه جميعها. ونادي بنفسه سلطاناً لمصر وسوريا.

+ وكان يعلم أن ذلك الآمر سيدفع الخليفة- إلي محاربته لإخضاعه لسلطانه، فآخذ يقوّي حصون الفسطاط. وشيّد قلعة جديدة في جزيرة الروضة، ووضع مراصد، بها الحمام الزاجل لسرعة نقل الأخبار إليه، وخزن الغلال ومنع تصديرها للخارج.

+ وكانت القوات التي آرسلها الخليفة إليه قد عصت آوامر قوادها قبل آن تصل إلي آرض مصر، فاستتب له الأمر، ففكر في بناء جامع في عاصمته الجديدة. وآراد به أن يرحمه الله من ذنوبه، لذلك لم يُرِد آن يأخذ أعمدة من الكنائس لبنائه، كالولاة السابقين.

+ وقد علم الناس جميعاً آن السلطان قد وقع في حيرة وأرتباك بالنسبة للأعمدة المطلوبة.وخاف الأقباط أن يُفتي آحد علماء المسلمين بجواز نهب أعمدة الكنائس، ليُريح ضمير ابن طولون.

+ فأرسل المهندس القبطي أبن كاتب الفرجاني للسلطان بآنه يمكنه أن يتعهد ببناء جامع جميل، ويصنع له أعمدة بلا مثيل، فينجو من جريمة سرقة المواد اللازمة لبناء الجامع، بعدما يُخرجة من السجن، وكان مطروحاً به

منذ أن عثُر حصانه في بقايا بناء وسقط به، كما سبقت الإشارة.

+ فأخرجه من السجن، وبني له الجامع، الموجود للآن (بحي السيدة زينب) بأستخدام أسلوب القناطر والقباب بدلاً من الأعمدة، ويفي بالمطلوب. فوهبه أبن طولون جائزة مالية ومرتباً ثابتاً. ولكن لما أراده السلطان أن يعتنق الأسلام رفض، فأمر أبن طولون بقطع رأسه، ونال إكليله جزاء أمانته ودقته وحكمته.

+ وأراد إبن طولون. إقامة حرب دينية ضد الآروام (البيزنطيين)، فوصل بجيشة إلي آسيا الصُغري. ولكن لما علم بأن إبنه الأكبر «عباس»، الذي أقامه وكيلاً عنه في مصر– أثناء غيابه– أعلن نفسه حاكماً مطلقاً لمصر، ترك أكثر قواته بآسيا الصُغري تحت قيادة القائد «لؤلؤ» وعاد لمصر، ففر إبنه من الفسطاط إلي الجيزة ومعه كل مافي الخزينة، وقدره مليون دينار، وكتب إليه أبوه ليرجع فلم يُطع، ووقعت بينهما وقائع كثيرة أنتهت بأسر إبنه وسجنه سنه ٨٨١م ، ثم أمره أبوه بقطع أيدي وأرجل الأتراك الذين شاركوه تمرده، ثم وبخه أبوه علي إسراعه بقتل أصحابه (بدون اعتراض) وأمر بجلده ثم بإعادة حبسه!!

+ وتنيح البابا شنودة عندما كان أبن طولون يحارب إبنه، فلم يطالب البابا الجديد أنبا خائيل (٨٨٠–٩٠٧م) بدفع المبلغ المفروض للرسامة،لأنشغاله بتلك الحرب. وأكتفي بما أخذه منهم من قبل.وأمتنع عن إضطهادهم، فنهض البابا بتعمير وتشييد الكنائس. وأولها كنيسة بسخا (بكفر الشيخ حالياً) بأسم القديس بطلومايس.

+ وعند تدشينها مضي البابا، مع كثير من الأساقفة، والأراخنة (أعيان

الأقباط) إلي سخا. فلما دخلوا الكنيسة لم يجدوا أسقف الأبروشية حاضراً لأستقبالهم. فظلوا ينتظرونه مدة. ولما لم يحضر أرسلوا لآستدعائه، فعاد الخادم وأعلن لهم إن الأسقف لم ينته من الإفطار، الذي دعا إليه الأسقف بعض الأصدقاء[1]!!

+ فغضب الأسقف وجاء ثائراً وتقدَّم، وطرح خبز التقدمة علي الأرض. وكان لم يتقدس بعد، فأخذ البابا قربانة أخري وأكمل القداس كالعادة.

+ ثم عقد مجمعاً محلياً من الأساقفة الضيوف وتم حرم أسقف سخا وتعيين آخر مكانه. فأسرع إلي إبن طولون. وشكي له ماحدث له. وبذلك أعطي الوالي حجة التدخل في أمور الكنيسة الخاصة. وأرسل إبن طولون للبابا وأمره أن يُسلّمه جميع الأواني الذهبية والفضية الموجودة في كل كنائس القطر، وكل معدن يمكن تحويله لنقود. ولما رفض البابا هذا الطلب أمر إبن طولون بسجنه.

+ وبقي القديس في السجن سنة كاملة. ولما رأي ابن طولون أنه لا يستجيب له في تقديمه الأواني، اضطر لإخراجه من حبسه بشرط أن يدفع له

(١) تقول الكاتبة إن في هذا دليلاً علي أن الصوم قبل ممارسة سر الشكر لم يكن متبعاً في تلك الأيام، إذ لم يعترض أحد علي إفطار الأسقف قبل المناولة، وإنما كان الأعتراض علي عدم إهتمامه بحضورهم ضيوفاً عنده.

والواقع أن جميع المصادر القديمة، تروي أن الآسقف قد كان مشغولاً بآعداد الطعام للآباء الضيوف. وقد تأخر في المجئ للكنيسة لهذا السبب، وأما موضوع تناوله الطعام قبل القداس، فلم يُشِر إليه أحد من المؤرخين القدامي -كما أن التعليق الموجود للكاتبة بالحاشية، محض خيال، حيث أكدت الدسقولية وقوانين المجامع المسكونية والتقاليد الرسولية القديمة علي ضرورة الصوم الانقطاعي قبل التناول- لمدة ٩ ساعات علي الأقل - كما هو جاري عليه الحال الي الآن.

غرامة لا تقل عن عشرين الف قطعة من الذهب، ويُدفع نصف المبلغ بعد شـهـر، والنصف الباقي بعد أربعة أشـهـر (وكان ذلك اقـتـراح أحـد الأقباط).

+ فبا ع البابا بيوتاً موقوفة للكنائس. وأنتهز اليهود فرصة ضيقة البابا المالية وأخذوا يساومونه علي شراء كنيسة للأروام، وكانت في تلك الوقت في يد الأقباط، ولكنها كانت مُهدَمة ولا تمارس بها الخدمة. وزعم اليهود أنه كان بها قبر إرميا النبي.

+ وتذكر الكاتبة أنها كانت معبداً يهودياً قديماً، في بداية العصر المسيحي وأنه لما آمن اكثر يهود بابيلون بالدين المسيحي، حولّوها إلي كنيسة مسيحية (باسم الملاك ميخائيل) واشتروها. ولا تزال معبداً لليهود للآن (بجوار كنيستّي بربارة وأبي سرجة).

+ كما أضطر البابا خائيل (الثالث) إلي آخذ آموال (سيمونية) من عشرة أشخاص لرسامتهم في الاسقفيات الشاغرة. وتلتمس الكاتبة له العذر في هذا الأمر، رغم أن ضميره كان يُبكّته.

+ كما فرض الاساقفة مبالغ علي شعبهم، ولكنها لم تكّفِ لدفع الغرامة الباهظة، المطلوبة لإبن طولون، كما صدر أمر بتأجير المقاعد المخصصة في الكنائس لجلوس الرهبان، والتي كان لا يصح لغيرهم الجلوس عليها.

+ ثم مضي البابا الي الإسكندرية، وطلب من الكهنة أربا ع الكنائس التي يصلون فيها ليبيعها فرفضوا، ثم أتفقوا أن يأخذها، في مقابل أن يعطيهم كل سنة ألف دينار، ويكون فرضاً عليه، وعلي كل من يجيء بعده من البطاركة، ومع ذلك لم يُكْمِل البابا المبلغ الباقي لإبن طولون.

+ فمضي قداسته إلي تنيس (بالشرقية) ليساعده أقباطها، ولم يساعده أحدهم (لفقرهم). وفيما كان مهموما، حضر عنده راهب مسكين، فلم يلتفت اليه أحد من رجال البابا. فقال لهم مُتسائلا «ما بال الأب البابا يبدو حزينا؟» فقال له آحد تلاميذ البطريرك خائيل. «لأجل الدين الباقي عليه لإبن طولون».

+ فقال له هذا الراهب: «قل لقداسته: لا تحزن. عن اليوم الي كمال أربعين يوماً تتخلص» (من المشكلة). فمضي التلميذ وقال للبابا هذا الكلام. فطلب لقاؤه فلم يجدوه.

+ وقد تحققت نبوءته فعلاً، إذ بعدما خرج إبن طولون للسفر للحرب مات في الطريق للشام. وتولي بعده إبنه «**خمارويه**» سنة ٨٧٠م. فأرسل وأحضر البابا وأعطاه الصك الموقع عليه منه لأبيه.فمزقه!!

+ وقد ذهب خمارويه إلي دير أبي مقار بوادي النطرون. ونظر جسد القديس مكاريوس الكبير (أبو مقار المصري). فأمر أن يحلّوه عن كفنه، فأمسك بشعر لحيته. ففتح القديس عينيه وتطلع في وجهه. فوقع مغشياً عليه، ثم استفاق.

+ ولما تنيّح البابا خائيل (٩٠٧م)، أقام الملكانيون (الروم) عليهم بطريركا، وافتخروا علي الأقباط. فاجتمع الأساقفة ومضوا إلي دير أبي مقار، وتم اختيار الراهب غبريال (٩٠٩ - ٩٢٠م) للكرسي المرقسي.

+ ولما تمت رسامته في الإسكندرية قال له الكهنة «أكتب لنا بخطك عن إيمانك». فقال للحاضرين: «ماذا حدث في الإيمان؟ أو أزيده أنا علي أمانة (إيمان) آباء نيقية الـ ٣١٨»؟!

+ وطالبوه بالأف دينار، التي تعهد بها البابا خائيل. فلم يستطع سدادها.

فأحوجته الضرورة أن يبعث اليه الأساقفة بالمساعدة المالية، بعدما فرضوا علي رعيتهم دفع كل واحد قيراطاً من الذهب سنوياً للبطريركية.

+ وقيل إنه لم يقم ابداً في الإسكندرية أو في مصر، أو في الأرياف، بل قضي الوقت كله في أديرة، إلا إذا دعته الحاجة الي الذهاب إلي الإسكندرية أو لغيرها، ثم يعود بسرعة إلي الدير!!

+ وقد تم الصلح بين خمارويه والخليفة العباسي «المعتمد» بعد زواجه من إبنة خمارويه المسماه «قطر الندي».

+ وبعد نياحة البابا غبريال تمت رسامة البابا قزما الثالث (٩٢٠ - ٩٣٠م).

+ وكان قد رسم أنبا بطرس مطراناً للحبشة، وفرح به ملكها. ولما قربت نياحة الملك سلّم إليه ولديه، وقال له «من تُرَجِّحْه (في حكمته) أجعله ملكاً». فأختار الابن الأصغر.

+ وفي عام ٩٢٥م، مضي راهب جوّال ومعه راهب يدعي «مينا» إلي الحبشة، وطلب من المطران القبطي مالاً، فلم يعطه. فارتدي ثوب الأسقفية، وزوّر خطاباً باسم البابا يقول فيه: «أرسلنا اليكم المطران مينا. وقد سمعنا إنه جاءكم شخص يُدعي بطرس، وهو ليس من قِبلنا، ومما يؤكد كذبه أنه أخذ إبن الملك الأصغر، وجعله ملكاً دون الكبير - بخلاف العادة - والذي أرسلناه (مع هذه الرسالة) هو المطران الحقيقي».

+ فقرح إبن الملك الكبير. وأخذ أخوه وقيدّه ثم نفاه. وكذلك نفي المطران أنبا بطرس أيضاً، وجعل مينا (المُزَّور) مطراناً!!

+ ولما أنكشفت خدعته أخذه الملك الحبشي (الأثيوبي) وقتله، وأرسل لكي

يُرجِع أنبا بطرس من منفاه، فوجده قد تنيّح. فأخذ تلميذه وجعل عليه ثياب الاسقفية بغير اختياره، عوضاً عن معلمه، وصار يقوم بأعمال الأساقفة بدون رسامة!!

+ فعلم البابا قسما (قزمان ٣) بما فعله الملك، فتوقف عن الرسامة، وظل الحال هكذا الي عهد خمسة بطاركة آخرين (حتي البابا ٦٣)!!

+ ثم تمت رسامة البابا مكاريوس الأول (٩٣٢ - ٩٥٢م) وكان راهباً من دير أبي مقار، وعاش في بلدة دمرو، لأنه لم يقدر آحد من البطاركة أن يُقيم بالإسكندرية، بعد أنبا خائيل.

+ وقرر المرور علي بلدته (شبرا قبالة) ليُسلّم علي والدته، ويُعرِّفها بما ناله من كرامة، بالدرجة الأسقفية السامية (بابا للإسكندرية). وكانت قد كبرت في السن، فلما أقترب البابا من القرية، ذكر لها سكانها أن أبنها البابا في طريقه اليها، فلم تلتفت إلي كلامهم.

+ وظلت جالسة تبكي، وأجابته «أنا حزينة عليك، لأنني كُنت أتمني أن يدخلوا إليَّ بنعشك - وأنت ميت - ولا أراك في هذه المنزلة (الروحية الرفيعة). وكان الواجب عليك - عوض آن تفرح (بالمنصب) آن تبكي، لأن هذا الشعب (القبطي) كله الذي يُكرِمَك، آنت مُطالب بكل ذنوبهم» (وهو درس هام لكل نفس تفرح بالمنصب وتنسي المسئولية آمام الله).

+ وتقول بعض المصادر أنه فكرّ في كلمات أمه الحكيمة. وخدم بأمانة وحكمة، بصفته مسئولاً عن كل شعبه في البلاد كلها.

+ ثم تولي بعده البابا ثيؤفانيوس (٩٥٢ - ٩٥٦م)، وكان من الإسكندرية، وكان قد شاخ وضاق صدره لكبر سنّه وكانت تنتابه حالة صرع، فيثور علي محدثّيه، ولما طالبه كهنة الإسكندرية بألف دينار، التي كان يدفعها

البطاركة السابقون ولم تكن عنده – ذات مرة – فتخاصموا معه وسخروا منه وقالوا: «إن كرامتك بالثياب التي هي من عندنا»!!

+ فخلع الثياب الكهنوتية وألقاها عنه. فحدث له خلل في عقله. وحل به شيطان. فأخفوه في موضع خوفاً من العثرة إلي أن مات وهو في المركب الي مصر.

+ وتمت رسامة مينا الثاني (٩٥٦ – ٩٧٤م). وقبل رهبنته كان والداه قد ألزماه بالزواج، فتفاهم مع زوجته علي البتولية، ثم خرج من عندها. ولم يعرف أحد من أهله مكانه، ومضي سراً إلي دير أبي مقار، وتتلمذ علي يد راهب شيخ قديس.

+ فرشحه أبوه الروحي، ورسموه رغماً عنه، وعندما مر علي قريته مع بعض الأساقفة، أخبرهم أحد سُكانها أنه كان متزوجاً، وأن زوجته لا تزال موجودة. ولما جيء بها، علموا أنهما قد عاشا في بتولية.

+ وقد تم اختيار أفتيخيوس (سعيد بن بطريق) الرومي «وهو مؤلف كتاب تاريخ الكنيسة». وكان أول بطريرك للأروام اشتهر بمزايا لم يشتهر بها سابقيه. وكانت مدة رئاسته ٧,٥ سنة. وذاقت فيها الكنيستان القبطية والرومية أنواع العذابات المختلفة، من حكام الدولة الاخشيدية.

+ وكان الاخشيد يكره مدينة صان (بالشرقية) لأسباب لا نعرفها. فأرسل ضابطاً وفرقة من عساكره اليها. لهدم كنائسها. ولكن أسقفها باع بعض العقارات، وجمع مبلغ ٥٠٠٠ دينار، ودفعها للإخشيد. ليّكف عن هدم كنائسه.

+ وبعد موت البطريرك يوطيخيوس انحطت الكنيسة الرومية في مصر، وظلت

٥٠٠ سنة، لا خبر عنها سوي سرد أسماء بطاركة لم يُنسب اليهم أي عمل يُذكر.

+ وفي زمن الاخشيد تم بناء مدينة المنصورة. وقبل أن يتمها مات، وترك طفلاً قاصراً. وتم وضعه تحت رعاية عبد معتوق إسمه «كافور» وهو سوداني (نوبي) أشتهر بسعة عقله وسمو صفاته، وقام بإصلاح حال البلاد، ووضع لها شرائع وقوانين عادلة ونافعة.

+ وكان سيف الدولة (الحمداني) قد استولي علي أملاك مصر في الشام مع أنه عقد صلحاً مع الاخشيد قبل موته وتزوج ابنته. فأوقفه كافور عند حده. وقضي علي ثورة سوريا ضده. وظل ملك النوبة (السودان) يزعج المسلمين طوال زمن كافور، ووصلت به الحال إلي احتلال مصر بعض الوقت في عهد حكم الوالي السابق الاخشيد.

+ وقيل إنه لما مات كافور، لم تُعلِن حاشيته عن موته، بل حنطوه وأجلسوه علي كرسي، وألبسوه ملابس طويلة الاكمام. وكان يجلس خلف كرسيه المرتفع شخص يُحرك يديه ورأسه عندما يأتي شخص الي قصره، ليُسلم عليه، كأنه يشير اليهم بالموافقة!!

+ وظلت الحال علي ذلك. حيث حكم نيابة عنه العاملون في القصر. إلي أن أنكشف الأمر، بعد ٣ سنوات – ووصل الخبر الي الخليفة الفاطمي الأول المعز لدين الله في المغرب، فاتجه بفكره للاستيلاء علي مصر، منتهزاً فرصة عدم وجود حاكم حقيقي لها!!

+ + +

الجزء الثاني

الفصل الثالث والأربعون

استيلاء الفاطميين علي مصر

(٩٦٤م=٦٨٠ش=٣٠٥هـ)

+ وصلنا – في الجزء السابق – الي عهد الاخشيد في مصر – ولما توفي (٩٦٤م) تولي بعده كافور، ومات بعدما حكم سنتين، وعانت مصر في عهده المجاعة والوباء. وابتدأ حكم الدولة الفاطمية ، بما فيه من ظلم وقسوة كبيرة.

+ فقد أرسل الخليفة المعز لدين الله الفاطمي من المغرب بقائده الرومي (جوهر الصقلي) {الذي كان مملوكاً وتربّي علي الدين الاسلامي} إلي مصر بجيش جرّار، واستولي علي الفسطاط (مصر القديمة) سنة ٩٦٨ م بسهولة، وأظهر له الاقباط والأتراك والعرب الخضوع التام، ولم تتم مقاومتهم للفاطميين. لأنهم كانوا قد سئِمُوا حكم الطولونيين والأخشيديين.

+ ثم آتجه جوهر الصقلي للإستيلاء علي النوبة، فكتب رسالة الي سلطانها جرجس مُظهراً عاقبة عصيانه، وطالباً منه اعتناق الإسلام، ودفع ضريبة الرقيق المتأخرة عليه، بصفة جزية لحاكم مصر الجديد (المعز لدين الله الفاطمي).

+ وأرسل رسالته مع ثلاثة برئاسة عبد الله بن سليم وكان من أهل آسوان، وقد كتب كتاباً عن رحلته للسودان، وصف فيه حالة الممالك المسيحية هناك، في هذا العصر (وترجمه المؤرخ كاترمير الفرنسي) وتحدث عن

مملكتين هما: شمال النوبة وعلوة. ومملكة الجنوب وعاصمتها دنقلة، وهذه الاماكن كانت بها نحو ثلاثين بلدة بها أبنية فخمة وقصور وكنائس وأديرة وأراضٍ زراعية خصبة.

+ كما وصف مدينة صويح (عاصمة علوة = الخرطوم حالياً) وكانت بها كنائس غنية بتُحفها وفنها، وذكر إبن سليم أن المسيحيين كانوا تابعين للبابا المصري، وترجموا الكتب الدينية إلي لغتهم، بينما كان جنوب السودان وثنياً في أغلبه.

+ ولم تنجح رحلة سليم، لأن ملك النوبة - رغم ترحيبه بالوفد الاسلامي - فقد أجاب علي رسالة جوهر صقلي، بعد أخذ رأي مجمع من الأساقفة. برسالة قال فيها: «بعد السلام والتحيات... إننا ندعوكم لاعتناق الدين المسيحي. وأن أجدادي كانوا - علي الدوام - يعاملون المسلمين الذين استولوا علي مصر بكل إخلاص ومسالمة».

+ وختم رسالته بعبارات الود، ولكنه لم يذكر فيها شيئاً عن جزية الرقيق. فعرف ابن سليم بمضمون خطاب ملك النوبة، فقال له: «سيدي الملك، إن وقوفكم أمام القوات الإسلامية ليس بالأمر السهل». ثم شرح له نتائج الغزوات السابقة، التي قام بها المسلمون!!

+ ولما حل عيد الأضحي - وابن سليم هناك - دعا المسلمين المقيمين هناك وعددهم لم يزد عن ستين فرداً. فأقاموا الاحتفالات والمهرجانات، وساروا في موكب ديني في شوارع المدينة بين عزف الطبول وأصوات الأبواق، وقد حاول بعض حاشية الملك منع هذه المظاهر الدينية، فانتهرهم الملك ونهاهم عن باقي أساليب التعصّب. وعاشت الممالك المسيحية السوادنية هناك في أمن وسلام باقي هذا الجيل.

الفصل الرابع والأربعون

بنـــــاء القاهـــــرة

(٩٧١م=٦٨٧ش = ٣٦١هـ)

+ استمر حكم الفاطميين نحو مائة سنة. واستراح في بدايته الأقباط، كما تعودوا ذلك عند كل تغيير لحاكم جديد.

+ وقد حكم القائد الصقلي باسم سيده - الخليفة المعز الفاطمي - مدة ٣ سنوات، وسعي إلي تخفيف الضرائب وانتظام العمل واستتباب الأمن، وتطهير الترع المُهمَلة. فتحسّن الري وتمهدّت الطرق للتقليل من آثار المجاعة التي كانت متفشية، وصحب ذلك ارتفاع الفيضان، فارتاح الشعب من الحكم الجديد (الفاطمي).

+ وكان الأقباط يسكنون **منطقة بابيلون**، وقد رمموا حصنها، ثم بنوا فيه الكنيسة الكبري «مارجرجس» علي أبراجه. وكان يلتصق بمصر القديمة مدينة الفســطاط التي بناها ابن العاصي، وفي الشمال الشرقي منها مدينة **العسكر**، التي بنـــاها ابن طولون بالقُرب من سفح تلال المقطم، والتي دعاها المصريون بعد ذلك باسم «مصر القديمة»[١]، وإسم مصر مُشتّق من «**مصرايم**» من نســـل نوح، لأنه أول من جاء اليها بعد الطوفان.

+ ومات المعز سنة ٩٧٥م، وتنيّح - في السنة نفسها - البطريرك القبطي يوحنا (والأصح مينا) الثاني.

+ وتولي العزيز بن المعز، وكانت إحدي زوجاته مسيحية يونانية، فتمكنت من

---

(١) مصر القديمة تشمل فقط منطقتي بابيلون والفسطاط.

تولية أخويها أرسانيوس وجرمباخ بطاركة علي الإسكندرية وأورشليم وتابعين للكنيسة اليونانية (الملكانية).

+ وعانت الكنيسة القبطية من اضطهاد شديد بيد الخليفة العزيز.

+ وقد عقد الاساقفة مع قسوس الإسكندرية مجلساً إكليريكياً لانتخاب بطريرك جديد في كنيسة سرجيوس وباخوس (أبي سرجة بمصر القديمة). وفي أثناء الاجتماع دخل تاجر سوري مشهور بالأدب وكرم الأخلاق ويُدعي «إفرايم» فوقع نظرهم عليه (اختاروه للبطريركية) وكان متزوجاً. فتغاضوا عن ذلك الشرط لما له من منزلة[1].

+ ومكث هذا البابا ثلاث سنوات فقط علي الكرسي المرقسي (٩٧٥ - ٩٧٨م) وقي آلغي السيمونية (بيع الرتب الكهنوتية) وجعل رسامة القسوس وتقلّد الوظائف الدينية والتدشين والتكريس من أعماله الخصوصية، وله علي ذلك شيئاً معلوماً من الشعب، ولم تزل آثار هذه العادة باقية إلي الآن (في أيام الكاتبة)[2].

+ وقد سعي لنمو الشعب في الفضيلة، ومنع تعدد السراري (في بيوت الموظفين) وبدون عقد شرعي (لأنه زنا)، مما أديّ إلي سقوطه شهيداً للدفاع الشريف عن تعاليم المسيح.

+ فقد كان لرجلٍ يُدعي آبو السرور عدد من السراري والمحظيات. وكان له

---

(١) تجمع المصادر القبطية كلها آنه كان بتولاً، وتعليق الكاتبة ليس في محله لآنه كان من المستحيل التغاضي عن شرط البتولية الرئيسي للرسامة للكرسي المرقسي الآرثوذكسي.

(٢) إذا كان القديس إبرام بن زرعة (البابا ٦٢) قد آلغَي السمونية. فكيف يقبل آموالاً من الشعب للرسامات؟! وهذا التناقض يُظهر أن رواية وتعليق الكاتبة ليس سليماً.

منصب رفيع في الحكومة، وأن البابا عنّفه وحرمه، فتسبّب هذا الشرير في تسميمه وموته.

+ وكان هذا القديس محبوباً من المعز، واقترح عليه أن يطلب ما يشاء، فيُجيبه إلي طلبه، فطلب منه أن يُعيد بناء كنيسة القديس مرقوريوس[١] التي تخرّبت من قبل، وذكر المؤرخ أبو صالح أن الخليفة المعز قرر بناءها علي نفقة الدولة، ولكن البابا رد المبلغ له، وأنه لما اعترض الاشرار علي البناء أرسل إبنه العزيز مجموعة من الجند لحراسة البناء[٢] وأن الشعب القبطي قدم له مبلغاً كبيراً، صرفه قداسته في بنائها.

+ وكان ذلك في عهد المؤرخ الشهير أسقف الاشمونين (ساويرس الشهير بإبن المقفع) وله مؤلفات كثيرة لم يُطبع منها شيء (في عهد الكاتبة) ومنها كتابه (عن تاريخ البطاركة) وقد نسقّه بعد نياحته الانبا ميخائيل · أسقف صان (بالشرقية)، وتوجد منه نسخة باللاتينية، بقلم المؤرخ رينودو.

+ وخلف الانبا ابرآم السرياني البطريرك فيلوثاؤس (٩٧٩ - ١٠٠٣م)، الذي سار علي خطة سلفه. وفي عهده اعتنق بعض المسلمين الديانة المسيحية.

---

(١) قالت الكاتبة أنها كنيسة (دير) أبي سيفين بطمّوه بالجيزة، والواقع أنها كنيسة هذا القديس **بالفسطاط**. وقد تغافلت الكاتبة عن ذكر سبب رضاء المعز عنه. وكان سبب تحقيق هذا الطلب بعد إتمام معجزة نقل جبل المقطم، والتي لا يذكرها المؤرخون الغربيون والمسلمون للآسف، رغم أن الأسقف ساويرس (إبن المقفع) **أسقف الاشمونين، كان حاضراً وسجلها في تاريخه** {تاريخ البطاركة، من إعدادنا، طبع مكتبة المحبة}.

(٢) وتقول المصادر القبطية أن أحد المتعصبين ألقي بنفسه في الأساس، فجاء المعز بنفسه، وطلب ردم الأساس عليه، ولكن البابا رجاه، أن يصفح عنه، فأخرجوه حياً.

+ وذكر المؤرخ الإنجليزي نيل (Neale) أن رجلاً من مشيري الخليفة المعز قد اعتنق المسيحية[1]، وأنه تعب في تربية إبنه «واصا» (الواضح بن رجا في المصادر القبطية) تعباً كثيراً لمضادته للديانة المسيحية وكراهيته للمسيحيين.

+ وبينما كان هذا الشاب (المُتعصب) مجتازاً في الصحراء (والأصح بفم الخليج بمصر القديمة) رأي شاباً مُسلماً يسوقونه ليُحرق، لأنه صار مسيحياً، فوبخه، وأوضح له إنه يتبع دين الثلاثة آلهة!!

+ فقال له الشاب: «أنا لا أتبع إلا دين الإله الواحد، المثلث الأقانيم».

+ وأضاف قائلاً: «وسيأتي يوم يتضح لك فيه هذا الحق، فتجاهد متألماً لأجله مثلي».

+ فغضب ورفسه بكل قوّته، فاحتمل هذا الشهيد، كل هذه الإهانات بصبر غريب. وتبعه «واصا» إلي مكان الاستشهاد. فرأي ما هاله من هذا المجاهد، ولم يقدر أن يصرف ما ذكره الشهيد له عن فكره. فعزم أن يطرد تلك الأفكار بالحج إلي مكة.

+ وفيما هو مسافر في الطريق - رأي في حلم راهباً كبير السن (تقول المصادر القبطية إنه «أبي مقار الكبير» ناداه وقال له: «إن كُنت تريد أن تعرف قيمة خلاص نفسك، فقُم وأتبعني» وتكرر الحلم والكلام ثلاث مرات. وحكاه إلي مُرافقيه، فأعلنوا له أنه من قبيل التخيُّلات الشيطانية!!

+ وبعد الحج، وقبل وصوله للقاهرة، افترق عن رفاقه. فضّل الطريق. وحل

---

(١) والواقع أنه كان قاضياً مسلماً متشدداً، كما تسجله المصادر القبطية.

عليـه الليل فـجـاءه فـارس، وطلب منه أن يتـبـعـه، فـأوصله إلي كنيسـة مسيحية. وعند الفجر عثر عليه خادم كنيسة بالفسطاط فظنه لصاً، ولكنه هدّأه وسـأله عن إسـم الكنيسـة. فقال له إنها كنيسـة القديس مرقوريوس، وأراه أيقونته. وحكي له قصة جهاده، فرآها تشبه صورة الفارس الذي أنقذه من خطر التواجد وحده في الصحراء.

+ ولمـا جاء الكاهن شرح له الإيمان المسيحي. وقام بتعميده وأسمّاه «**بولس**» بينما عــرف أهله – مــن الحجاج – إنه هلك، ولكن شخصاً رآه خارجاً من الكنيسـة بدير أبي سـيـفين بطموه (والأصح بكنيسـتـه بمصـر القديمة). فأخذه أبوه إلي بيته. وعذبوه بالحبس والجوع. فلـم يرجـع عن الإيمان المسيحي.

+ ولما كان أهله يحبونه ولا يريدون إشهاره. فقد تركوه يمضي. فذهب إلي وادي النطرون. وهناك أخبره راهب بأنه يجب أن يُشهر إيمانه في وطنه، فمضي لمصر القديمة وأعلن مسيحيته. فحبسوه في سرداب مُظلم ستة أيام، وأتوا اليه بزوجته الجميلة التي اقترن بها قبل أن يتنصَر. فأخذت تستعطفه وترجوه أن يعطف علي إبنه الصغير، فلم يقبل، ثم أخذ أبوه ولده وذبحه قدامه (وفي المصادر القبطية تم تغريقه في النيل).

+ فـسلّمـه أبوه ليـحكم عليـه الوالي «العـزيز بـالله»، فـصـار يتـضـرع اليـه ويسـترحمه لكي يبقي حياً. وتوسلت اليه زوجته ألاّ يُميته، فأشفق عليه وأطلقـه. فـذهب إلي الصـعـيـد وتصـادق مع أنبـا سـاويرس أسـقف الاشمونين، ثم سافر للسودان. حيث شيّد كنيسة رئيس الملائكة ميخائيل علي حدود الحبشة[1].

(١) وتذكر المصادر القبطية أنه تناقش مع الوالي الحاكم بأمر الله. ولم يستطع أن يتغلب علي منطقه فأطلقه، فمضي إلي جنوب مصر القديمة، وشيد كنيسـة «الملاك ميخائيل» (كنيسة دير الملاك القبلي حالياً).

+ ثم عاد إلي مصر لينال درجة كاهن، وتقابل مع البابا فيلوثاؤس، وطلب منه أن يرسمه كاهناً، فطلب البابا منه دفع الرسم المقرر، فدفعه له أحد المومنين، فرُسم قسيساً. وقد أُبطلت عادة دفع الرسوم (السمونية) للرسامة في عهد البابا إفرايم[1].

+ ولما سمع أبوه بأنه صار كاهناً (في الدير) اشتد غضبه، واستأجر واحداً من الأعراب لقتله. فهرب الي كنيسة بالوجه البحري، وعمل بها. ثم تنيّح بعد سنتين، وكان قد أوصي وكيل البطريرك بالمحافظة علي جسده، حتي لا يعبث به المسلمون، وهو الذي روي سيرته للمؤرخ أنبا ميخائيل أسقف صان الحجر (بالشرقية).

+ وقد استولي بطريرك الروم علي كنيسة قبطية رغم تشديد العزيز بالله بمنع الاضطهاد عنهم، وبعد سماحه للروم بأن يضايقوا الأقباط، عاد ورضي عنهم.

+ وكانت حروب قد قامت في الحبشة لأن إمرأتين قد اختلستا العرش بالتتابع، وقتلتا جميع ذرية الملك، ماعدا واحداً شرع في استرداد العرش. وكتب للبابابمصر رسالة (محفوظة بلندن) لإنقاذ الحبشة من تردِّي أحوالها الروحية. وذكر لقداسته أنه قد مرت مدة تولي فيها ستة بطاركة أقباط علي الكرسي المرقسي[2]. ولم يُعيِّن لها مطران بعد الذين تنيحوا، ثم قال لقداسته: «إننا قاسينا هذه الشرور، جراء ماقترفناه ضد الكنيسة المصرية الأم».

---

(١) لم يطالبه البابا بمال لرسامته، وإنما كانت المطالبة هي من حاشيته، لمحبتها للمال. وقد مُنعت السيمونية في عهد البابا إفرآم بن زرعة، والسابق للبابا فيلوثاؤس، وليس بعده كما قالت الكاتبة.

(٢) والأصح ٤ بطاركة، لأن البابا قسما (قزمان الثالث) هو آخر من أرسل مطارنة للحبشة. وبينه وبين البطريرك فيلوثاؤس أربعة بطاركة (مكاريوس، ثيوفانيوس، ومينا، وإبرام بن زرعة).

+ فرسم لهم الراهب دانيال، من دير مرقوريوس (بطموه)، فاستقبله الشعب بالفرح، وبواسطته نجح الملك الصغير في استرداد عرشه، لأنه قد تم حرم الملكة المغتصبة وإعدامها.

+ + +

الفصل الخامس والأربعون

اضطهاد الحاكم بأمر الله الفاطمي للأقباط

(٩٩٦م=٧١٢ش=٣٨٦هـ)

+ مات العزيز بالله، فخلفه إبنه المنصور (= الحاكم بأمر الله)، وكانت أمه المسيحية (اليونانية) قد غرست فيه بعض الصفات الحسنة. فتمتع المسيحيون في - بداية عهده - بالراحة. وكانوا ينصفونهم في المحاكم، ويركبون الخيل ويلبسون أغلي الثياب ويعملون في مصالح الحكومة.

+ وأنفجر غضب المسلمين علي الاقباط بعد موت أمه، وبعدها تغيرت أطوار الحاكم بأمر الله. فادَّعي النبُّوة ومنع المسلمين من صلاة الجمعة وعيدّي الفطر والأضحي، وتحريم الحج لمكة. وسعي لإلغاء الاسلام، فاحتقره الشعب. وأذل اليهود. وأعتبره المسيحيون المسيح الدجال!!

+ وجلس البابا فيلوثاؤس علي الكرسي المرقسي ٢٤ سنة، وقضي كل زمانه في هدوء، إذ لم يبدأ الاضطهاد - الذي تم بيد الحاكم بأمر الله - إلا بعد نياحته، اذ لم يستطع تكملة القُدّاس، وفارق الحياة.

+ واختار الاسكندريون تاجراً علمانياً. بينما رفضه الأساقفة، وأنتخبوا صراف كنيسة القديس مرقوريوس ورسموه بطريركاً، ورسموا المرشح الآخر أسقفاً لمفيس (البدرشين).

+ وكان البابا زخرياس (زكريا = ١٠٠٤ - ١٠٣٢) مُحباً للسلام، ولكنه لم يُسَّره بعض الأساقفة لمخالطتهم عامة المسلمين في زمن العزيز بالله، وكانوا ينالون درجة الأسقفية بالمال في عهد البابا فيلوثاؤس، أما البابا زخريا فكان يدقق في شخصيات الرسامات، ولا يقبل مالاً، ولكن أعوانه كانوا يختلسونها منهم سراً. وجعل مجلساً أكثره من أقربائه، الذين جمعوا أموالاً بطرق غيْر شرعية كما يلي:

+ كان كاهناً لكنيسة قرية أبي نفر بالجيزة، (بالقرب من دير القديس مرقوريوس). إسمه حنا. وكان راغباً في رسامته أسقفاً، ولكن مجلس الأساقفة وجده غير صالح لهذه الدرجة، فرفضوا طلبه (وقيل لأنه كان متزوجاً، كما قيل لعدم دفعه مالاً) فحرَّضه المسلمون للشكوي للخليفة، ووعده البابا بالرسامة، ولكنه سمع لصوت الأساقفة. فحبسه الحاكم بأمر الله في السجن، وبعد ٣ أشهر ألقاه للأسود فلم تضرّه.ثم أعاده للحبس، مرة أخري.

+ وأمر الحاكم بأن يعترف الناس بألوهيته، وأعدَّ لذلك سجلات لقيد أسماء الذين يعترفون بأوامره الكُفْريّة، وبلغ عددهم ١٦,٠٠٠. ولم يكن منهم مسيحي واحد بالطبع.

+ وأحرق بابيلون (مساكن المسيحيين) وأمر بتقليع الكروم لمنع عمل خمر الأباركة الخاص بالسر الأقدس. وقتل الحاكم إثنين من الموظفين الأقباط. وطلب من المعلم غبريال أن يُرّقيه لمنصب رئاسي إذا ما أعتنق الاسلام. فمضي إلي أهله وشجعّهم علي احتمال الاضطهادات بإيمان، ثم أعترف بإيمانه أمام الحاكم بأمر الله، فأمر بجلده ألف جلدة. فلما بلغ عدد الجلدات - المضروب بها - ٨٠٠ جلدة مات واستشهد ونال إكليله، ومع ذلك أمر الشرير باستمرار جلد جثته، حتي أكلموا الألف جلدة!!

+ وبعد ذلك تم القبض علي المسيحيين من العاملين، فثبت أربعة علي الإيمان ومات أحدهم فجأة، أما الثلاثة الباقون فتم حبسهم حتي انتهاء الاضطهاد، وأما الأربعة الآخرون فقد اعتنقوا الاسلام، فراراً من العذاب الأرضي (وأضاعوا أكاليلهم لعدم حكمتهم)·

+ وأمر بهدم كنيسة القيامة بالقدس، واستدعي البطريرك إرميا (خاله) إلي مصر وقطع رأسه، وأما أخوه البطريرك أرسانيوس فقد هرب من عذابه (وكانا شقيقين لزوجة والده العزيز بأمر الله الرومية)·

+ ويذكر المؤرخ المسلم المقريزي إن الحاكم بأمر الله اشتد علي أقباط مصر، ونهاهم عن الاحتفال بأعياد الميلاد والغطاس والقيامة، وحرق الصلبان، وأحرق كنائس مصر القديمة، وخرّب كنائس المكس (خارج الإسكندرية) ونهب أوانيها (المقدسة) وعرضها للبيع، وهدم دير القصير[١]، وسمح لرعاع المسلمين بسلبه ونهب محتوياته.

+ وألزم كل قبطيبأن يُعلّق في رقبته صليباً وزنه ٥ أرطال. وحظر عليهم ركوب الخيل.وأمر أن يلبسوا عمائم سوداء. وألزم اليهود بأن يعلقوا في أعناقهم حجراً مستديراً وزنه ٥ أرطال. وتدمير كل الكنائس المصرية!!، وسلب أمتعتها وأوانيها وإقامة جوامع علي أنقاضها، وأن يؤذن للصلاة في كنيسة أنبا شنودة بمصر القديمة. وسلبوا مابها، وما في كنيسة المعلقة، واستولوا علي الأوقاف القبطية.

---

(١) بناه الامبراطور أركاريوس تذكاراً لمعلمه القديس أرسانيوس. وكان قد قضي به القديس ٣ سنوات في آخر عمره في كهف هناك، وتسمّي بدير يوحنا القصير. وكنيسته باسم القصير، أو دير البغل، بعدما هدمه الحاكم ثم أعيد بناؤه، لأن بغلاً كان يحمل اليه المياه من النيل وحده، ولا تزال خرائبه موجودة للآن (في زمن الكاتبة) {**هامش أصلي**}.

+ وذكر المقريزي أن الكنائس القبطية التي تخربت بلغت ثلاثين ألفاً، في مصر والشام والنوبة، بما فيها كنائس الروم وقصورهم، وآوانيها النفيسة. وأمر كل قبطي يذهب إلي حمأم عام أن يُعلق في رقبته صليباً، وأن يُعلق اليهودي في رقبته جرساً!!

+ وتمادي في شرّه حتي أمر بطرد اليهود[1] والأقباط إلي بلاد الروم، فتجمهّر الألوف منهم وذهبوا إلي قلعته يستعطفونه ويطلبون إليه إعفاءهم من النفي، حتي رضي عنهم، فلم يهاجروا.

+ وظل الاضطهاد مستمراً ٩ سنوات، حتي أسلم كثيرون. وكان البابا زخاريا محبوساً، وكان الحاكم يهدده بالحرق، آو يعده بالهبات إذا اعتنق الإسلام هو وشعبه، ولكنه ثبت إلي النهاية، حتي سِئمَ منه الحاكم بأمر الله، وأخلي سبيله، فذهب إلي وادي النطرون وأقام هناك.

+ وكانت الثلاث سنوات الأخيرة من أقسي الأيام، حتي لقي فيها الأقباط الأهوال وعانوا من جميع أشكال الظلم. وأبطل الحاكم العبادة في الكنائس ماعدا تلك التي في الجبال (الأديرة) وكان الاقباط َيرّشُون حكام البلاد ليسمحوا لهم بالعبادة في البيوت سراً. فعلم ذلك الحاكم بالله الشرير، وأمر بمحو الديانة المسيحية تماماً.

+ وكــان راهب يُدّعي «**بيمين**» قد أعتنق الإسلام وتقرّب للحاكم، وتمكن بدهائه من استصدار أمر منه يقضي بالعفو عنه (بعد رجوعه للمسيحية) وعن إخوانه الأقباط. فعاد إلي كنيسة القديس مرقوريوس (أبي سيفين

---

(١) رأت مدام بوتشر إن النفي كان لليهود فقط، لأن الأقباط كانوا يتوقون للهرب من مصر، إلا آن الحاكم بأمر الله حظر انتقالهم من جهة إلي أخري.

بطموه)[1]. وزاره الحاكم في تلك الكنيسة. فاستصدر منه أمراً بعودة الأقباط إلي السُكني في بابيلون.

+ ورجع البابا زخريا وأقام في هذه الكنيسة مع بعض الأساقفة والكهنة ومعهم الراهب «بيمين»، فرآه الحاكم بامر الله هناك وأندهش من تواضع حاله ومن استقباله له بغير خوف، وسأل بيمين عن سلطة هذا البطريرك فأخبره بأنها تمتد الي مصر وليبيا والسودان والحبشة.

+ فتعجّب الحاكم وقال: «إننا رغم نفوذنا المادي، وصرف مافي خزائننا وقواتنا، لم نستطع بعد أن نُخضع الناس، بمجرد رسالة، مثل تلك التي يُوّقع عليها هذا الراهب البسيط ـ باسم الصليب – فلاشك أن للديانة المسيحية من التأثير ما ليس للجيوش الجرّارة من القوة الجبارة»!!

+ ولما كان هذا الخليفة غريب الأطوار، فقد أدار وجهه الي الخلف وخرج من الكنيسة، وكان كثير من الشعب مجتمعين داخل الكنيسة ـ وحول أسوار الدير ـ ينتظرون ماسيكون من أمره، بعد هذا اللقاء الغريب والمفاجيء!! وإن ظن الجميع أنه سُيحيط الدير بعسكره، ويُهلك كل من فيه من الآباء.

+ وزاد اعتقادهم هذا بمجيء يوحنا كاهن كنيسة «أبا نفر»، وهو الذي حصل بسببه هذا الاضطهاد– وهو أيضاً الذي غرَّر بالخليفة، ودفعه لسجن البابا زخريا – وأفهَّم الحاكم بأمر الله أنه رسول الله، ونائب العزة الإلهية في الأرض!!

---

(١) والأصح بدير طرة شمال حلوان.

+ وقام الكاهن المسكين بالتلطف مع البابا. ثم طلب ترقيته للدرجة الأسقفية التي اشتهاها، وروي بعض المؤرخين أن الأساقفة اغتاظوا من البابا، لأنهم رأوه ميالاً لترقية يوحنا هذا إلي رتبة الأسقفية، في حين أنه كان هو السبب في جميع البلايا التي حلت بالأقباط في كل السنين (التسعة) السابقة، ومع ذلك رقّاه إلي درجة «إيغومانوس» (قمص) فقط.

+ ولما علم البابا والآباء بعودة الخليفة، ظنوا أنه جاء للإنتقام منهم، ولكنه دخل إلي الدير وناول البابا ورقة تضم **قراراً بإباحة الحرية للأقباط، ورد جميع كنائسهم، وإعادة كل ما سُلِب من الأواني، وجميع الأراضي الموقوفة، وكل ما سلبه المسلمون منهم!!**

+ وبذلك أنقضي الاضطهاد وعاد الأقباط لسابق عزهم ومجدهم. ونال الحاكم جزاءه. فقد قيل إن رجال بلاطه (وقيل بأمر أخته) قد إغتالوه، عندما كان منفرداً - كعادته - في المقطم. وتم العثور علي جثة مرافقيه، أما جثته فلم توجد، فأشاع بعض مريديه أنه رُفع حياً للسماء، وسينزل في نهاية الآيام (وكان قد نقل هذا الزعم شخص يُدعي دُرزي). ولا يزال الدروز - إلي الآن في لبنان - يؤمنون بتلك الخُرافة، ويتبعّون طريقة ذلك المبتدع المُختل العقل.

+ كان الحاكم بأمر الله قد أنشأ «هيئة علمية» سنة ١٠٠٥م، كما أسس مكتبة عظيمة، ضمت مختلف العلوم والفنون، وأوجد لها كتبة للنسخ، وقد أبطل تلك الهيئة رجل يُقال «الفضل» سنة ١١١٢م، لما رأي فيها من تعاليم مخالفة للإسلام، ولكن تمّت إعادتها، وظلت حتي نهاية حُكم الدولة الفاطمية في مصر.

✠ ✠ ✠

الفصل السادس والأربعون

البابا شنوده الثاني (٦٥) والبابا خريستوذولس (٦٦)[١]

+ مات الحاكم بأمر الله مقتولاً بمساعي أخته وقائد جيشه، وبويع بالخلافة إبنه الظاهر لإعزاز دين الله، وكانت عمته هي التي تقوم بتدبير المملكة في أيامه حتي ساعة مماتها.

+ وتفرّغ البابا زخريا لترميم ما تهدّم من الكنائس لمدة ١٢ سنة، غير أنه تنيّح قبل أن يتم باقي الكنائس.

+ وأنتخب الأساقفة راهباً يُدعي «**شنودة**» من دير أبي مقار. وقد أعفته الحكومة من الرسوم المقررة علي البطريرك الجديد، ولكنه فرض مبالغ علي رسامة الأساقفة والكهنة، مع تفضيل من يدفع أكثر!! وقام برسامة يوحنا كاهن كنيسة أبي نفر، أسقفاً للعريش، علي أن يدفع كل سنة ٦ دينارات، وبذلك أتته تلك الفرصة التي لم ينلها في عهد البابا السابق.

+ وباع البابا شنودة الثاني (١٠٣٢ - ١٠٤٦م) أسقفية نيقيوس للأسقف رافائيل بمبلغ ١٢٠٠ دينار، وأسقفية ليكوبوليس (أسيوط) لقمص بها، بمبلغ غير معروف، ولكن شعبها رفضه (بسبب السمونية) فرجع للبابا لكي يأمر الشعب ليقبله، أو ليُرد له نقوده، فرفض البابا كلا الطلبين.

+ كما أصدر البابا شنودة أمراً بأن تكون مقتنيات الأساقفة **حقا للبطريركية**، بعد نياحتهم، ولا يزال هذا القرار معمولاً به للآن[٢]

---

(١) البابا شنوده الثاني (١٠٣٢ - ١٠٤٦) والبابا خريستونولس (١٠٤٦ - ١٠٧٧م).

(٢) ليس معمولاً بهذا القرار البابوي حالياً بالطبع.

(١٨٩٨م) وأول من تم تنفيذه فيه أسقف شنان الذي تنيّح، فتوسل أخوه للبابا أن يُبقي له شيئاً يرتزق منه، أو حتي يترك له منزله ليسكن فيه، فرفض. فأعتنق الاسلام وقاضَي البابا، أمام المحاكم الشرعية، التي حكمت بأن يأخذ هذا الرجل مقتنيات أخيه الأسقف الراحل!!

+ وكانت تصرفات هذا البابا المُخجلة في بيع الدرجات الكهنوتية وتحصيل رسوم باهظة، جعلت البعض يُقبِلون علي دفع الرشاوي للحصول علي تلك المناصب الدينية الرفيعة!!

+ في السنة الثانية من جلوسه علي الكرسي المرقسي. رفض دفع الإعانة المالية المقررة لكهنة الاسكندرية. فرفع وكيل البطريركية بالإسكندرية دعوي علي البابا لدي المحاكم. فحكمت له بأخذ المبلغ المطلوب من إيرادات الأوقاف بالإسكندرية.

+ وقلّد الاساقفة البابا في الحصول علي مبالغ نظير رسامة الكهنة. فذهب السيد بكر - شريف المسلمين - إلي مجمع الأساقفة ووبخهم. وذكرّهم بأمانة البابا إبرآم بن زرعة، الذي حرّم عادة الرسامة بالمال (السيمونية) وحذّرهم بأن المصائب التي تحل بالأقباط - من وقت لآخر - هي إنذار من الله، للكّف عن هذا السلوك السيء. وكان هذا المسلم قد كتب إقراراً، وقعّ عليه البابا شنودة تعهد فيه بعدم آخذ مال. فاسترده منه وقام بتمزيقه أمام بكر - وأمام الحاضرين - وانفض الاجتماع علي هذا الشكل القبيح (المُعثِر).

+ واستمع الأساقفة إلي نصائح البكر - عميد المسلمين - ولكن زاد عناد البطريرك المسكين، ورفض التوقيع علي محضر صلُح مع الآساقفة، واشتّد غيظه ووبخ الشريف المسلم علي تدّخله فيما ليس له.

وأمر رجاله بضربه. ولم يتعرض المسلمون للأقباط بأذي، ولكن زاد الأنقسام واختّل حال البطريركية، كل أيام حياة البابا شنودة الثاني الغير حكيم!!

+ ومات الخليفة الظاهر سنة ١٠٣٦م، وتولي بعده ابنه المستنصر بالله، وكان عمره ٧ سنوات، وبقي خليفة ٦٠ سنة!!

+ وعقد المستنصر معاهدة مع سلطان الآتراك بأن يُطلق الأخير سراح أسري المسلمين، في الحرب التي نشبت بينهما، بشرط آن يسمح الخليفة الفاطمي – لسلطان الاتراك – أن يعيد بناء كنيسة القبر المقدس، التي تخرّبت في عهد الحاكم بأمر الله. فقبل الطرفان، وتم تجديد كنيسة القيامة في ذلك الوقت.

+ وفي عام ١٠٤٦م مات البطريرك شنودة بداءٍ قاسي (كدرس إلهي هام لكل إنسان غير حكيم، وغير أمين في خدمته). وخلفه البابا خريستوذولس (= عبد المسيح).

+ وانشغل البابا الجديد (١٠٤٦ – ١٠٧٧م) بإصلاح الكنائس، وكان الأقباط قد جددوا خمس كنائس بجهود ذاتية، فدشنها كلها في يوم واحد، ووضع قوانين للإصلاح بلغ عددها ٣١ قانوناً ممتازاً، مما يدل علي حكمته، وتشمل ما يلي:–

١) منع الزواج في الصوم الكبير. ومنع العماد وتجنيز الموتي في أسبوع الآلام.

٢) عدم قيام أسقف – أو كاهن أو شماس – غير قبطي أرثوذكسي بأن يمارس الخدمات الروحية في الكنيسة القبطية.

٣) ضرورة صوم الرسل وصوم الميلاد، وصوم يومي الأربعاء والجمعة (ماعدا الأيام الخمسين بعد القيامة).

٤) يُحظر علي الأقباط أن يتزوجوا بغير أرثوذكسيات، وعدم الاقتران ببنات الكنيسة الرومية، (وكذلك بالنسبة للأرثوذكسيات).

٥) ولإذا تخاصم شماس (deacon) مع الكاهن الذي يناوله القربان (السر المقدس) فلا يجوز له أن يتناول عند كاهن آخر (لأجل دوام الأُلفة والسلام بين الخُدَّام)، وكذلك الحال مع الأعضاء (شعب الكنيسة).

٦) من لا يرتضي بحكم البطريركية (المطرانية) وأراد أن يستأنف دعواه لدي محاكم الحكومة (المحاكم الشرعية) إن كان كاهناً يُفصل من وظيفة الكهنوت. وإن كان علمانياً يُحرم من الكنيسة .... الخ.

+ وزاد الجوع والوباء عن حد القياس. وبانشغال المستنصر بالوباء والمجاعة وكتابته لامبراطور اليونان بالتعاون معاً. فقد بقي خريستونولس في دمنهور آمناً كيد الأعداء، ونجا من الاضطهاد.

+ وذات مرة مرَّ أحد قضاة المسلمين علي بريمورا أي دمنهور[1]، وكان يقيم بها خريستونولس. وأندهش من روعة مبانيها، وأنه قد شُيدّت فيها ١٧ كنيسة حديثاً، علاوة علي ما كان بها من قبل. كما ذكر - كذباً - أن المنزل الذي كان يُقيم به البطريرك القبطي منقوش عليه عبارات تهين الدين الاسلامي.

---

(١) أوضح المؤلف نيل (Neale) ديمورا بأنها هرموبوليس بارفا (Hermopolis Parva) وهي في نظره دمنهور، ولكن ذلك غير صحيح، لأن المؤرخ والأثري كاترمير ذكر بأنها تُدعي «تيمورا» وهي في كفر الشيخ وليست في البحيرة.

+ فأرسل الوزير للقاضي - الذي أعلن ذلك - لكي يقرأها، ويتأكد من صحتها، فلم تكن سوي عبارة «باسم الآب والابن والروح القدس الإله الواحد. آمين». فأمر القاضي البابا بمحوها. فلم يعارض في ذلك، ثم علّق قداسته بأن محوها من علي السور لا يمحوها من صفحات قلبه.

+ فعاد واستصدر من الوزير أمراً بهدم جميع كنائس القطر، وكان المسئول عن التنفيذ مشهوراً بكراهيته الشديدة للمسيحيين، فخرّب كنائس دمنهور (بديمورا) وأغلق كل كنائس الدلتا. وفرض علي الاقباط غرامة قدرها ٧٠٠٠ دينار، نظير عدم هدم الكنائس والاكتفاء بغلقها، وأسرع الرب بقصف عمره، إذ سقط عن جواده فجأة ومات. وانفرجت أزمة بيوت الله علي الفور!!

+ أما والي الاسكندرية فكان مشهوراً بالعدل والرفق بالرعية. فلما صدر اليه أمر بتخريب كنائسها أخبّر أحد المسيحيين. وطلب منه أن يخفي كل غالٍ بالكنائس ليلاً. فلما جاء الجند - في اليوم التالي - لم يجدوا سوي بعض الحصير والستائر.

+ فأعلم الوالي الخليفة المستنصر بأن أقباط الاسكندرية فقراء. ولا يقدرون علي دفع الستة آلاف دينار المطلوبة منهم. فأمر بتخفيض المبلغ الي ١٠٠٠ دينار، فدفع الأقباط نصفها، ودفع اليونانيون (الروم) النصف الثاني، وتسلّم البابا كنيسة واحدة، وكانت هي بيت آنيانوس تلميذ القديس مارمرقس الرسول وخليفته.

+ وذكر كاترمير - نقلاً عن كتاب مخطوط - إن رأس الشهيد يوحنا المعمدان كانت محفوظة - إلي ذلك الوقت - في الاسكندرية، وخبأُها الاقباط خوفاً من أن يأخذها المسلمون.

+ ثم عاد الخليفة إلي اضطهاد الأقباط بشدة. فتم القبض علي البابا، ووجدوا في خزينته ٦٠٠٠ دينار فأخذوها، وتم إطلاق سراحه، بتوسط بعض كبار الموظفين الأقباط بالدولة.

+ وفي عهد المستنصر، عيّن ١٢ وزيراً بالتتابع، لعدم آمانتهم، بعكس الأقباط الذين كانوا يُظهرون الآمانة والاجتهاد، **فلم تكن الحكومة تستطيع أن تستغني عنهم**، وكثيراً ما كانوا يخلعون العشرات والمئات من الموظفين الأقباط، ولم يلبثوا آن يعيدوهم للعمل مبجلّين، إذ لم يكن في المسلمين من يحل محلهم في حل المشاكل الادارية والمالية الصعبة.

+ وفي ذلك الوقت حدثت في مصر زلزلة قوية مات فيها ٢٥ آلفاً علي أقل تقدير!!

+ + +

الفصل السابع والاربعون

الوزير بدر الجمالي الأرمني

(١٠٦٥م = ٧٨١ش = ٤٥٨هـ)

+ لما كانت آم المستنصر سودانية الأصل، فنتيجة ميلها لأبناء جنسها زادت من استخدام السودانيين في الحكومة. كما كوّنت منهم فرقاً بالجيش والحرس الملكي، فأغتاظ العرب والاتراك. وقامت بينهم مذابح، وعجز الخليفة - القاصر - ووالدته عن إيقافها. وسرت القلاقل بينهم في شمال افريقيا وسوريا أيضاً.

+ وعظم نفوذ ناصر الدولة - قائد الاتراك - بعد طرد السودانيين للصعيد، وطمع في الخلافة، واغترّت والدة المستنصر بدهائه، فجعلت له السيطرة

علي دواوين الحكومة. واستولي علي أموال الدولة، وفرّقها علي جنوده. فثار الجنود الأتراك وحاصروا قصر الخليفة، مطالبين بثروات ضخمة فأفرّغ أموال خزائنه لهم، وبذلك ضاع كل ما جمعه أسلافه في مائتيّ سنة - بالظلم والقسوة - من الأقباط (وهو درس هام لكل نفس).

+ كما أستولي الأتراك علي الحُلي والجواهر، والأسلحة، وكل ما كان محفوظاً في متاحف الخلفاء. كما شبت النيران بها أثناء نقلها، كما نهب جنود ناصر الدولة المكتبة الملكية بكتبها، وخلعوا جلود كتبها الثمينة وصنعوها أحذية، وأحرقوا أوراقها بغباء شديد!!

+ ولما أستَّبد ناصر الدولة بالحُكم. وكان المستنصر كالسجين في قصره، إلي أن قامت ثورة شعبية ضد الوزير المستبد. وقامت حروب بين الخليفة وبينه، فتحالف الشرير مع بعض قبائل الحدود وزحف بهم علي القاهرة، واستولوا علي كل ماصادفوه. ومنعوا العمل في تطهير الترع وسقي الأراضي فأقفرّت وقل الانتاج الزراعي.

+ وشددت قوات ناصر الدولة علي الأقباط، فهربوا إلي البراري، وتبعهم الجنود حتي وادي النطرون، حيث هدموا أديرته وكنائسها وذبحوا الرهبان، وقبضوا علي البابا خريستوذولوس، وآهانوه وعذّبوه، ولكن الله أنقذه، إذ دفع كاتب ناصر الدولة المسيحي «أبو الطيّب» مبلغ ٢٠٠٠ دينار فدية له وأطلقه.

+ وأخيراً قامت الحرب بين ناصر الدولة وبين الخليفة المستنصر، ولم يتم حسمها، ولكن في النهاية ضعف جيش الخليفة، فطمع في تولي الخلافة، ولكنه خشي من مُزاحمة بدر الجمالي الأرمنّي والي سوريا، فطلب من

رجل من الأشراف – يُدعي طاهر – لكي يقتله وأغراه أن يـولّيه الخلافة. فذهب اليه وفــشل في مهمته الشريرة.

+ وبقي ناصر الدولة وجنوده يعيثون في البلاد فساداً، وطغت قواته، وخاصة في الخمس سنوات الأخيرة من حياته (١٠٤٦ – ١٠٦٨م) وكانوا ينهبون المسلمين والأقباط، فأُهملت الترع، ولم يتم ري الأراضي، فحدثت مجاعة جديدة، مات فيها عدد كبير من السكان.

+ وبلغ ثمن الرغيف ١٥ ديناراً، وثمن الكلب ٥ دنانير، وثمن القط ٣ دنانير، واضطر المستنصر أن يستجدي طعاماً، وماتت زوجاته من الجوع، فأكل الناس لحومهن؟! كما هجم الناس علي بغلة ناصر الدولة وأكلوها، كما أكلوا ثلاثة من جنوده!! .

+ ومات الآلاف من الوباء والجوع، ومات الاسقف ميخائيل أسقف تنيّس (صان الحجر بالشرقية) مع غالبية شعبه جوعاً.

+ ولما رسم البابا مطراناً للنوبة – يُدعي بامون – طلب منه أن ينقذ شعب مصر من المجاعة، فأشفق عليهم الملك جرجس النوبي. وبلغ من طغيان الوزير ناصر الدولة أن منع المعونة النوبية المرسلة لمصر. فاشتد الجوع، وحاصر الشرير الموانى والحدود، نكاية في الخليفة، قاصداً خلعه والاستيلاء علي مكانه!!

+ وذهب الوزير القاسي القلب لقصر الخليفة، حيث رآه لابساً ثياباً بالية، وجالساً علي حصيرة يُرثي لها، فسخر منه، وأمر جنوده بإهانته هو ووالدته، ولكن أحد أصهار الوزير الشرير قتله، فخلُصَت البلاد من شره (١٠٧٣م) ولكن المستنصر لم يخلص من كيد حلفائه سنة كاملة.

+ ولما سئم المستنصر من هذه الحالة السيئة، استنجد ببدر الجمالي – والي

سوريا – وكان قد أعتقه المستنصر، وكان أرمنيَّ الجنس، ولكنه ظل مسيحياً[1]. وكان قد نشأ في بلاط الخليفة ونبغ في قيادة الجيش والحروب، فولاّه المستنصر علي سوريا، فأحسن حُكمها. وظل خاضعاً له مع منحه الاستقلال في إدارته لها.

+ وأتفق مع المستنصر سراً علي محاربة ذوي النفوذ في مصر من الآتراك، وأن يجعله حاكماً علي مصر. فأتي من جهة البحر إلي دمياط، ولم يعارضه أحد في تقدمه بجيشه حتي دخل القاهرة سنة ١٠٧٤م.

+ ودبّر مؤامرة للأتراك، وأغرّي جنوده بأن كل من يقتل أميراً يعطيه ما لديه وقصره، وبعد الوليمة قتل كل جندي الأمير الموكل به ونال غنائمه، وأسرع بدر الجمالي للمستنصر وأعلن له أنه تم التخلص من أعدائه. فولاَّه الوزارة وقيادة الجيش ولقبّه «آمير الجيوش».

+ وتغلبت قواته علي أنصار ناصر الدولة، فهربوا خارج الحدود. ثم سيطر علي البلاد، بعدما تغلّب علي العُصَاة الذين نشروا الفوضي. واستولي علي أسلحتهم وكل الذخيرة وكل ما لديهم من أموال.

+ وشجّع بدر الجمالي علي الزراعة وأعفي الفلاحين من الضرائب، مدة ٣ سنوات فراجت الأحوال. وزاد الانتاج الزراعي.

+ ولما استقرت الخلافة للمستنصر، رجع سكان مكة (الحجاز) لسبطرة مصر، بدلاً من بغداد، واعترفوا به آميراً للمؤمنين.

---

(١) يصعُب علي المؤرخ أن يتاكد من صحة نصرانية بدر الجمالي. وقال المؤرخ آبو صالح إن سيد مصر حينئذ – والآمير المسيحي – هو المُلّقب «بتاج الدولة» (**هامش أصلي**). ولكننا نري عكس رأي الكاتبة، كما تُثبته الأحداث التاريخية القادمة.

+ ومــع أن بــدر الجمــالي كان يميل إلي المسيـحـيين إلا أنه لم يُظهِر ذلك علناً.

+ وقد شكا له تاجر مسلم بأن ڤكتور – مطران النوبة – أمر بهدم جامع للمسلمين هناك، فثار وقبض علي البابا خريستوذولس. فبرهن له قداسته علي فساد هذا الرأي. فأقتنع الجمالي برأيه، وأطلق سبيله.

+ وكان في الصعيد زعيم لعصابة لصوص قوية، فأرسل له بدر الجمالي قوة فهرب للنوبة، فطلب من البابا آن يوفد أسقفاً لملك النوبة ليقبض علي العاصي ويسلمه. وجيء به الي مصر، وتم إعدامه عند باب الحديد – بالقاهرة.

+ ولما اعتدي ثائر يُدعي عبد العزيز علي سوريا وفلسطين سنة ١٠٨٦م استطاع بد الجمالي آن يقهره. وبعدما استراح من الحروب، إلتفَّت الي الشئون الداخلية وبني سور القاهرة والأبواب الثلاثة (باب زويلة – وباب الفتوح – وباب النصر).

+ وتنيّح البابا خريستوذولوس، ودُفِن في كنيسة المعلقة. ثم نقلوا جسده لوادي النطرون، وقــد قــويل الراهب المُرشح من دير آبي مــقــار بالاستحسان في جميع دوائر الحكومة. ورُسم باسم «**كيرلس الثاني**» (١٠٧٨ – ١٠٩٢م) وقد بارك قصر الخليفة في احتفال كبير.

+ وكان جرجس ملك النوبة قد تنازل عن عرشه لابن آخته المدعو جرجس أيضاً، ودخل ديراً علي الحدود المصرية، فنقله سكان آسوان إلي القاهرة، فقابله البابا وجنود الحكومة بالاحترام، ومنحه أمير الجيوش قصراً، ولم يسمح له بالتعبُّد في البرية المصرية. ومكث بالقاهرة سنة حتي تنيّح بسلام.

+ وفي عهده أراد راهب حديث السن أن يرتقي إلي درجة مطران للحبشة، خاصة وأن مطران الحبشة - المدعو عبدون - غير أهل للخدمة. فتقرب الراهب من أمير الجيوش، ووعده بدفع مبلغ كبير من المال له، وأن يبني ٤ جوامع للمسلمين بالحبشة. فسُرّ بذلك وأمر البابا كيرلس برسامته، فوافق علي الرسامة، أما عبدون - الذي كان قليل الحيلة - فقد هرب إلي بلدة تُدعي «الدهلكة» فقبض عليه الأحباش وأرسلوه إلي القاهرة، فقطع المصريون رأسه، **لعلة غير معلومة**(١).

+ علي أنه - وإن كان ليس في استطاعة أحد أن يُبرّر الوسيلة التي نال بها ساويرس رتبة المطرانية - إلا أنه والحق يُقَال، بذل جهوداً في إصلاح الكنيسة الحبشية، ومقاومة العادات الفاسدة، مثل عادة تعدد الزوجات، الذين زعموا أنها ليست محرّمة إلا علي القسوس والشمامسة (المُكرسين) فقط، مع إعترافهم بأنها مخالفة لروح الإنجيل وتعاليم السيد المسيح!!

+ وثار جدال بين أساقفة مصر حول مشاكل الحبشة. فجمعهم بدر الجمالي في قصره - خارج القاهرة - وطالبهم بالخضوع للبابا القبطي. ووبخهم علي إنشقاقهم وقال لهم: «كان يجب عليكم أن تكونوا قُدوّة صالحة، وقادة الشعب للفضائل، وأنتم المرشدون. ولستم في احتياج لأن يرشدكم

---

(١) ويذكر المؤرخ أنبا يوساب إسقف فوة (راجع كتابنا تاريخ البطاركة لأنبا يوساب، طبع مكتبة المحبة ص ٢٠٧) أن البابا كيرلس (الثاني) رسم أنبا ساويرس مُطراناً للحبشة، فلما وصل اليها وجد قساً يُدعي «كوريل»، زعم أنه المطران، فخاصمه. وكان قد جمع مالاً كثيراً، فأتي به إلي مصر، فأرسل المطران ساويرس إلي أمير الجيوش يعلمه بسلوكيات كوريل، فحبسه ثم قطع رقبته. وقال أنبا اسيذيروس أنه لما وصل أنبا ساويرس للحبشة هرب المطران المزيف وسرق المال وأتي إلي مصر، فقتله أمير الجيوش، بعدما سلب المال منه. (الخريدة النفيسة في تاريخ الكنيسة، طبعة المحبة من إعدادنا - ص ٣٢٠).

أحد إلي الواجب عليكم، فإن سمعتم لكلامي عفوّت عن ذنوبكم، بشرط أن تتصالحوا أمامي»!!

+ وقد خجل الأساقفة من عظة أمير الجيوش، وتصافحوا وتناولوا من السر الأقدس، بعد الصلاة معاً.

+ وقد أعدم بدر الجمالي رئيس بستانه - القبطي - لاستهزائه بالبابا بكلمات لا تليق، وكان أيضاً سبباً في تأليب الأساقفه ضده!!

+ ووضع البابا كيرلس (الثاني) قوانين سارت في كل الكنائس وظلت باقية فترة طويلة.

+ وزاد عدد الأرمن في مصر، طمعاً في كرم بدر الجمالي الأرمنّي، فخصص لهم بقعة في مصر القديمة - تُعرف بدير البساتين - لسكناهم. ويذكر أبو صالح المؤرخ أنه بني كنيسة كبيرة هناك، وظل يرمم ويُصلح فيها حتي ساعة وفاته.

+ ولما كثر المهاجرون الأرمن أنتخبوا لهم بطريركاً يُدعي «غريغوريوس»، وقام بابا الأقباط برسامته مجاملةً لهم، وتوطدّت العلاقة بينهما.

+ وأرسل البطريرك القبطي منشوراً لكنائس مصر والحبشة وسوريا وأرمينية المتحدة في الإيمان الأرثوذكسي.

+ ولما أرسل ساويرس مطران الحبشة أخاه بهدية إلي أمير الجيوش، فلم تعجبه، رغم أنه أخبره بأن أخاه قد بني ٧ جوامع. فاتهمه الأحباش بالميل إلي المسلمين وهدموها. فلما أرسل بدر الجمالي إلي امبراطور الحبشة مهدداً بأنه إن لم يسمح ببناء الجوامع المُتهّدمة، سيهدم هو كل الكنائس المصرية.

+ فهدده الامبراطور – في رسالة – قائلاً: «إن مددت يدك إلي الكنائس المصرية، سأقلب لك مكة رأساً علي عقب. ولن أسمح بإعادة بناء ولا حجر واحد إلا بعد وزنه ذهباً».

+ ولما آشتد المستنصر ـ بفضل بدر الجمالي ـ آمر اليهود والأقباط بلبس الزنار الأسود، وفرض الضرائب علي آفرادهم. ولكنه كان يخشي بأس حكومتي النوبة والحبشة، فلم يتعرّض لرعاياهما!!

+ وصرف البابا كيرلس باقي آيامه في إصلاح الكنائس، وافتقاد الفقراء.

+ وفي ذلك الوقت تغلّبت اللغة العربية علي اللغة القبطية، وصار الأقباط مُلَزمين أن ينطقوا ويكتبوا بها. وسعي البابا نفسه إلي تعلُّمها!!

+ ورقد البابا كيرلس سنة ١٠٩٢م، وتولي البطريركية بعده البطريرك ميخائيل الرابع.

+ وقبل جلوسه علي الكرسي المرقسي لعب الأساقفة (وكهنة الاسكندرية) دورهم المعتاد عند تولية كل بطريرك. فاشترطوا عليه الكف عن تحصيل الرسوم الدينية، والتوقيع علي تعُهد بدفع مُرتب وكيل الكرازة المرقسية بالإسكندرية، وإلغاء الرسوم المعتادة (السيمونية) عند توظيف أحد الخُدَّام، وعدم سيطرته علي كنائس بابيلون، التي ابتدعها البابا خريستونولس وسلفه، رغماً عن الآساقفة.

+ فوقّع علي هذه الشروط، ووعدهم النظر في كل مطالبهم، بالرغم من استحالة القيام براتب ومطالب وكيل الكرازة المرقسية بالإسكندرية، بسبب كثرة مطامعه. ويبدو من كلامه آنه أراد عدم تنفيذ ما تعهدّ به.

+ وعندما طالبه أنبا شنودة – أسقف بابيلون – بارجاع مخصصات

كنائسها اليه، كما جاءت في الشروط التي أمضاها. فأعلن له أنه عاد ورفضها وهدد من يتعرّض له. وكان مطران الاسكندرية، قد أرسل نسخة من الشروط التي وقع عليها البطريرك ضماناً للحصول علي راتبه. وكانت صورة أخري منها محفوظة عند شيخ الأساقفة وهو أسقف سخا، وأخذهما البابا، وحاول أن يأخذ النسخة الموجودة لدي أسقف بابيلون فلم يفلح. وهرب لإحدي الأديرة. فاحتج شعبه وشكوه للحكومة وطالبوه بأن يعيد أنبا شنودة وأن يُسامحه. ففعل، ولم يعد يتحدث معه عن تسليم الشروط التي كانت معه إليه.

+ ولشدة بأس بدر الجمالي نظّم حكومة قوية، فلم توجد منازعات، ولا عصابات تعيث فساداً في البلاد، حتي مات سنة ١٠٩٤م، ويظهر من تاريخ آبي صالح (الارمني)[1] أنه مات مسيحياً، لأنه تم دفنه بكنيسة الأرمن بحلوان.

+ ثم مات الخليفة المستنصر بعد حكم دام ٦٠ سنة. وكانت سيئاته أكثر من حسناته. وكان في البداية كارهاً للرّذائل شغوفاً بالآداب، والفنون الجميلة التي شجعه عليها وزيره اليازوري، الذي كان يميل للرسم.

+ ولم يكن الرسم مُحرَّماً في تلك العصور، إلا متي آرادوا اضطهاد الأقباط، فكانوا يلاشون الصور (الأيقونات) من كنائسهم، وكانوا يزعمون أن رسم بني آدم حرام، وكانوا يتخذون هذه الدعوي ذريعة لتحقيق آغراضهم الشريرة!!

---

(1) Abu Salih, The Churehes & Monasteries of Egypt, Oxford 1895.

(وهو ليس من تاليف آبي صالح الآرمنّي وإنما هو كتاب المؤرخ القبطي «أبو المكارم سعد الله ؛ بالقرن ١٢») .

الفصل الثامن والأربعون

تأثير الحروب الصليبية علي أقباط مصر

(١٠٩٦م=٨٧٠ش=٤٩٠هـ)

+ خلف المستنصر ابنه الثاني (الأصغر) أحمد أبو القاسم، المُلّقب «**المستعلي بالله**». وكان خلفاء الفاطميين – في ذلك الحين – مجرد شخصيات ليست لها سلطات فعلية، لأن القوة المُنفذة كانت بيد الوزراء.

+ وقد تولي ثاني أبناء المستنصر – كما أوصاه به أبوه قبل موته – وتولي ثاني أنجال أمير الجيوش (بدر الجمالي) المُلقَّب بالأفضل وصياً عليه.

+ فلما جلس الأفضل محل أبيه، كان همه وضع حد للعُصَاة الذين انضموا إلي إبن المستنصر الأكبر، وعكرُوا صفو الحكومة الجديدة. واستطاع استرداد الشام من الاحتلال التركي.

+ وكان أمير التركمان – المدعو أرتق – قد قبض علي بطريرك أورشليم، وتم جرّه في شوارع القدس. ثم حبسه، حتي تم فداؤه بالمال. كما عاني الكهنة الغربيون من السب، ومثلهم الأقباط.

+ وكان نحو ٧٠٠٠ من اللاتين الأوربيين قد زاروا القدس ومعهم ٤ أساقفة، أساء المسلمون معاملتهم وقتلوا منهم ونهبوا الباقين، فرجع منهم ٢٠٠٠ فقط، مما أثار الحروب الدموية بين الغرب والمسلمين ودفع اليها خُطَب لبطرس الناسك الحماسية، في الوقت الذي استرجعت فيه الدولة الفاطمية سلطانها علي القدس. فقرر الأوربيون استخلاص المدينة المقدسة من أيدي المسلمين، وساعد عليها تنافر وصراع الدول الأسلامية مع بعضها.

+ واستطاع الصليبيون هزيمة السلاچقة واستولوا علي دمشق وحمص والقدس. وبدأوا يفكرون في الاستيلاء علي مصر، وخشي الافضل - أمير الجيوش - أن يحل بها ماحل ببيت المقدس، وخشي من اتحاد مسيحيّ مصر والنوبة مع أهل أروبا. ولكن للأسف دب الحسد في قلوب الصليبيين، فأضمروا الشر لبعضهم البعض. وكذلك نظرتهم الفاسدة إلي أقباط مصر بالزعم بأنهم هراطقة، فضعفت قواهم الحربية.

+ فانتصر عليهم الجيش المصري، وأرجعهم قائده – سعد الدولة – عن حدود مصر. فاغتاظ الصليبيون ومنعوا كل أقباط مصر والسودان من زيارة القدس. فأبعدوا عنهم – بجهلهم – حُلفَاءً، وأخواناً في المسيحية، وكان الاقباط والسودانيون من أشد المسيحيين ميلاً لزيارة الأماكن المقدسة، مما أوقع أسوء الأثر النفسي في قلوبهم.

+ ومات الخليفة المُستعلي بالله، بعد استيلاء الصليبين علي القدس بسنة، وخلفه إبنه المنصور، ولقبه الأفضل بالخليفة «**الآمر بأحكام الله**» وكان عمره ٦٥ سنة، وكان الأفضل وصياً علي الخليفة الصغير، ووصياً علي أبيه أيضاً!!

+ وفي عام ١١٠٢م تنيّح مطران الحبشة المصري، فقام البابا ميخائيل برسامة راهب يُدعي جرجس. وقد أغضب هذا المطران الأحباش بسبب روح الطمع فيه، فتظاهروا ضده. فأجبره الامبراطور علي رد جميع الأموال والمقتنيات التي جمعّها بطرق غير مشروعه. وأعاده لمصر، حيث حبسه الأفضل في السجن (وهو درس هام لكل نفس غير حكيمة في قيادتها وغير أمينة في خدمتها لله ولشعبه).

+ وكان البابا ميخائيل قد عاش بسلام مع أنبا شنودة أسقف بابيلون. ثم

عاد للخصام معه، لسبب غير معلوم. فعزم أن يتخلّص منه، فعقد مجمعاً من الأساقفة، واتهمه بأنه قد صلي القداس - في عهد البابا كيرلس السابق له - مرتين في يوم واحد، منذ مرور عشر سنوات.

+ وأمره بالحضور - أمام المجمع المقدس - ليسمع الحُكم بحرمه. فرفض الحضور واختبأ في منزل شخص غير معروف في بابيلون. واستولي البابا علي كنيّستي الأسقف الانبا شنودة، وهما كنيستا سرجة والقديس باغوص[١] في بابيلون، واللتين قام النزاع بينهما بسببهما.

+ وفي اليوم التالي مضي البابا ميخائيل لتهنئة الأفضل بالعودة من الحرب بسلام. ولما رجع إلي منزله أُصيب بالطاعون، ومات في اليوم التالي!!

+ وذكر المقريزي - في تاريخه - أنه في زمن المستنصر قل الفيضان. فأرسل البابا ميخائيل إلي إمبراطور الحبشة. فقابله بالتكريم، وأمر بفتح أحد فروع النيل، فأرتفع ماء النيل ثلاثة أذرع، فاحتفل به الخليفة وأكرمه بعد عودته لمصر!!

+ وعند ترشيح بطريرك جديد، تم اختيار راهبين من دير القديس مكاريوس (أبي مقار) وكان أحدهما أقل من الخمسين، فعزموا علي رسامة الثاني، المدعو مقاريوس، وكان مُحبّاً للظهور والأُبّهة. ولما طالبَه أهل الإسكندرية بدفع المبلغ السنوي - كما جرت عليه عاداتهم - قرر الرجوع إلي ديره، ولكنهم رضوا بأن يدفع لهم، ولو أقل من نصف المبلغ المطلوب. فرسموه بطريركاً (١١٠٢ - ١١٢٨م).

---

(١) والواقع أنهما كنيسة واحدة فقط. باسم القديس «سرجيوس وواخوس» (في مصر القديمة)، وربما كان الخلاف علي كنيسة أخري غيرها، في نفس المنطقة.

+ وبعدما استولي الصليبيون علي سوريا وفلسطين، جعلوا عاصمتهم بيت المقدس (Jerusalem) وتقدم الملك بلدوين - عبّر سيناء - إلي الفرما، التي شُيدت علي أنقاض مدينة بلوزيوم الفرعونية، وحاصرها وهدم مبانيها، وفي طريقه إلي القاهرة أصيب بمرض شديد، فرجع بجيوشه لفلسطين، فمات قُرب العريش، ودُفِن بجوارها (بحيرة البردويل).

+ فعاد السلام لمصر، وقضي الأقباط الهدوء والخير في عهد الوزير الأفضل.

+ وظل الخليفة الآمر بأحكام الله محتجباً في قصره عن رعيته إلي أن بلغ ٣٥ سنة، وأراد تولي زمام الدولة بنفسه، فلم يَر وسيلة لذلك سوي قتل الافضل، فاستقدم جماعة من الأشرار – من سوريا – وطلب منهم قتله، فقتلوه. وقاموا أيضاً بقتل الخليفة. ثم تولي ابن عمه عبد المجيد، المُلّقب «**الحافظ لدين الله**».

+ وقبل وفاة الأفضل حدث زلزال عظيم. وتهدمت بسببه كنيسة المختار، وقيل إن الأفضل كان له يد في ذلك، إذ كانت قائمة في وسط بستان جميل[1].

+ وكان الأفضل قد أمر سنة ١١٠٧م باستبدال التاريخ القبطي بالتاريخ الهجري في دواوين الحكومة[2].

---

(١) وتذكر المصادر المصرية أن كنيسة «الملاك ميخائيل» بجزيرة الروضة (بالمنيل بالقاهرة) قد هدمها شخص شرير ليلاً، لأنه كان يريد رشوة ولم يعطوه. وتعلل بالزلزلة.

(٢) والواقع أن التاريخ القبطي ظل هو التاريخ الرسمي. حتي عهد الخديوي اسماعيل سنة ١٨٧٥م حينما ضغط عليه الأجانب، ليكون التاريخ الميلادي هو التاريخ الرسمي لمصر، منذ عهده.

+ وظلت الخلافة الفاطمية تنتقل من واحد إلي آخر، بطريق الاغتيال - وقتل كبار رجال الدولة - فترة طويلة، ومنهم قتل إبن الأفضل وحفيده. وبينما كان المسلمون يتنازعون علي سلطات الحُكم، كان الأقباط في سلام وفي مأمن من شرهم!!

+ وتنيّح البابا مقاريوس بعدما ظل علي الكرسي المرقسي أكثر من ٢٤ سنة، وبقي الكرسي خالياً - نحو سنتين - لأسباب غير معروفة، حيث تم أختيار راهب من دير القديس مكاريوس هو غبريال، المدعو بأبي العلا بن تريك، وكان في خدمة الحكومة. فلما تم عزله - لتمسّكه بإيمانه – صار شماساً (مكرساً) في كنيسة القديس سرجيوس (أبي سرجة)، وكان عالماً دينياً.

+ وانشغل الخليفة الحافظ بوضع حد للقلاقل الناتجة عن تولية وزير للدولة. ولكي يُرضي الجميع أسند منصب الوزارة إلي رجل أرمنّي يُدعي «تاج الدولة» وكان «شقيقاً» للبطريرك الأرمني، فتعزز مركز المسيحيين. واشتهر بمودته للمسلمين، غير أنهم قد ثاروا ضده، بحجة أنه سيعيد البلاد لقبضتهم.

+ وتزعم الثورة رجل يُدعي رضوان (حاكم الغربية) وكان يطمع في الوزارة. فلما رأي تاج الدولة آنه سيكون سبباً لصراع وفتنة، استقال من عمله ومضي ليُقيم مع أخيه حاكم القوصية، وكان رضوان قد سبقه إليها، وأثار أهلها علي المسيحيين، وقتلوا أخاه. فهاج تاج الدولة لقتله، فعزم علي أن يجمع أنصاره ويحاصرها، ولكنه فضلّ أن يذهب إلي دير ليصير راهباً (وتقول المصادر المصرية آنه ترهَّب بدير القديس آنبا شنودة رئيس المتوحدين بسوهاج).

+ وتقدم رضوان لاحتلال القاهرة وأمر قواته بسلب المسيحيين والضغط

عليهم، وطرد الموظفين الأقباط من الحكومة بزعم أنهم غير أكفاء للعمل، ولكن لم تتجح فكرته، لأن المسلمين أنفسهم أنقسموا عليه وطردوه بسبب قتله الأقباط والأرمن، الذين استوطنوا مصر بكثرة، منذ عهد بدر الجمالي الوزير الأرمنّي الجنس.

+ فارتبك الخليفة في اختيار وزير لدولته، وكان يوّد إرجاع تاج الدولة، ولكنه خاف من المسلمين المُتعصبين. ومع ذلك لما دعاه للوزارة أعلن أنه لن يخرج من ديره.وهو أفضل من مناصب العالم كله.

+ ولما مات بطريرك الأرمن طلبوا من البابا القبطي غبريال أن يرسم لهم أسقف أطفيح (جنوب حلوان) الأرمّني بطريركاً، وأن يرسم تاج الدولة أسقفاً بدلاً منه. وبعد إلحاح أجابهم إلي طلبهم، لأنه كان يخشي تضايق الكنيسة في أرمينيا من تدخله في شئون رعاياها بمصر.

+ وكان البابا ابن تريك أميناً للرب وللخدمة. وكان لا يأخذ مالاً عند الرسامة. وقد رسم ٥٣ أسقفاً.

+ وكان امبراطور الحبشة قد طالّبه برسامة المزيد من الأساقفة وأن يكون مطران الحبشة من أهلها - وليس من المصريين - فلم يقبل، رغم تدخل الخليفة في هذا الأمر. فأعلن له البابا غبريال بأنه ليس في صالح مصر خروج رئاسة اكليروس الحبشة من سلطان بابا مصر.

+ وقد سّن البابا قانوناً من ثلاثين مادة، وأضافه إلي قوانين الكنيسة المصرية، **ومما جاء في مواده ما يلي**:

١) التحريّم علي رجال الاكليروس حضور حفلات العرس والرقص (الأغاني)، والألعاب (الملاهي العالمية).

٢) الاحتفال بأكليل الزواج بالمساء (وليس بعد القداس كالعادة القديمة).

٣) وألغي عادة دفن الموتي (من الآباء) في الكنائس.

٤) وعدم السماح لغير زوجات الكهنة وعماتهم وخالاتهم وجداتهم بالسُكني في منازلهم (منعاً من العثرات).

+ وبعد نياحة البابا غبريال سنة ١١٤٥م. انتخبوا خلفاً له راهباً معروفاً بشدة التقوَّي والنُسك، وكان أمياً، ولا يعرف القراءة ولا الكتابة، سواء بالقبطية أو العربية، غير أنه كان يحفظ القداس عن ظهر قلبه، فرسموه في بابيلون[1]، غير أنه لم يطل زمانه فتنيَّح مسموماً!! وقيل إن الذي دس له السُم هو واحد من الرهبان الموجودين معه، لعدم احتماله صرامة تأديبه علي أخطائه!!

+ ورسم الأساقفة - بعده - واحداً من الأثنين اللذين كانا مرشحين معه لانتخاب البابا السابق.

+ ثم تهددت مصر - مرة آخري - من هجمات الصليبيين من جهة البحر.

+ ففي عام ١١٤٨م، جاء الكونت روجير الثاني - قائد النورمانديين - وهدد بالاستيلاء علي الإسكندرية، ولكنه رحل عنها فجأة لسبب غير معلوم!!

+ وظهر رضوان مرة أخري، وشن غارات علي السكان، وأختفي الملك الحافظ في قصره، ولم يُبدِ مقاومة له، ولكن قتل رضوان واحد من اتباعه، وبعده مات الخليفة الحافظ، تاركاً أربعة آبناء آكبرهم المدعو اسماعيل المُلّقب بالظافر.

---

(١) هو البابا ميخائيل الثاني البطريرك / ٧١ (١١٤٥ - ١١٤٦) واستمر تسعة أشهر ونصف فقط، علي الكرسي المرقسي.

الفصل التاسع والأربعون

انشقاق مرقس بن قنبر

(١١٤٩م=٨٦٥ش=٥٤٤هـ)

+ لما تولي الخليفة **الظافر** كان عمره ١٨ سنة. ومال للهو. ولم ينظر إلي الدسائس في بلاطه، ولم يُبدِ حراكاً أمام تقدّم جيوش الصليبيين.

+ وتولي الوزارة المدعو «عباس» بعد قتل خصمه. كما قام بقتل الخليفة الظافر سراً، عندما دعاه إلي وليمة سراً. وكان قد أشار إلي إبنه بقتله في الخفاء، ثم ألقيَّ بالتُّهَّمة علي أخويه. وقتلهما ظلماً!!

+ وكان ابن الظافر عمره ٥ سنوات، فلما شاهد قتل عميه ورأي جثتيهما فزع، وصار كالمعتوه. وحَمَله العباس علي كتفه وقال للأمراء «هذا هو إبن مولاكم المقتول، فأطيعوه». فبويع بالخلافة في الحال، وسمَّوه «الناصر بالله» وردوُّه إلي حضن أمه طفلاً مصروعاً!!

+ فانفرد العباس بالتحكمُّ في كل شيء، ولكن أهل القصر عرفوا بمكيدته، فأرادوا قتله مع إبنه. وأتوا بطايع الأرمني المُلّقب «بالصالح» وكان حاكماً للمنيا. وولوه الوزارة بدلاً من عباس. فهرب العباس مع ابنه للشام، فاتفقت أخت الظاهر مع الافرنج (الصليبيين) علي قتله. فقتلوه وأرسلوا إبنه اليها، طمعاً في استلام المكافاة الموعود بها اليهم. فتم قتله وصلبه علي باب زويلة.

+ واهتم الوزير «الصالح» بالملك الطفل. وسمّي نفسه «**بالملك الصالح**» ولم يستطع محاربة الصليبيين. فأضطر لدفع الجزية لملك بيت المقدس.

+ وضايق الأقباط بشدة، وأوقع بهم ضرراً بالغاً. وكان عدد كبير منهم يسكن

المطرية، التي كانت تعدّ مكاناً مقدساً، لزيارة العذراء والسيد المسيح (= شجرة مريم) اليها. واغتَّصب الملك الصالح إحدي كنائس المطرية، وجعلها جامعاً!!

+ وقد أضاف البعض عبارة «**معطي الحياة**» علي صلوات القداس. فاعترض أسقف سمنود علي هذه البدعة. فدرس مجمع الأساقفة هذه العبارة، وأكدوا صوابها. كما ظهرت مشكلة آخري، وهي اعتراض البعض علي استعمال البخور في الكنائس.

+ ومن المعلوم أنه لم يُستَّعمل في القرون الثلاثة الأولي من العصر المسيحي، وهي عادة وثنية، إلا أن المسيحيين استعملوه بعد القرن ٤، بدعوي أنه يطرد الروائح الكريهة، الناجمة عن ازدحام الكنائس بالمُصلّين. ومن بداية القرن السادس صاروا يباركونه، فيقول الكاهن عندما يحمل المُبخرة: «فليبارك الرب هذا اللُبان، لإزالة كل رائحة كريهة وسامة». ومن ذلك الوقت صار طقساً دينياً، كأنما هو وسيلة لإصعاد صلوات الشعب إلي العرش الإلهي، حتي اعتاد الكاهن أن يقول: «لتكن صلواتي أمامك كبخور لُبان يارب»[1] (مز ١٤١:٢).

+ وكذلك تحوّل الاعتراف العلني بالخطايا إلي الاعتراف السري علي يد الكاهن في أواخر القرن الرابع، وأنه لابُد من الاعتراف قبل التناول من السر الأقدس. وكان علي الذين لا يستطيعون الإقرار بخطاياهم السرية أن يعترفوا بها سراً أثناء مرور الكاهن بالمبخرة (الشورية = المجمرَّة)

(١) البخور موجود في طقوس الكنيسة المسيحية منذ العصر الرسولي الأول. ولم يكن مجرد عادة قديمة (في هيكل سليمان) بل كان طقساً أساسياً في القداس القبطي منذ أيام القديس مرقس الرسول، وقد ورد ذكره في سفر الرؤيا (راجع كتابنا: موسوعة الطقوس، جـ ١. طبع مكتبة المحبة).

في صحن الكنيسة اعتقاداً منهم بأن البخور يحمل اعتراف الخُطاة إلي أمام عرش الله.

+ وفي القرن ١٢م كان بعض الأقباط يستغنون عن الكاهن في قبول اعترافاتهم ويقدمونها مع البخور، بسبب الزعم بأن الاعتراف علي الكهنة يتسبب عنه فضائح مشينة، وخاصة بالنسبة للسيدات المعترفات.

+ فقام كاهن قبطي صعيدي - في عصر البابا يوحنا الخامس - يُسمَّي **مرقس بن قنبر** وحث الناس علي وجوب الاعتراف السري، ونوال الحِلْ من الكاهن، رغم أن الاعتراف لدي مرور المبخرة كان جائزاً بقرار بطريركي في ذلك الوقت!!

+ وكانت دعوة ابن قنبر قد لاقت سخط الآساقفة. فطلبوا من البطريرك آن يحرمه، فتمهَّل عليه لأنه لم يره مُخطئاً (لأن الإعتراف من إسرار الكنيسة السبعة).

+ وهجر إبن قنبر زوجته وترهب. فقيل للبابا آنه يسعي للحصول علي الدرجة الأسقفية ثم البطريركية. فتأكد البابا من دعوي المشتكين عليه. فحرمه، ولكنه ظل يعظ الشعب. والتَّف حوله كثيرون من المعجبين بوعظه.

+ ولما تنيّح البابا يوحنا الخامس (١١٦٦م) خلفه البابا مرقس الثالث (١١١٦ - ١١٨٩م) وكان ابن قنبر لا يزال يعقد الاجتماعات ويدعو الي رفض الخرافات والي اليقظة الدينية. فاستدعاه البابا مرقس. فتأثر بنصائحه، فحلّه من حرمه وابتهج الناس برجوعه للكهنوت. فشرع يعظ كالعادة، فأقبلت اليه الجماهير بالهدايا والأموال والمحاصيل. وتوقفوا عن تقديم عشورهم للخُدّام في مكان خدمته.

+ فقام البابا بحرمه. فالتجأ لرفع دعواه للحكومة الاسلامية، ولكن البابا

والاساقفة رفضوا تدّخلها، بدعوي أنها مسألة دينية محضة. ثم رضي البابا بقبول تحكيم آنبا ميخائيل بطريرك انطاكية في هذه المشكلة.

+ فسعي البطريرك الانطاكي إلي التوفيق بين الطرفين، فأشار بأن يُقلل البابا من أهمية الاعتراف السمعي، وأن يتنازل ابن قنبر عن المبالغة والتهويل. فأدي ذلك الرأي الغير مقبول إلي فتور في العلاقة بين كنيستّي مصر وأنطاكية.

+ ولما كان ابن قنبر يأمل أن تقف بجواره بطريركية أنطاكية، ولم تفعل. فذهب مع عدد كبير من أتباعه للإنضمام للكنيسة الملكية اليونانية (الروم)، وكان بطاركتها يقضون معظم عمرهم في القسطنطنية ورعيتها غارقة في الخرافات والجهل الروحي. فندم ابن قنبر، وتوسل للبابا أن يقبله. فحلّه من حرمه. ثم عاد إبن قنبر للكنيسة اليونانية. ولم يشأ البابا مرقس أن يقبله لأنه خان الكنيسة القبطية ثلاث مرات. ثم مات بالجسد، بعد عدة سنوات، بعد موته الأدبي (الروحي) للآسف[1]!!

+ وقد توفي الخليفة في سن ١١ سنة، ثم أقام الوزير (المُلقب بالملك الصالح) شخصاً آخر - وهو قاصر - وبايعه بالخلافة ولقبّه «**العاضد لدين الله**». وفي عهده ضعفت الدولة الفاطمية.

+ + +

(١) قيل إن ابن مات بعد تولية البابا الروماني إنوسنت الثالث، الذي قرر ضرورة الاعتراف السماعي في الكنائس الكاثوليكية لدي الكاهن، وطابق كلام ابن قنبر. ولكن هذا المبدأ لم يُعمل به في الكنائس المصرية (**هامش أصلي**).

* والواقع أن الكنيسة رجعت الي ممارسة سر الاعتراف عي يد الكاهن. بعد القرن ١٢، وكما هي عليه الحال للآن.

الفصل الخمسون

حريق بابيلون (١١٦٠م = ٨٧٦ش = ٥٥٥هـ)

+ ولم يحكم الخليفة الذي جاء بعد ذلك وهو **الفائز بنصر الله** سوي سنة واحدة، وتم قتله بمساعي آخت الخليفة السابق. وانحطت سلطة الحكومة، حتي اضطرت أن تدفع مبالغ للصليبيين حتي لا يغزوا مصر.

+ كما لم يحكم **ابن الفائز** إلا زمناً قصيراً. وحدث صراع بين الأميرين ضرغام وشاور. وبعدما بقي شاور عدة أشهر في الوزارة، ثار عليه ضرغام. فهرب إلي نور الدين التركي، الذي عُرف بالخليفة العباسي في بغداد ليّرده للوزارة في مصر. فأرسل نور الدين حملة عسكرية بقيادة أسد الذين شيركوه الكُردي. فطلب أن يأتي معه إبن أخيه المدعو يوسف نجم الدين أيوب، وكان هو البطل السلطان **صلاح الدين** التكريتي (الأيوبي).

+ وكان ضرغام قد صار وزيراً بعد هروب شاور لدمشق، ولقبّه الخليفة «**العادل لدين الله**» بالملك المنصور. وقام بمذبحة قتل فيها ٧٠ أميراً عندما أدرك أنهم كانوا ينوون خلعه من الوزارة.

+ ولما تأخر ضرغام في دفع الأتاوة السنوية لملك الصليبيين بأورشليم، غزوا حدود مصر، وغلبوا «هُماماً» ابن ضرغام،عند بلبيس. فقام بقطع جسر النهر، فصارت المياة حاجزاً بينه وبينهم.

+ وفي نفس الوقت تقدم شيركوه بقواته لمصر. فلما علم ضرغام بقدوم شاور

استعد لقتاله، ولكن تمت هزيمته وقتله، وانحاز المصريون إلي شاور فنكس عهده مع سلطان دمشق، وأمر شيركوه بالخروج من مصر فانتشرت قواته كالجراد في كل البلاد، ترتكب فيها القظائع ضد المسلمين والمسيحيين، الذين عانوا بالاكثر، حتي ترك بعضهم الإيمان، ولكن بعضهم ثار ضد بيع نساءهم وبناتهم كالجواري. واستشهد كثير من الأقباط المؤمنين والأمناء للمسيح.

+ وطمع الصليبيون وشيركوه والسلطان نور الدين في احتلال مصر بسبب خيراتها *الوفيرة*!!

+ ولما حاصر الصليبيون القاهرة، خشي شاور أن ينضم الأقباط اليهم لأنهم من نفس دينهم، وكان الاقباط يسكنون بابليون، فأمر مُسلمي مصر بالقيام بحرب دينية عارمة ضد الأقباط، **وأشعل النيران في بابيلون**، حتي لا يُعسّكر فيها الصليبيون.

+ واحترقت أشهر كنائس الاقباط، ومنها دير أبي سيفين. وتخرّب جزء كبير من الفسطاط. واستمر الحريق ٤٥ يوماً بدون انقطاع!! ولم يستطع أحد المؤرخين أن يُحصِي الذين ماتوا في النيران، ولا بما حل بالهاربين الأقباط الذين يُظن أنهم عبروا النيل إلي الجيزة. وهرب بطريرك الأرمن إلي أورشليم. كما قال المؤرخ أبو صالح.

+ ومع ذلك حَميَ الرب ستة كنائس داخل حصن بابليون، منها كنيسة المعلقة، ولا تزال تُدعي كنيسة بابيلون إلي الآن .

✣ ✣ ✣

الفصل الواحد والخمسون

الإحتلال الكُردي (الأيوبي)

(١١٦٨م = ٨٨٤ش = ٥٦٤هـ)

+ أنتهز الخليفة **العاضد** فرصة انشغال شاور مع أموري ملك الصليبيين، وأتفق سراً مع نور الدين. وتحارب جيشا شيركوه والصليبيين. وانتصر شيركوه. ثم طلب الخليفة منه قتل شاور. فلما تم قتَلهُ، وليّ شيركوه الوزارة، ولقّبه «**بالملك المنصور**».

+ فلما تولي شيركوه الحكم ضغط علي الأقباط، وأمرهم بشد الزنار حول أوساطهم (ليسهل تمييزهم عن غيرهم من المسلمين). ولكنه مات بعد نحو شهرين فقط، فولّي الخليفة إبن أخيه يوسف **صلاح الدين**، ولقبه «**بالملك الناصر**». وكان لا يزال شاباً، وكاد يطمح في أن يكون سلطاناً لمصر وسوريا.

+ وقد حسده خصي مُلقّب «**بمؤتمن الخلافة**». وأراد قتله، ولكن صلاح الدين (الأيوبي) اكتشف مؤامرته، فقام بقتله قبل أن يفتك به. وقام الملك العاضد بمشاركة الثائرين علي صلاح الدين، فتلاشت في عهده الدولة الفاطمية.وأُقيمت الدولة الأيوبية.

+ وكان أخو صلاح الدين المدعو - شمس الدولة - يحكم الصعيد الأعلي، كما قام أخوه هذا بغزو النوبة، ثم استولي علي اليمن، ولُقبّ «**بالملك المعظم**».

+ وحاصر الصليبيون دمياط لمدة ٥٠ يوماً، ثم فشلوا في الاستيلاء عليها بسبب عوامل جوية، فانسحبوا إلي سوريا.

+ وعاد صلاح الدين من غزة، بعد الانتصار علي الصليبيين هناك.

+ وسمح بذكر اسم الخليفة العباسي «المستضيء بأمر الله» (١١٧١م) في خُطب الجمعة، وبذلك رجعت مصر للوصاية العباسية (إسمياً بالطبع). بعدما انقطعت صلتها بها ٢٠٧ سنة. وقد ترك صلاح الدين الخليفة العاضد محبوساً في إحدي غُرف قصره حتي مات، وبذلك اختفت الدولة الفاطمية التي دامت أكثر من ٢٠٠ عام.

+ + +

الفصل الثاني والخمسون

السلطان صلاح الدين الأيوبي

(١١٦٨م=٨٨٤ش= ٥٦٤هـ)

+ قضي صلاح الدين الأيوبي معظم أيام حكمه في حروب ضد الصليبيين، وضد إبن مولاه السلطان نور الدين في الشام.

+ ولما أنشغل صلاح الدين بحروبه في سوريا، حاول ملك النوبة غزو جنوب مصر، بسبب ما جري للاقباط من ظلم. وبعد معارك كثيرة استطاع شمس الدولة - آخو صلاح الدين - آن يستولي علي حصن دير ابراهيم (بأبريم) علي حدود النوبة ومصر. ونهبها، وقتل آهلها المسيحيين والباقين باعهم كرقيق. ونهب كنيسة العذراء الكُبري بها. وآحرق صليبها الكبير، وحوَّلها إلي جامع.

+ وقبض شمس الدولة علي آسقفها وعذّبه. ثم باعه مع باقي المسيحيين النوبيين الآسري عبيداً.

+ وفي عام ١١٧٦م ثار آقباط قفط علي الظلم. فانتقم منهم العادل آخو صلاح الدين الأيوبي، وذكر المقريزي إنه صلب ٣٠٠٠ قبطي علي الأشجار!!

+ وحاصر صلاح الدين بيت المقدس، واستولي عليها. وأسر ملكها الصليبي، لأنها كانت خالية من القوات التي تقاوم جيش العرب، ولم يكن لها جيش سوي ١٦٠٠ من الفرسان. واشترك معهم كهنة وشمامسة أوروبيون، ظنوا أنه جهاد ديني، للمحافظة علي المدينة المقدسة.

+ ولكن عاد سكانها وطالبوا البطريرك (اللاتيني) بضرورة التسليم لصلاح الدين، بعدما طال الحصار، بدون نتيجة لهم.

+ واتفق معه الصليبيون علي الصُلح بشرط أن يدفع كل مسيحي ٢٠ ديناراً فدية عن نفسه، ١٠ دنانير للسيدة، دينارين عن كل طفل، لينجوا من الأسر.

+ وأطلق صلاح الدين سراح غير القادرين عن الدفع للجزية المفروضة لمغادرة القدس. وأسر البعض، ونكس الصليب الموجود علي قبة مسجد الصخرة.

+ ولما بلغ ملوك أوروبا سقوط أورشلم - للمرة الثانية - في يد المسلمين بعد بقائها ٩٦ سنة في يد المسيحيين. هالهم الأمر، وأتحدوا ضد صلاح الدين لمحاربته.

+ فكتب فردريك امبراطور الغرب لصلاح الدين، موضحاً له أنه من سلالة الرومان القدماء وخليفتهم.

+ فكتب له صلاح الدين - بغطرسة - بأنه يسعي للاستيلاء علي كل أوربا. فأعد له فردريك حملة قوية، ولكنه غرق في البحر قبل وصوله إلي عكا. فوصل اليها الباقون وحاصروها. وكان معهم فيليب ملك فرنسا، وريكاردوس (ريتشارد قلب الأسد) ملك انجلترا، فاضطر صلاح الدين إلي تسليم المدينة **وعد بتسليم الصليب** الحقيقي، الذي صُلِب عليه السيد المسيح، وكان قد أخذه المسلمون يوم الاستيلاء علي أورشليم.

+ وحدث صراع بين صلاح الدين وقلب الأسد، وانتهي بعقد هدنة، دامت ٣ سنوات، سمح فيها صلاح الدين للمسيحيين بالحج للقدس.

+ وكان أسقف سالسبوري الإنجليزي قد تقابل مع صلاح الدين. وكان كهنة الكنيسة اليونانية (الروم الارثوذكس) هم القائمون بخدمة القبر المقدس. فلما وصل الاسقف إلي هنا أعتبر هؤلاء الكهنة هراطقة، وسعي حتي وضع - بأمر صلاح الدين -كاهنين وشماسين من الكنيسة الرومانية البابوية لخدمة كل من كنائس القيامة وبيت لحم والناصرة.

+ وتم الصلح بين قلب الأسد وصلاح الدين، ونادي المنادون في البلاد الاسلامية والمسيحية برجوع الصلات بينهم. وصار صلاح الدين وقلب الأسد أصدقاء. ومات صلاح الدين سنة ١١٩٣م، وكان قد حكم مصر ٢٤ سنة، ولم يترك في خزينته إلا ديناراً واحداً من الفضة فقط!!

+ وكان صلاح الدين قد أسند - خلال حروبه - حكم مصر، إلي أحد خصيانه السود وسّماه المصريون «**قراقوش**» (أي عصفور أسود)، إحتقاراً له، لأنه كان عبداً جاهلاً وأمياً، وأساء إلي المصريين من أقباط ومسلمين، حيث كان يدنس قبورهم. وكان غرضه من ذلك إغاظتهم.

+ وكان قراقوش يسوق المصريين - مسلمين ونصاري - معاً للسُخرة في بناء وترميم سور القاهرة، فكرهوه بشدة[1]، وإن كان لم يضطهد الاقباط اضطهاداً حقيقياً، لكنه ضايقهم بشدة بقدر ماأمكنه.

+ وكان قد فصل الموظفين الاقباط، ثم أرجعهم من نفسه، بسبب استحالة انتظام الأعمال الرسمية في الدولة -لاسيما الأمور المالية - بدونهم.

---

(١) لا يزال يُضرب به المثل للآن عن كل حاكم ظالم، بقول المصريين «هل هذا هو حكم قراقوش؟»".

+ وبعد ذلك أمر الأقباط بتعليق أجراس وصلبان علي صدورهم، وحرمهم من عمل الزينات في الأفراح والاحتفالات الدينية، فكرّهه الشعب حتي كانوا يصورونه في هيئة تمثال مُضحك ومثير للسخرية (ويُسمي للآن «أراجوز»)، كرمز لهذا الجاهل الظالم.

✠ ✠ ✠

الفصل الثالث والخمسون
الخلافات بين الكنيسة المصرية والحبشية
(١١٩٣م=٩٠٩ش = ٥٨٩هـ)

+ بعد موت صلاح الدين تنازع أبناؤه الستة عشر الحكم، وأنتهت الحروب الأهلية بينهم بتقسيم حكم مصر وسوريا. وحكم مصر ابنه الثالث عماد الدين وسُمي «**الملك العزيز**».

+ ومن حماقة عم العزيز (الملك العادل) أنه طلب من إبن أخيه هدم الأهرام، ففشلوا. وقابل المصريون ذلك بالسخرية. كما أمر بإبطال عيد وفاء النيل، ولما أصرّ علي رأيه رجاه المصريون فلم يقبل، ولكن الموت عاجله، فعادوا إلي الاحتفال به في موعده.

+ وكان قد مضي وقت طويل علي الكنيسة الملكية (الرومية) بدون بطريرك فرسم بطريرك القسطنطنية بطريركاً لفرع الكنيسة اليونانية في مصر باسم «مرقص».

+ وكتب مرقص هذا إلي القسطنطنية بأن الجاري هو قداس مارمرقس، فطلب منه بطريرك القسطنطنية أن يصلي طبقاً لقداسات القديسين يوحنا ذهبي الفم وباسيليوس، وإبطال كل الطقوس المصرية واستبدالها بطقوس بيزنطية (وظل الحال هكذا الي الآن).

+ وكان علي الكرسي المرقسي البابا يوحنا السادس (١١٨٩ - ١٢١٦) ويُقال أنه كان أرملاً، مع أنه كان من الضروري أن ينتخب بطريرك قبطي أعزب من بدء حياته، لكن فصاحته وعلمه وحكمته أكسبته الأفضلية في الترشيح للرسامة عن باقي المرشحين الآخرين من الرهبان.

+ وقيل إنه كان تاجراً قبل رهبنته، وكانت له مواهب في عمل الخير. وهي التي أهلّته لهذا المنصب الروحي الرفيع.

+ وجاء المؤرخ عبد اللطيف البغدادي، وكتب عن أحوال مصر ف عهده، وقد زار رجلاً يهودياً مشهوراً اسمه موسي ميمونيدس (إبن ميمون). كما زار الأهرام قبل أن يُشوَّه الملك العزيز نقوشها الهيروغليفية. كما أعجبته المباني المصرية العالية. ووصف البغدادي المجاعة والوباء الذي حدث سنة ١٢٠٠م، وكيف أكل الناس الكلاب والخيل. ومات منهم كثيرون، وكانوا يأكلون اللحوم البشرية، حتي بلغ بها الحال أنها كانت تُبا ع في الأسواق. ورآها المؤرخ بنفسه هناك!!

+ كما وصف البغدادي نتيجة ما أصاب مصر بشدة من مرض الطاعون، الذي فتك بكثيرين.

+ وفي عام ١٢٠٣م أغار الصليبيون علي شمال الدلتا من جهة رشيد، وعسكروا في قوة. وقاموا بذبح العديد من الناس من المسلمين والأقباط. فتركها أسقفها المدعو «**كيلوس**»، وفي نفس الوقت عانت مصر بشدة من زلزلة عظيمة!!

+ وجاء الملك العادل من سوريا، وأتفق مع الصليبيين علي أن يُقدّم لهم مدن يافا واللد والرملة (بفلسطين) نظير جلائهم عن مصر.

+ وجاء إلي مصر وفد من الحبشة، لاختيار ورسامة مطران لها. وظل البابا

يوحنا السادس يمر علي الأديرة لاختيار راهب ليرسمه للحبشة. وقد ملَّ الوفد الحبشي من طول الانتظار في مصر، فاختار البابا أسقف «فوة» (المدعو كيلوس) ورقّاه لرتبة مطران، لأن كل شعبه كانوا قد ماتوا في عدوان الصليبيين علي مدينته.

+ ولما أكتشف هذا المطران سرقة أواني كاتدرائية أكسوم، أتهم الكاهن الحامل لمفتاح خزينة الكنيسة بسرقتها. وقام بضربه بشدة، فوقع ومات مما أدي هذا السلوك السلبي إلي استياء الأحباش منه، فاضطر أن يفر إلي مصر. فأرسل البابا للحبشة. للإستعلام عما حدث بالضبط.

+ وجاء وفد من الكنيسة الحبشية يعلن ماحدث ويطلب رسامة مطران آخر، وأرسل امبراطور الحبشة هدية للملك الكامل بن الملك العادل الذي كان منشغلاً بالحرب مع الافرنج في الشام، وتشمل أسداً وفيلاً وزرافة، فاصدر الأمر للبطريرك القبطي برسامة مطران جديد للحبشة.

+ وبعد محاكمة علنية من المجمع المقدس، تم حرم كيلوس وتجريده من رُتبته، ورسامة راهب يُدعي «**إسحق**» من دير القديس أنطونيوس، فساس الكنيسة الحبشية (الإثيوبية) بحكمة، وعاش ٤٠ سنة هناك، فاعتبره الأحباش قديساً.

+ وقد جلب المطران إسحق عُمالاً مصريين، نقشوا بأحجار صلبة الكنائس الحبشية، التي أدهشت البرتغاليين الذين زاروها، بعد زمن طويل.

+ وكان القائم بادارة مصر في غياب العادل إبنه **الملك الكامل** (ولي العهد) وكان مُحباً للأقباط. وكان الذين أسلموا. بضغط من السلطان صلاح الدين (الأيوبي) يأملون العودة للمسيحية بقرار منه. ومنهم راهب كان قد أجبره السلطان علي الاسلام، وعيَّنه كاتباً في الحكومة. فتقدم هذا

المسكين الـي الملك الكامل ليعود للإيمان، وأعلن له أنه يُفضّل الاستشـهاد من أن يبقي مسلماً. فتم فصله من العمل الرسمي، وأمر الكامل ألا يمسه أحد بسوء وتاب عن خطاياه وعن تظاهره بالاسلام، وعاد إلي الرهبنة.

+ وكـان قبطي آخـر من مـدينة طيبـة (الأقـصـر) قـد أسلم بـالعُنف، لما سـمـع بنجـاح راهب وادي النطرون في مـسـعـاه، التـمس مـثله من الملك العـادل العـودة إلي ديانتـه المسـيـحـيـة، وكـان الملك العـادل قـد حـضـر فـجـأة من سـوريا. فـاسـتـاء من عـمل إبنه الكامل، في الموافـقـة علي عـودة الراهب للمـسـيـحـيـة، فـأرسـل جنوداً لوادي النطروان لقـتله إن لم يرجـع للإسـلام، ولكنه خاف للأسف، وأنكر إيمانه وأضـا ع إكليله بحماقته.

+ وصـار يتملّق رجال الحكومة بالادعاء كذباً بـأنه قادر علي أن يرشـدهـم إلي كنوز الأديرة. فلمـا سـمـع الرهـبـان بقـرب قـدوم المسلمين إلي الدير، أخـفـوا آنيـة الكنيسة في بئـر بلا مـاء، وعن طريق الراهب الخـائن عثروا بـالبئـر علي كأس وصينية. وتوسط الملك الكامل لدي والده الملك العادل، فأمر بردها إلي ديرها.

+ ولما تنيَّح البابا يوحنا (السادس) بكي عليه أسقف يوناني، وشـهد بقداسـته أولئك الذين كانوا يتـهمون الكنيسـة المصرية بالهرطقة، وشـهد عنه أيضـاً مؤرخ مسلم بأنه كان لا يأخذ أي مال عند الرسامات الكهنوتية.

+ وظل الكرسـي المرقـسـي شـاغـراً، لعـدم اتفـاق الأسـاقـفـة علي أحـد من المرشـحين.وتم ترشـيح رجل غـيـر مـشـهـور يُدعي بولس، وآخـر شـمـاس لكنيسة المُعلقة والثالث القس داود بن لقلق (الفيومي). وأشتهر بمطامعه في الكرسي البطريركي، وكان يميل اليه بعض الأساقفة. ولم تؤهله عدم لياقته دينياً أو علمياً أو أدبياً للرسامة. وسبق أن حَرَمه أسقفه، بسبب إثارته شغباً في الكنيسة، وكان قد رشحّ نفسه للرسامة كمطران للحبشة، فانتهره البابا يوحنا السادس.

+ وكان له صديقاً لناظر الحربية،والذي كان قبطياً، ولكنه لم يكن غيوراً علي طقوس الكنيسة القبطية، فسعي -لدي الملك العادل - حتي أصدر أمراً بسيامة ابن لقلق. فثار الأقباط وحضروا لقصر الملك الكامل، الطيّب القلب، الذي مضي إلي أبيه وشرح له شكواهم، فتأجلت رسامة داود لأجل غير مُسمًّي. ولما سعي ناظر الحربية لرسامته مرة أخري، كما سعي طبيب الملك العادل القبطي عكس ذلك، فاضطر الملك العادل لمنع رسامة داود، وبقي الكرسي المرقسي شاغراً مدة طويلة.

✢ ✢ ✢

الفصل الرابع والخمسون

الصليبيون في مصر مرة أخري

(١٢١٦م=٩٣٢ش=٦١٣هـ)

+ توّغل الصليبيون - في حملتهم السادسة - علي المسلمين في فلسطين، واستولوا علي أهم مدن سوريا، بسبب أنقسام الدولة الأيوبية، ثم جاءوا إلي مصر وهاجموا دمياط، وإستولوا علي بُرجها.

+ ولما بلغ خبر موت الملك العادل إلي إبنه الكامل، تولي العرش مكانه، ولكن الجنود رفضوا الاعتراف به سلطاناً، لمحبته للسلام ورفقته للمسيحيين،

+ ولو كان الصليبيون قد تقدّموا للإستيلاء علي القاهرة - في تلك اللحظات -لتم لهم ذلك، بدون مشقة، ولكنهم أضاعوا الفُرصة في انشقاقهم - كالمسلمين تماماً - في نفس الفترة.

+ واستعان الملك الكامل بأخيه نور الدين (المدعُو عيسي المُعَظّم) فأسرع

اليه من سوريا، وآلـزم الجنود بالخضوع للكامل، فاستعد لمحاربة الصليبيين، الذين حاصروا دمياط عدة أشهر، وزادت قوتهم بقدوم القديس فرنسيس من آوربا، ومعه عدد من الرهبان. الذين كانوا يتمنون الاستشهاد في تلك الحرب.

+ ولما قبض المسلمون علي القديس ومعه رهبانه، وأتوا بهم للسلطان الكامل. فسألهم عن سبب اقترابهم من معسكره، فقال له القديس إنه حضر بإرادة الله ليُظهِر للسلطان وشعبه طريق الخلاص. فابتسم الكامل وسُر من شجاعته. وطلب منه الملك الكامل أن يبَقَي في ضيافته عدة أيام.

+ وقد اقترح القديس فرنسيس أن يُعد الملك أتوناً من النار ويدخل فيه القديس مع آحد مشايخ اليهود والمسلمين. فمن كانت النار لا سلطان لها عليه هو صاحب الدين الصحيح. كما آقترح عليه آن يدخل الأتون وحده، فإذا خرج حياً يتحتم علي الملك آعتناق المسيحية مع كل شعبه، فرفض الملك كل ذلك، وآخرجه بكل لطف. ورفض القديس قبول هداياه الثمينة. فطلب آن يدعو له.

+ واقترح الكامل آن يخرج الصليبيون من مصر، في نظير تسليم بيت المقدس، وكل آملاكه في فلسطين وصليب المسيح، الذي سبق فوعد السلطان صلاح الدين بتسليمه لهم ولم يُبَر بوعده. وإطلاق سراح كل الآسري الذين عنده.

+ فلم يوافق الصليبيون علي تلك الشروط الممتازة. واستولوا علي دمياط (١٢١٩م) بعد حصارٍ دام أكثر من ستة أشهر، حتي آشتد فيها الغلاء وبلغ ثمن البيضة عدة دنانير. وقتل الصليبيون كثيرين من سكان دمياط

وأساءوا إلي أقباطها، وعينُّوا لها مطراناً لاتينياً (رومانياً)، وحولوا جامعها إلي كنيسة باسم العذراء.

+ وتفرَّق الصليبيون في القري وقتلوا ونهبوا كثيرين. وداسوا حقوق الكنيسة اليونانية وتعدُّوا علي بطريركها، وذكر المؤرخ الفرنسي رينودو أسماء ١٤ بطريركاً لاتينياً أُقيموا علي الكرسي الاسكندري. ولكن لم يبقَّ بها منهم سوي الأثنين الأولين فقط • ومما ساعد علي ذلك أن الكنيسة القبطية كانت – في ذلك الحين – خالية من بطريرك يُعارض في الإنشاق الذي أحدثه الصليبيون.

+ وكتب نقولا بطريرك اليونان في مصر – إلي بابا رومية – يتوسل اليه أن يأمر الصليبيين بإطلاق سراح الأسري المسيحيين في دمياط، كما كان معهم شماس لاتيني، طلب منه أن يقيمه كاهناً لهم في السجَن، فلم يجبه لطلبه إلا بعد موافقة العاهل الروماني. فأمر البابا الروماني بأن يكتبوا للبطريرك نقولا بوجوب الخضوع لكنيسة رومية أولاً.

+ وكان من بين المحاصرين أسقف عكا، الذي لما رأي الصليبيين يبيعون سكان دمياط اشتري منهم نحو ٥٠٠ طفل وعمدهم. وتري السيدة بوتشر أن أكثرهم كانوا من الأقباط، فتكرَّر عمادهم!!

+ وعسكر الملك الكامل في الجهة المقابلة لطلخا، وأمر ببناء البيوت والفنادق والأسواق هناك، وتسمت فيما بعد **بالمنصورة**. واستنجد بكل المسلمين، بالنداء «بالجهاد الديني»، فوصلته قوات من ملوك مسلمين، حتي وصل عدد الفرسان الي ٥٠ ألفاً، ونصف مليون من المشاة المسلمين•

+ وانتصر الملك الكامل علي الصليبيين، وعقدوا هدنة معه، ولكنه خرج من

الحرب منهوك القُوَي، وفي حاجة شديدة للمال، ففرض الضرائب علي الصنَّاع، وعلي الكنيسة القبطية.

+ وابتدأ الكامل ورجال حكومته يستميلون الأقباط لقبول داود بن لقلق بطريركاً لهم للحصول علي رسوم البطريركية التي تُدفع للدولة، ولأخذ المال من داود نفسه لتحقيق طموحاته، ومع آن الأساقفة احتجوا علي رسامته، ولكنه عَمَد إلي تولِّي الكرسي المرقسي بدون احتفال أو رسامة من أساقفة!!

+ فارتدي ملابس البطريرك واحتفل به أعوانه، ومضي إلي كنيسة القديس سرجيوس (أبي سرجة) للصلاة، ولم يُبالِ بصراخ الأقباط الذين تجمعُّوا حول الكنيسة.

+ ولما رأي قواد الجيش كثرة عدد الرهبان والأساقفة والشمامسة ساقوهم لبناء الاستحكامات والحصون في دمياط والمنصورة، ثم أخبروهم بأنهم ساقوهم لتجنيدهم، فاشتكي الأساقفة للملك الكامل، ففرض عليهم فدية من المال بدلاً من الخدمة بالجيش المصري.

+ وقد عاني الأقباط من الصليبيين الذين ظنوا آن الأقباط هراطقة، ماداموا خارجين عن المذهب الكاثوليكي، وليسوا تحت سلطان بابا روما، كما زاد التعصُّب الاسلامي علي المسيحيين عموماً، من تاثير ما فعله المسيحيون اللاتين.

+ وقام الصليبيون بهدم الكنائس القبطية، كما هدم المسلمون كنيسة قبطية قديمة وعظيمة في الاسكندرية، خوفاً من استيلاء الصليبيين عليها واتخاذها حصناً لهم - عند الهجوم علي الاسكندرية - بسبب متانة بنائها، وبعدما هدموها جعلوها جامعاً، ولا تزال آثارها موجودة عند باب القباري (في عهد الكاتبة).

+ واستخدم الملك الكامل مياه الفيضان في إغراق الأراضي التي تفصل جيش الإفرنج عن دمياط، حيث مؤنهم وذخائرهم، فاضطروا إلي عقد هدنة والرحيل عن مصر.

+ وفرح الأقباط بهزيمة الصليبيين المُتعصبين، والذين كانوا أقسي في معاملتهم لهم من المسلمين، ولكن كانت ضربة قاضية لآمال الكنيسة اليونانية (الرومية) في مصر .

+ وقد كتب البطريرك الرومي نقولا - خطاباً للبابا الروماني هونوريوس - بعد انسحاب الصليبيين من دمياط، أنكر فيه بالمرة وجود الكنيسة القبطية، وزعم فيه كذباً أن كل الشعب المسيحي في مصر مستعدين للخضوع لرئاسة العاهل الروماني، كما ذكر المؤرخ الفرنسي نيل، ويطلبون تدّخله لإنقاذهم من الاضطهادات الاسلامية، وفرض ضرائب باهظة علي الفقراء وتسخيرهم في الأشغال الشاقة، وينتظر قدوم الامبراطور الروماني لإنقاذ مسيحيّي مصر.

+ ثم يذكر له طريقة وصول الامبراطور الروماني. لاحتلال مصر، عن طريق دخول سفنه من فرع رشيد. وفي ختام رسالته يذكر للبابا الروماني أنه أثناء حرب الصليبيين قد تم هدم ١١٥ كنيسة (ولم يذكر من الذي هدمها؟!).

+ وكان السلطان الكامل مرتاباً في سلوك الكنيسة اليونانية في مصر فلم يسمح لهم ببناء الكنائس التي تهدّمت أخيراً في الحروب الأهلية، مع إذلالهم، أما الأقباط فقد سمح لهم ببناء ما تهدّم من كنائسهم، وممارسة طقوسهم الدينية بكل حرية.

+ ومما يدل علي سياسته اللينة معهم أن أمراءً قبضوا علي بعض الرهبان

وسلبوا كل ما لهم - بدون وجه حق - بدعوي أنهم تأخروا عن دفع الجزية السنوية، فشكوهم للملك الكامل، فأمر بأرجاع المال اليهم، كما أنه رفض قبول كل رشوة قُدمت اليه من أجل الموافقة علي ترشيح القس داود ابن لقلق بطريركاً.

+ وقد زار بنفسه أديرة وادي النطرون، وتفّقد أحوال الرهبان، ووجد بدير أبي مقار موظفاً مسلماً ساكناً به، فأمره بالرحيل. ولما شكا الرهبان له من عدم رسامة بابا، أعلن لهم بأنه ليس ملوماً علي هذا التأخير، وأنه يود لو لقي منهم اتحاداً في اختيار بطريرك، وأنه سيُصادِق عليه، وسيتنازل عن الرسوم المقررة للحكومة عند تنَصيبه.

+ ولما رأي اضطراب حال الأقباط وعدم قدرتهم علي اختيار بطريرك لهم، نفذ صبره، وندم علي اعفائه الرهبان من دفع الجزية، لأنه رأي مئات من الأقباط العلمانيين يترهبون بهدف إعفائهم من الجزية، فأمر بالبحث عن هؤلاء المخادعين، فاتخذ رجاله من هذا الأمر فرصة لسلب أموال أديرة الرهبان.

+ ولما استراح الكامل من الثورات طمع في أملاك إخوته بالشام، وأغري الامبراطور فردريك علي اغتيال اخيه ملك دمشق، ثم استولي علي المملكتين بعد موت أخيه.

+ ولما كان محتاجاً للمال، فقد قبل رجاء أعوان ابن لقلق. وسمح لهم برسامته بطريركاً علي يد بعض الأساقفة القليليين، الذين كانوا أحياء حتي هذا الوقت، فرسموه تحت تهديد الأعوان بقتلهم!!

+ وبذلك انتصرت عصا داود الحديدية، بعد دسائس دامت عشرين سنة، لتولّي الكرسي المرقسي.

+ وبعد تسلُّط الكامل علي مملكتيّ أخويّه، أراد أن يقتل أيضاً الملك الناصر ابن أخيه، فاتحد مع أخ آخر له بالعراق واتفقا علي قتله، ومضي إلي سوريا لهذا الغرض الفاسد سنة ١٢٣٧م ووصل إلي دمشق، **حيث مات هناك فجأة** (وهو درس هام لكل طامع في مناصب وماديات العالم)!!

+ وقد أختار المصريون ابنه سيف الدين المُلّقب بالملك «**العادل**» (الثاني) وكان قد أقامه محله، قبل سفره لسوريا، وقد كان الكامل محباً للعظمة وللفضيلة والعلم ومباحثة العلماء، ولكن بلا تنفيذ فعلي!!

✣ ✣ ✣

الفصل الخامس والخمسون

البطريرك المرذول (١٢٣٧م=٩٤٣ش=٦٣٤هـ)

+ جلس داود بن لقلق علي الكرسي المرقسي بالعُنف، ولم يكن في رعيته من يقدر علي مناقشته أو محاسبته علي انحرافاته، واتخذ اسم «**كيرلس**» البابا العظيم (عمود الدين) ولم يكن يُشبهه سوي في الإدارة الحازمة فقط.

+ وعند تولّيه احتفل احتفالاً كبيراً أغاظ المسلمين عند سماعهم به!!

+ وفي البداية استمال الرأي العام القبطي بأن رسم بعض الكهنة والشمامسة (deacons) بدون رسوم (سيمونية). ولكنه باع نحو ٤ أسقفيات خالية لكهنة كانوا يتسابقون في دفع المال له،لشغل تلك الكراسي الأسقفية!

+ ولما قاومه الأعيان (الأراخنة) أعلن لهم أنه مُضّطر لأخذ المال، لسداد

المطلوب للحكومة نظير تنصيبه بطريركاً. وكان هناك راهب يُدعي «**بطرس**» استاء من تصرفاته، ولم يُطِق السكوت علي مظالمه، فانسحب – مع بعض الرهبان – من الكنيسة القبطية (إلي الرومية)، إذ لم تكن لهم طاقة علي إقناعه بالعدول عن السيمونية.

+ ولما اشتد احتجاج الشعب علي السيمونية، دعا البابا كبار رجال الإكليروس والأعيان من العلمانيين. وحلف لهم بأنه بمجرد جمع المبلغ المطلوب سداده للحكومة سيتوّقف عن الرسامة بالمال.

+ وأصدر ابن لقلق منشوراً استبدادياً – لجميع الأبروشيات – والكنائس باعتبار جميع الأديرة والصوامع تابعة مباشرة للبطريركية، بهدف جمع إيراداتها لنفسه، ولتكون له السُلطة (السيطرة) المطلقة عليها!!

+ كما أصدر أمراً آخر بجعل الايرادات الخاصة بالآساقفة تحت سلطته وإدارته، وقراراً آخر يعطيه حق السلطة الادارية علي كثير من كنائس الأبرشيات، التي كانت تحت سلطة الأساقفة، لتكون تحت إدارته المباشرة!!

+ ولم يكتفِ باغتيال حقوق أساقفته مادياً وأدبياً، بل طمحت آنظاره إلي حقوق بطريرك انطاكية – كما فعل باباوات روما في القرون الوسطي – إذ أعلن عن وجود عدد كبير من الأقباط المصريين بفلسطين، وأنهم لم يفهموا لغة الأسقف السرياني بأورشليم،أثناء الصلاة، وكان تابعاً لبطريرك انطاكية، وكتب له بذلك.

+ ورسم مطراناً لأورشليم، تابعاً للكرسي المرقسي، فاعترض الأساقفة والكهنة الأقباط علي هذا الأمر، وعدُّوه انشقاقاً عن كنيسة انطاكية التي تتفق معهم في العقيدة (الأرثوذكسية). ولكنهم نجحوا في حملّه علي

ارسال مندوب لبطريرك انطاكية – الذي كان مقيماً وقتــذاك في أورشليم – يطلب منه الاعتراف بالمطران القبطي الذي رسمه.ثم أرسله للمدينة المقدسة.

+ وقام اغناطيوس أيضاً برسامة مطران حبشي الجنس لكنيسة الحبشة، التي كانت تابعة لسلطان الجالس علي كرسي مار مرقس، ولم يذكر لنا التاريخ عما فعله هذا المطران الحبشي هناك!!

+ وكانت تلك الأعمال قد دعت إلي استغراب السلطان الكامل قبل موته، فاستهان به، وجعله ألعُوبة في يده. ومن أجل تُهمة تافهة سجنه. فدفع له كيرلس ١٥٠٠ قطعة ذهبية، من الأموال التي جمعها بطرق غير مشروعة، ليُخلِّص نفسه من الحبس!!

+ فلما تولي الملك العادل (الثاني) نجح ابن لقلق في نيل صداقته وحمايته بالمال، ولم يفعل ذلك مع أخويه اللذين اغتصبا عرشه بعد حُكمِه سنتين.

+ وبقي كيرلس علي الكرسي المرقسي ٨ سنوات أخري بمساعدة أصحابه المسلمين. ومحتقراً كل أعيان وأشراف شعبه من علمانيين وأساقفة، الذين كانوا يحاولون ردعه، منعاً لخراب الكنيسة، رغم أن أغلبهم كانوا قد نالوا الرتب الكهنوتية بالمال.

+ ولم يقم في الكاتدرائية الكُـبري في حصن بابيليون – كباقي البطاركة السابقين – إذ أضطر للبقاء في الإسكندرية. ولما توالت شكاوي الاقباط ضده، اضطر أن يأتي لمصر، ويقابل أساقفته في منزل حاكم العاصمة الذي كان صديقاً له، وكان قد حصل علي رشاوٍ منه، فحامي عنه!!

+ وكان ردّ إبن لقلق علي إتهامات الأساقفة: «إنه لم يسبق – في تاريخ البطاركة من عهد مارمرقس الرسولي إلي الآن-آن يحق للأساقفة أن

يخلعوا البطريرك عن كرسيه، لمثل تلك التُهم الباطلة التي يسردونها[1]، ومع ذلك أمامهم القانون الكنسي، فليأخذوه وليبحثوا فيه عما يُريحهم، أو يسنوُّا لهم قانوناً يُوافق أغراضهم»!!

وكانت طلبات الأساقفة – في تلك الجلسة القضائية – معتدلة ومعقولة (في نظر الكاتبة) **وتشمل**:–

١) إبطال السيمونية (الرسامة بالمال).

٢) احترام حقوق البطريرك الانطاكي بأورشليم.

٣) أن تكون حدود سلطة المطران الجديد، حتي حدود غزة فقط.

٤) فصل بعض رجال الاكليروس الذين رقاهم البابا بدون استحقاق، خلافاً للقانون الكنسي.

٥) أنه لا ينبغي عليه تقليد بدع الكنيسة الملكية اليونانية.

٦) تعيين أحد كبار الأساقفة ليكون سكرتيراً ومستشاراً خاصاً للبابا.

---

(١) تقول الكاتبة: «يقصد الأساقفة بتلك البدع أن البطريرك كيرلس قلد الكنيسة الملكية اليونانية في أمر الاعتراف السمعي (علي يد كاهن) واستعمله في كنيسته القبطية، بعد أن بطلت تلك العادة من زمن طويل».

* والواقع أنه إذا كان قد توقف الاعتراف لظروف خاصة ـ سبق شرحها ـ لكنه «كسر مقدس» كان موجوداً بالكنيسة القبطية منذ عصر القديس مارمرقس، وأنه رغم أخطائه المالية والادارية، **كان محقاً في إرجاع هذا السر المقدس**، والمؤكد من الكتاب المقدس، وأنه لم يكن مجرد عادة بطلَت أو تقليداً للكنيسة الرومية – كما قالت السيدة بونشر – بل توقفت ممارسته (سر الاعتراف التقليدي) بعض الوقت فقط – كما أكده ابن لقلق في دفاعه أمام حاكم القاهرة، لأنه أحد أسرار الكنيسة السبعة.

+ وكان من رأي ابن لقلق آنه سيعقد مجمعاً مقدساً رسمياً، لأنها آمور تمس العقيدة، ولا دخل للحاكم، أو الحكومة فيها- فصادق الحاكم علي ذلك وترك الاجتماع وخرج.

+ ولما طالبه الآساقفة بعقد ذلك المجمع. ماطل وآخذ يرشو الحُكّام المسلمين حتي فصل المُتزعم للحركة الاصلاحية الكنسّية من عمله وسجنه.فخمدت الحركة. ولكن أعمال ابن لقلق المذمومة زادت عن الحد.

+ فوقف ضده ١٤ أسقفاً عام ١٢٣٩م، واضطروه لعقد مجمع مقدس في كاتدرائية المُعلقة، وآعدُّوا عدة مباديء، ذكر ملخصها المؤرخ نيل، كما يلي:-

١) لا يجوز رسامة آسقف إلا إذا كان حائزاً للصفات الشخصية الدينية والعلمية التي تؤهله للرسامة، وبعد رضاء الشعب عنه. وبالانتخاب القانوني الحُر.

٢) آن تتم سيامة الكهنة والأساقفة – بواسطة البطريرك – بدون مقابل نقدي.

٣) محظور علي القضاة من رجال الدين المسيحي قبول هدايا. ومن يتجرأ علي مخالفة ذلك يُحرّم من الخدمة في الكنيسة.

٤) يلزم تعيين لجنة لعمل مختصر للقوانين الكنسية الروحية والاجتماعية، لكي تستفيد بها الكنيسة ويتقيدّ بها الشعب.

٥) ينشر هذا القرار في كل القطر. وآن تُحل القضايا. طبقاً لهذا القانون ومبادئه من الآن فصاعداً.

٦) عقد مجمع مقدس من الأساقفة ـ سنوياً ـ في الاسبوع الثالث بعد عيد العنصرة.

٧) يجب المحافظة علي تقاليد الكنيسة القبطية بكل دقة.

٨) يتم الختان (للذكور فقط) **قبل العماد**، إلا في حالة الضرورة القصوى التي توجب تأخيره لبعد العماد.

٩) لا يجوز ترقية من كان أسيراً أو عبداً (رقيقاً) لدرجة الكهنوت، باستثناء شعبيّ إثيوبيا (الحبشة) والنوبة (السودان)، لظروفهما الخاصة.

١٠) عدم رسامة أبناء الأمهات من زيجة ثانية، ويستمرون علمانيين.

١١) يلزم بقاء مطران دمياط الحالي في منصبه!!

١٢) لا يُصرّح للبابا - ولا لأي أسقف - أن يرسم أحداً لدرجة كهنوتية خارج أبروشيته.

١٣) لا يحرم البطريرك أحد المؤمنين - في أبرشية غير تابعة له إدارياً - قبل أن يحذّره وينصحه أسقف تلك الأبرشية، الذي لم يرَ فائدة من النُصح والارشاد، وهو وحده الذي يحرمه. فإن رفض الأسقف إجراء ذلك، فللبطريرك الحق في إجراء ما تُخوّله له سلطته معه.

١٤) هذه القاعدة مرعية في اجراء الحِلّ، كما هي في الحروم.

١٥) تُرَّد الكنائس، التي أخذ البطريرك (إبن لقلق) إدارتها إلي أساقفة أبروشياتها.

١٦) الرسوم التي يدفعها رهبان الأديرة للبطريرك تكون بطرق عادلة، وغير ظالمة لهم (حسب امكانياتهم المالية).

١٧) لا يجوز للبطريرك أن يُجبر أسقفاً علي رسم من يكون لائقاً للكهنوت بدون أرادة ذلك الأب الأسقف.

١٨) ليس للبطريرك الحق في المطالبة بالهدايا والنذور، التي يقدمها الشعب، للكنائس المختلفة، التي تقع في دائرة الإيبارشية، إلا بموافقة أسقفها.

١٩) يحكم في شكاوي الرهبان ودعاويهم رجال من غير العلمانيين (أي رجال من الاكليروس).

٢٠) لا يتم حرم أسقف لعلة بسيطة، أو قبل أن يُرسل اليه ٣ إنذارات من البطريرك نفسه، مصحوبة بالنُصح والإرشاد. الأول والثاني بالكتابة رسمياً، والثالث بإنذار شفاهي.

٢١) أن يُعتبر روساء الأديرة رؤساء كهنة. فيُسمح لأي واحد منهم أن ينطق بالحِلّ للكاهن القائم بالخدمة في الكنيسة (الموجودة بالدير أثناء القداس).

٢٢) لا يجوز لمؤمن أن يحضر الخدمة الربانية – في الأعياد – في كنيسة خارج إبرشيته، وإلا تعرَّض لعقاب الحرم.

+ وبعد أن قرأ البابا ابن لقلق بنود القانون المذكورة رفض أن يُوّقع عليه، وتعلل بأسباب لم يقبلها الأساقفة، فهدّدوه بأن يمتنعوا عن التناول من السر الاقدس معه، فاضطر إلي التوقيع عليه.

+ وعملوا مختصراً للقوانين الكنسّية[١] – كما قالوا – وتم توزيعه علي كل الأبروشيات. وضم الكُتيّب ١٩ قسماً في ٥ فصول (للعماد، الزيجة، والوصايا، وللميراث، وللكهنوت).

✠ ✠ ✠

(١) الذي عمل هذا المختصر هو العالم اللاهوتي القبطي الصفي بن العسال (**هامش اصلي**).
(وقد جمع فيه كل قوانين الكنيسة وقوانين الملوك).

+ وقد قام أخو الملك العادل (الثاني) المدعو الملك الصالح بخلع أخيه، بعدما حكم لمدة سنتين فقط. وفي أثناء ذلك ثار بعض الرعاع - بوقاحتهم المعتادة - وانتشرت الفوضي، وعاني منها الأقباط بشدة كالعادة.

+ وتودّد إبن لقلق للملك الصالح، ونكث عهده مع الاكليروس والشعب، وعاد الي سابق أعماله الذميمة، من حيث طمعه في جمع المال أو الميل إلي العظمة، وعمل عدة مفاسد، حتي آن رجال الحكومة شرعوا في محاكمته، ولكن لم يتحد أسقفان في شهادة واحدة ضده - أمام المحكمة الإسلامية - كما أنه لم يعترف أي أسقف بحق الحكومة في عقاب البابا. وقالوا إن ذلك من اختصاصهم وحدهم.

+ وعقد الأساقفة مجمعاً - بحضور كبار الشعب القبطي - وطالبوا البطريرك ابن لقلق بالاصلاح الذي وعد به ولم يتم!! فقابلهم بالاحتقار الشديد (وما أكثر ضرر الغرور، وكبرياء النفس).

+ وحملت الغيرة المقدسة بآن يعد أحد كبار العلمانيين مشروعاً بقانون يلزم البطريرك بأن يُوّقع عليه. علي أساس تعيين كاهن آمين. لحصر وضبط الإيرادات والأوقاف ـ التي كان يحصلها البطريرك ويصرفها لمنافعه الشخصية - وآلزمه أيضاً أن يرسم أسقفين لآبروشيتين. بدون آخذ رسوم (سيمونية)، وكان ابن لقلق قد ترك هذين المركزين خاليين، طمعاً في من يدفع له مبلغاً أكبر. كما أنه حصر حق رسامة الأساقفة في شخصه وحده!!

+ كما ألزمه هذا الأرخُن ايضاً بتعيين ناظرين لمدرستّي القاهرة وبابيلون، وأن يصرح للأديرة بآن تكون تحت سلطة الأساقفة التي تقع في دائرة إبروشياتهم.

+ ولما عرض هذا الشخص نصوص هذا المشروع علي المجمع المقدس، لم يُقرَّه الأساقفة لأنه لا يضمن الإصلاح الحقيقي. وانفضت الجلسة بدون اتخاذ أي قرار..

+ وقد استاء أحد أصحاب ابن لقلق من بُخله عليه فوشي به إلي حاكم القاهرة. فقبض عليه وحبسه، وحاول أن يجعل أساقفته يشهدون ضده، فأقر ٩ منهم بصحة التُهم المنسوبة اليه، ولكنهم عرضوا أن يسامحوه ويحلُّوه من خطاياه، بشرط أن يُوّقع علي شروط الاصلاح، التي سبق أن أمضاها في العام السابق.

+ فوقع عليها ابن لقلق، ولكنه سار في الخطة الفاسدة السابقة. فاجتمع الأساقفة سنة ١٢٤١م وطالبوا بخلعه ولم يستطيعوا، فأبلَغ عنه حاكم القاهرة الملك الصالح. ففرض عليه غرامة تاديباً له. ولكنه لم يأخذ الدرس، بل استمر في فساده، فأخذ الله روحه سنة ١٢٤٣م، وحمد الناس الرب علي خلاصهم من طغيان ابن لقلق، الذي ظل جاثماً علي الكرسي المرقسي لمدة ٨ سنوات!!

+ وبعد موت كيرلس (داود ابن لقلق) ظلت الكنيسة في حالة فوضي. إذ ظل الكرسي المرقسي شاغراً لمدة ٧ سنوات، لعدم الاتفاق علي ترشيح شخص لرسامته!!

✣ ✣ ✣

الفصل السادس والخمسون

القديس لويس (ملك فرنسا) في مصر

(١٢٤٥م=٩٦١ش=٦٤٣هـ)

+ كانت الحملة الصليبية السابعة بقيادة الملك لويس الفرنسي، الذي أرسل

رسالة إلي الملك الصالح، الذي كان مريضاً. وقد حذره فيها لويس من قوة جيشه، وكثرة عدد جنوده وعتاده الحربي.

+ واستولي الملك لويس علي دمياط. فأمر الملك الصالح بتحصين المنصورة، ولكنه من شدة تأثره علي ضياع دمياط، اشتد عليه المرض وتوفي سنة ١٢٤٩م، وكان عمره ٤٠ سنة. وأما الصليبيون فبقوا في دمياط ٤ أشهر، وكان يمكنهم الاستيلاء علي المنصورة وما يليها، ولكنهم مالوا للدنس أمام لويس التاسع، الذي كان صالحاً، ولكنه لم يستخدم ما يردع عساكر جيوشه عن فسادهم، بل صرف همه لزيارة الكنائس، وتأييد الانشقاق الذي أوجدته الكنيسة اللاتينية قبل ذلك بثلاثين سنة (١٢١٩م) بإقامة بطريرك كاثوليكي لدمياط.

+ وكانت من جملة جواري الملك الصالح الراحل جارية بيضاء محبوبة إليه جداً - وهي أرمينية الأصل وتُدعي «**شجرة الدُر**»، وهي والدة طوران شاة ابن الملك الصالح الوحيد(١). وكانت شجرة الدُر قد أُشيع عنها أن الملك الصالح كان قد عهد اليها بإدارة البلاد في غيابه في حروبه بسوريا. فلما مات الملك تكتمت خبر وفاته، وكانت تُصدر الأوامر باسمه. وتآمر بإعداد الحصون للدفاع، حتي يصل ابنها توران شاه، الذي أعلنت أنه تولي الحكم رسمياً.

+ ودخل الصليبيون في حروب ومناوشات حتي جاء توران شاه من سوريا، وانكسر الصليبيون وطلب لويس الصلح، فلم يقبل المصريون ولا ملكهم، فعزم لويس علي التقهقر إلي دمياط، فقتل المسلمون منهم نحو ثلاثين ألفاً، حتي أمتلأ النيل بجثثهم، ثم أسروا الملك لويس وحاشيته وكبار

(١) ويقول المؤرخ المقريزي - في تاريخه - أن توران شاه هو ابن إحدي نساء الملك الصالح.

ضباطه، وذبحوا الكثير من رجال جيشه الأسري، لأنهم رفضوا أن يعتنقوا الاسلام!!

+ وأنتهي الاتفاق بأن يدفع ملك فرنسا غرامة مالية، علي شرط مُبارحة الصليبيين لدمياط. وفي نفس الوقت قامت ثورة بالجيش المصري، لإعتراض قواد المماليك علي أن يكون طوران شاه ملكاً. واستطاعت شجرة الدُّر السيطرة علي الموقف مؤقتاً، ولكن تمادي المماليك في الثورة ضده بشدة.

+ ويروي المؤرخ الفرنسي «جرانفيل» المعاصر لتوران شاه، أنه لما اشتَّم رائحة مؤامرة المماليك عليه هرب إلي برج كان قد بناه في فارسكور، فحاصروه وطلبوا إنزاله بالقوة. ثم أشعلوا النيران في البرج، فقام بإلقاء نفسه في النيل وقتلوه بعد سقوطه في المياه.

+ وهكذا أنقرضت الدولة الأيوبية. وانتهت الحملة الصليبية السابعة بالفشل.

+ واستطاعت شجرة الدر أن تصير ملكة لمصر، ولكن الخيفة العباسي في بغداد استهزأ بها. فقامت ثورة ضدها في دمشق. فتزوّجها عز الدين أيبك المملوكي وصار سلطاناً لمصر، ولكن ظل الحكم الحقيقي في يد الملكة، كما كان مثل ذي قبل.

+ وبعد ذلك تم ارغام المماليك للملك المعز أيبك بأن يبايع حفيد السلطان الكامل وكان دون الثامنة - المدعو مظفر الدين - ولقبوه «**بالملك الأشرف**» ولم يكن سوي ملكاً بالاسم، وبعد نحو سنة سجنه أيبك في القلعة فمات، وبذلك انقرضت المملكة الأيوبية وبدأت دولة المماليك.

* * *

الفصل السابع والخمسون

مصير ملكة ظالمة

(١٢٥٠م=٩٦٦هـ=٦٤٩ش)

+ أكثر الملك الصالح من شراء المماليك لخدمته، ولجيشه، ثم صار منهم الأمراء، الذين أصبحت مصالح الدولة كلها في أيديهم، وأصبحوا طامعين في الحكم، وبني لهم الملك الصالح حصوناً وثكنات في جزيرة الروضة، ومنها أشتّق اسم مملكتهم «**دولة المماليك البحرية**».

+ ولما جلس أيبك المملوكي - زوج شجرة الدر - علي عرش مصر، قام سلطان دمشق الأيوبي - ويُدعي **ناصر الدين**، بمفاوضة القديس لويس - ملك فرنسا - وكان مقيماً في عكا، بعد ترك مصر، لمساعدته في استرداد مصر في مقابل التنازل له عن بيت المقدس، ولكن أيبك أسرع إلي الأتفاق مع لويس بدلاً من معاهدة سلطان دمشق معه، علي أن يقدم له فدية مالية، وأن يعيد له الأسري المسيحيين، والأولاد الذين أجبروهم علي اعتناق الإسلام.

+ وقد اغتاظت شجرة الدر من زواج أيبك من زوجة أخري، فأمرت خمسة من الخصيان بقتله، فاغتالوه وهو في الحمأم، وأحاط حرس أيبك - من المماليك - بقصره، وطلبوا الانتقام من قاتلته!!

+ وتولي إبنه «نور الدين» وكان عمره ١٥ سنة، وأسمُوه «**بالملك المنصور**». وأنتقم من شجرة الدُرّ بأن سلّمها لنساء قصره فضربوها (بالقباقيب الخشبية) حتي قتلوها وألقوا بجثتها تحت القلعة، فأكلت منها الكلاب، وتم دفن الباقي!!.

+ ولم يتمتع الأقباط بالراحة أثناء العشرة السنين التي تلت وفاة كيرلس المرذول، لأن البلاد عانت من كثرة تولي الملوك وسرعة قتلهم، ولكنهم لم يقعوا تحت اضطهاد رسمي، لأن المماليك كان همهم الأول محصوراً في الاستيلاء علي الحكم وعمل الدسائس بشأنه، ولم يلتفتوا إلي الاضطهاد الديني للمسيحيين (الأقباط).

+ وفي بداية حكم شجرة الدُرّ توصلوا لانتخاب بطريرك جديد، بعد خلو الكرسي المرقسي سبع سنوات.

+ ولما تولي البطريرك **أثناسيوس الثالث** (١٢٥٠ - ١٢٦١م) بذل كل جهده لإصلاح ما أفسده سلفه. وقد ضغط علي الأساقفة الذين رسمهم ابن لقلق بالمال، ولم تكن رسامتهم باستحقاق، فعاملهم بشدة. وكان من الأقباط من استصوَب تلك الصرامة، ومنهم من رفضها، ومع ذلك زاد الارتداد منهم عن الإيمان للأسف!!

+ لما تولي السلطان نور الدين، صادق الأمراء علي تعيين شرف الدين هبة الله القبطي (الذي أسلم وكان اسمه تادرس)، رئيساً للنظار (الوزراء) وأتابكاً (وصي الملك ونائبه) وطبيبه الخاص. ،كان مبدأُه التظاهر بحب المسلمين، وكراهيته للنصاري. وفرض عليهم ضرائباً مُضاعفة!!

+ ثم قام المماليك بسجن نور الدين، وصلب شرف الدين (تادرس)، علي باب القلعة (وماذا يستفيد الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه؟!). وتولي الوزارة بعده «**سيف الدين قطز**» فقام بخلع الملك الشاب نور الدين، وقبض عليه وأمر بقتله، بعدما تولي الخلافة. ولُقِّب «**بالملك المُظفّر**».

+ وقد جاءه رسول من قِبَل «**هولاكو**» زعيم التتار المغول، وحفيد جنكيزخان

القائد التتاري الجبار. وقد تضمنت رسالته إلي قطز بأنه قضي علي الخليفة العباسي المستعصم بالله، وسقطت بذلك الدولة العباسية بعد الاستيلاء علي بغداد.

+ وهدد المغول مصر بضرورة الاستسلام مثل دمشق وحلب. فأرتاع قطز.

+ ولكنه قاد الجيش المصري بنفسه. وانتصر علي المغول (في معركة عين جالوت بفلسطين)، وعاد الملك المُظَّفر (قُطز) للقاهرة، ولكن أستطاع أحد أمرائه المدعو «**بيبرس**» قتله خلال رحلة صيد، وتم اختيار بيبرس بدلاً منه ولُقّب «**بالملك الظاهر**». وكان خامس مملوكي - بعد شجرة الدُر - يختلس حُكم مصر، ونال قوة عُظمّي.

+ ولما تولي الظاهر بيبرس (١٢٦٠م) أبطل الضرائب الإضافية التي فرضها سلفه، وأكرم ابن خليفة بغداد الذي قتله التتار، وأعاد الحج من مصر إلي مكة، بعد توقف دام ١٢ سنة. ولما رفض حاكم مكة قبول الحجاج المصريين، مضي ببيرس واستولي علي كل أرض الحجاز وضمَّها لمصر.

+ وفي عام ١٢٦٢م حدثت مجاعة في مصر، ففتح بيبرس مخازنه.وكان يُقيت الآلاف يومياً، كما أسرع باستيراد طعام من الخارج أيضاً.

+ ونظراً لأنه كان مسلماً مُدقِقاً[١] فلم يكن يُتوّقع منه العطف والميل للأقباط، ولا نعلم إن كان ذلك لدواعٍ سياسية، أو لحاجته للمال في حروبه في الشام، مما دفعه لزيادة الطلب عليه.

---

(١) منع صناعة الخمور وحرّم بيعها في كل مصر، وأراق ما في الحانات، وأنكر الفحشاء في مصر والشام، ومنع البغاء، وحبس الفاسدات حتي يتزوجن، وفي ذلك الوقت عرف الناس البُن وشرب القهوة ابتداءً من بلاد اليمن (ولم تُعرف في الغرب إلا بعد ٣ قرون) وكان المسلمون المصريون المتدينون يُحرّمون لمسها وتنوقها، باعتبارها من الخمور (**هامش أصلي**).

+ وبعد نياحة البابا أثناسيوس تم ترشيح أثنين هما يوحنا وغبريال، وكانت الأصوات - في المجمع المقدس - متساوية، ولكن رأي الأساقفة أن غبريال أفضل من يوحنا. فعمد الأخير إلي رشوة الحُكّام المسلمين، لكي يساعدوا في انتخابه. غير أن بعض الأساقفة الذين لم تكن لهم غيرة روحية ولا وطنية صادقة للكنيسة - في ذلك الحين - انتخبوا **يوحنا السابع**.

+ ولما حدث حريق في مدينة القاهرة أراد المسلمون الحصول علي المال من الأقباط بهذه الفرصة، فاتهموهم ظلماً بالتسبُّب في الحريق، وحصلوا منهم علي مبلغ ٥٠ ألف دينار.

+ ولما كان الظاهر بيبرس في حرب مع التتار، قام الأساقفة بعزل البطريرك يوحنا، وأقاموا بدله «**غبريال**» لاستحقاقه. لكفاعته وأحقيته الشرعية، بناء علي قرارهم السابق في الانتخاب الأول.

+ ولما رجع بيبرس - بعد سنتين - دفع يوحنا مالاً له. فأقامه بطريركاً، رغم معارضة الكنيسة والأساقفة، ولكن تنيّح غبريال سريعاً. فظل يوحنا بطريركاً حتي مات، وقد وضعت الكنيسة اسم غبريال - في جدول أسماء بطاركتها (١٢٦٨ - ١٢٧١) **قبل اسم يوحنا السابع** (١٢٧١ - ١٢٩٣م)، اعترافاً منها بما يستحقه غبريال من التعظيم أكثر من يوحنا، لأفضلية الأول عن الثاني في المزايا الروحية، والانتخاب القانوني.

+ وقد أرسل امبراطور الحبشة للبابا يوحنا لرسامة مطران، ويظهر من خطابه أن والده قد استقدم أساقفة يونانيين من سوريا، وأنه يرغب في

تبعية بلاده لسلطة الكنيسة القبطية[1] وقد وقع حادث يدل علي تبجيل الأحباش للكرسي المرقسي. فقد أرسل تاجر مصري مبلغاً كبيراً من المال لعميله في الحبشة، ولكنه مات. فلم يتمكن المصري من استرداد ماله، فلجأ للسلطان، فحوّله لبطريرك الأقباط (غالباً البابا يوحنا السابع) فكتب لامبراطور الحبشة، فأرجع المال إلي صاحبه. إذ استقبل الأحباش حامل الرسالة البابوية بكل فرح - ومعهم الامبراطور - وفي الحال أمر باستحضار المال وتسليمه لمندوب البابا المصري، ومعه هدايا ثمينة، ثم ودعه باحترام كبير.

+ وقد تصرّف داود ملك النوبة بحماقة بغزو أسوان، ولحقتها أضرار. وكان بيبرس في حروب بالشام، فاستلفت نظر المماليك. وقام أمير قوص للإنتقام، وغزا النوبة ونهب مدنها، حتي وصل إلي دنقلة، وأسر عدداً من أشراف النوبة، فلما عاد بيبرس عاملهم بقسوة - كعادة المماليك - وقطع جسم كل منهم إلي شطرين!!

+ وفي عام ١٢٧٥م قام شيكنذر (اسكندر) ابن اخي داود ملك النوبة وولي عهده، وإلتجأ إلي بيبرس، وخان إيمانه ووطنه، وتقدم الأمراء (المماليك) معه وهزموا النوبيين، وولوا «اسكندر» حُكم النوبة، بشروط:-

---

(١) وفيما يلي نص كتاب امبراطور الحبشة «من النجاشي الأكبر ملك ملوك إثيوبيا... إلي قداسة الأب الأقدس البابا يوحنا (٧) بطريرك الكنيسة الاسكندري، الذي أحييه بالإجلال والوقار، اللائقان بخليفة مارمرقس البشير... إنني أرغب أن تمدّوني بمطران صالح ليعلّمني - وأعني - كل ما هو نافع (روحياً) فإننا نكره المطارنة السريان المُقيمين في الحبشة... ومنذ دخول المسيحية إلي بلادنا ونحن خاضعون للبطريركية المصرية... فالآن - أيها الأب الصالح - أرسل لنا مطراناً صالحاً مدشناً ببركتك ويدك الطاهرة... فلا تتركنا للذئاب، ولا تعاقبنا لأجل خطايانا... الخ.»

١) أن يتنازل لمصر عن قطاع شمال النوبة (وهو ربع مساحتها وأكثرها خصباً).

٢) تقديم الجزية القديمة (التي مُنعت منذ قرنين) من العبيد.

٣) هدم الكنيسة التي بناها داود بواسطة المسلمين الذين أسرهم بحملته علي أسوان، وأن يُعادوا لمصر.

+ وكان سكان السودان معظمهم أقباط، وكان جمع الرقيق قد أدي إلي تفكك الممالك السودانية وتصارعها معاً. كما فرض عليهم المسلمون الجزية أو الاسلام أو الموت.

+ كما أستولي بيبرس علي برقة (ليبيا). ولما عاد التتار لمناوشة حدود سوريا، سار إلي هناك لتأديبهم، فمات هناك بسبب الخرافات!! فقد حدث خسوف للقمر، فتوهم بيبرس بأنه يدل علي أن موته قريباً، كما يظنه المصريون بأنه سوف يموت ملك ما، وقرر أن يميت حفيد طوران شاه الصغير بدلاً منه، فسقاه سُماً. ثم خرج بيبرس وعاد ثانية للحجرة، فوضع له خادمه شراباً في نفس الكأس التي بها آثار السُم، دون أن يعلم، وبذلك مات الأمير ناصر الدين وبعد ساعة لحقه قاتله بيبرس ومضي بالطبع إلي الجحيم.

+ وتولي بعده الخلافة أكبر أبنائه «**ناصر الدين**» ولكن خلال ٣ سنوات تم قتل إبنّي بيبرس، ولم ينالا لقب «سلطان» إلا بالإسم فقط. وملّك بعدهما من أمراء المماليك المدعو سيف الدين «**قلاوون**».

✠ ✠ ✠

الفصل الثامن والخمسون

الأستيلاء علي السودان مرتين

(١٢٨١م=٩٩٧هـ=٦٨١ش)

+ عاني الأقباط من ظلم ناصر الدين إبن بيبرس، وقام بفصل الموظفين الأقباط في ديوان الحربية وعين بدلهم من المسلمين، وفي نفس يوم صدور هذا الأمر سقط بناء دير الخندق في ضواحي القاهرة (دير أنبا رويس الحالي بالعباسية) فخرج الرعاع من المسلمين ليكملوا هدمه!!

+ علي أن السلطان قلاوون، وإن كان قد عدّل الضرائب علي رعيته، واتبّع مبدأ المساواة بين الأقباط والمسلمين، لكنه أسرع بوضع القيود، والمضايقات السخيفة علي الأقباط.

+ ولما أنتهي من حروبه أوجب سخط المصريين من مسلمين وأقباط عليه. فثاروا ضده. فأراد أن يعطي درساً قاسياً لهم - كعادة باقي سلاطين المماليك - بأن أطلق جنوده في القاهرة. فعاثوا فيها فساداً ونهباً وقتلاً - مدة ٣ أشهر - دون تمييز بين المذنب والبريء، حتي امتلأت شوارعها بالجُثث والدماء التي قُتِلت بدون أدني ذنب!

+ وأخيراً توقف عن ذلك، بعدما وعظه علماء المسلمين وأنذروه بالعقاب الالهي، وحملوه علي التكفير عن ذنوبه بإنشاء جامع ومستشفي.

+ واشتري مجموعة من المماليك **الشراكسة** وجنّد منهم لجيشه وحرسه، لعدم ثقته في إخلاص المماليك البحرية، وقد ترتّب علي ذلك خروج السُلطة من يديه، بسيطرة هؤلاء، وإقامة دولة المماليك "البُرْجيّة".

+ وقد شكي ملك جنوب السودان لقلاوون، من سلطان النوبة، فقام السلطان

بارسال جيش استولي علي السودان. ولكن أعيدت له السيادة بعد طرد حامية قلاوون من دنقلة.

+ وأعّد قلاوون إبنه للحكم، ولقّبه **بالملك الصالح** (الثالث) ولكنه مات بالحُمّي فحزن عليه، وأراد أن ينسي همومه فقام بحمله لفتح طرابلس الشام، واستولي عليها، بعدما حكمها الصليبيون ١٨٠ سنة. واعتراه الجنون حزناً علي ابنه، فذبح سكانها وخرّبها ثم أعاد بناءها. ولما عاد لمصر عقد معه ملك الصليبيين «الفونس» معاهدة، ولكنه مات حزناً علي ولده.

+ وتولي الخلافة بعده إبنه صلاح الدين، ولُقب «**بالملك الأشرف**» سنة ١٢٩٠م، وبعد عام استولي علي عكا، وكانت آخر معاقل الصليبيين في الشام، وقتل سكان عكا، ونهب أملاكهم، وعاد ومعه علامة النصر، وهي مدخل إحدي كنائس عكا، وتوجد هذه العلامة الآن (في عهد الكاتبة) بشارع النحاسين في مدخل جامع أخيه نصر بن قلاوون.

+ وبني السوق المشهور بخان الخليلي، في موضع مدافن الخلفاء الفاطميين بالقاهرة المُعزّية.

+ وقام باضطهاد شديد ضد الأقباط، ولكن كان صبرهم أقل كثيراً مما ظهر منهم في عصور تاريخهم القديم. ولكن مهما كان مقدار خطأهم، فلا يزالون يتمسكون بتلك البسالة، بالرغم من ضعفهم، بدليل رسمهم للآن إشارة الصليب «بالوشم» علي أيديهم ليُظهروا - بكل قوتهم - عدم إنكار ديانتهم المسيحية.

+ وابتداءً من عهد البابا كيرلس الثالث (ابن لقلق المرنول) فسدت أخلاق المسيحيين المصريين (في رأي الكاتبة) إذ كثرت حوادث الجحود وترك الإيمان. وصارت متتابعة، بعد أن كانت نادرة!! حتي صار الأقباط من

الموظفين بدوائر الحكومة جميعاً من المسيحيين بالإسم، فأساؤا استعمال السُلطة المُعطاة لهم!!

+ ونشأ الاضطهاد لحدوث مشاجرة سببها أن قبطياً كان وكيلاً لأحد كبار الأمراء المماليك، وكان راكباً جواداً، وقابضاً علي مسلم مديون لسيده، وأمام جامع ابن طولون توسل اليه جمع من المسلمين أن يُطلق سراحه فلم يقبل. فجذّبوه من حصانه وضربوه. وأطلقوا الأسير المسلم، ولكن خرج سيده وعبيده وحرسه وضربوا المحتشدين. فمضوا إلي السلطان، وشكوا له كبرياء القبطي وما تم من تصرفاته.

+ فأصدر السلطان أمراً بعدم إبقاء مسيحي أو يهودي في خدمة الأمراء، ومن أسلم يبقي في عمله لدي الأمراء والحكومة. كما صدر الأمر بالقبض علي الأقباط لقتلهم أمام السلطان. فهرب كثيرون إلي المغارات والكهوف. وتم نهب بيوتهم، وسبّي نسائهم. وقَتَل المسلمون أعداداً كبيرة منهم، بدون سبب للأسف.

+ ولكن حاكم القاهرة استاء من ذلك الظُلم، واستصدر أمراً من السلطان - أذاعه في كل أرض مصر - بأن كل من ينهب بيت مسيحي سيتم شنقه. وقبض علي أشرار كثيرين من الذين تمادوا في السلب والنهب وجلدهم. فتوقف السلب، بعد نهب كنيسة المعلقة، وبعد قتل عدد كبير من الأقباط الفقراء والبؤساء، فنالوا أكليل الشهداء واستراحوا في السماء.

+ ثم أمر السلطان بأخذ موظفي الحكومة من الأقباط ليحرقونهم. فتشفع لهم الأمير بدر الدين، فقال له السلطان «لا أود أن أُبقي مسيحياً في حكومتي»، وبعد إلحاح وافق السلطان علي اقتراحه بأن من يعتنق الاسلام يبقي في وظيفته، ومن يرفض هذا الدين تُقطَع رأسه.

+ وأعلن عدد كبير من كبار الموظفين إسلامهم - أمام المحاكم وأمام القضاة - وتحوّلوا من الذل والهوان إلي الجاه والعظمة العالمية والسُلطة الكُبرَي''

+ وانتقم الله من السلطان، إذ تواطأت إحدي نسائه مع مملوك آخر. فقتله، ثم توالت الاغتيالات لمن جاد بعده، كما توالت المصائب علي البلاد، حيث تفشّي الطاعون والقحط.

+ ولما حكم نصر بن قلاوون مرة ثانية علي مصر، حارب التتار مرة ثانية بسوريا وانتصر عليهم، ودخل القاهرة من باب النصر باحتفالٍ عظيم.

+ وفي عهده زادت الاحكام الظالمة علي الاقباط، وفوقها ظروف الطبيعة المعاكسة، إذ سقطت أمطار غزيرة جداً كالسيل من سفح جبل المقطم حتي آغرقت معظم منازل القاهرة.

+ وقد تولي الكرسي المرقسي البابا ثيؤدوسيوس الثاني (البطريرك ٧٩ من ١٢٩٤ - ١٣٠٠م) والذي نعرفه من أمره أنه كان إفرنجياً، ربما من سلالة أسري الفرنسيين الذين تم أسرهم، أيام غزو سانت لويس ملك فرنسا[١]!! وأنه في مدة الستة أعوام الأولي - التي قضاها علي الكرسي المرقسي - ارتاح الاقباط من الاضطهاد. ولكن تفشي الطاعون البقري والانساني وحل الجفاف والزلازل، ومات آلوف من البشر ومن الماشية.

+ وقد عَزَي الناصر بن قلاوون - هذه المصائب - إلي المسيحيين لتصرفهم الغير مرْضي لله، وربما كان يقصد - في رأي الكاتبة - أنه تشاءم من وجودهم في سلطنته، كما وسوس له قاضي قضاة مصر، الذي كان ابن مسيحي وترك المسيحية. فارتقي لهذا المنصب. وكان يكره المسيحية والمسيحيين، وكان لا يترك أية فرصة للإيقاع بهم، إلا واستغلّها!!

---

(١) ورد في المصادر القبطية أنه كان راهباً - في دير ابي مقار - باسم «عبد المسيح» (راجع كتاب الأنبا إسيذيروس، الخريدة النفيسة، من إعدادنا وطبع مكتبة المحبة ص ٢٤٧).

الفصل التاسع والخمسون

تخريب الكنائس وهدمها

(١٣٠٠م=١٠١٦ش = ٧٠٠هـ)

مقدمة:-

+ اشتد الاضطهاد للأقباط في القرن ١٤م، وزعم المؤرخون المسلمون أن الأقباط هم السبب فيه، ونقل عنهم المؤرخون الافرنج هذا الرأي ومنهم نبيل الفرنسي الذي قال: «إن ما حدث كان بسبب خطأهم».

+ وقد فحصتّ تلك الوقائع بدقة - في تاريخ المقريزي - وبعض كتب إسلامية أخري -تُوّجه التُهمة للأقباط - فاتضح لي أنهم لم يكونوا علي ثقة تامة من إثباتها.

+ والأسباب التي ظهرت لي - بعد البحث والمقارنة التاريخية - أن الاقباط كانوا يشكون الظلم والغطرسة والقساوة التي كانت تقع عليهم، وأنه مادامت الحكومات الاسلامية لا تستغني عنهم في كل دوائرها الرسمية، فيجب أن يعيش هؤلاء الموظفون أحراراً، وليس عبيداً للسُلطة، وكان هذا الإجماع علي هذا الفكر سليماً.

+ لذلك كانوا يرفضون الرضوخ للمعاملة القاسية، ويعترضون علي الأوامر المُجحِفة، والتي كان الحكام المسلمون يجبرونهم عليها بقصد إذلالهم ومضايقتهم، فلبسوا العمامة البيضاء، بدلاً من السوداء التي تميزهم عن غيرهم، وركوب الخيل (بدلاً من الحمير المصرح بها) وكانوا يسيرون وخلفهم مُقدُّمو العرائض، لقضاء مصالح لهم، مما آغاظ البعض من هذا السلوك السلبي.

+ ولما أدرك المتعصبون من المسلمين خروج الأقباط عن المألوف، وأنهم نالوا حريتهم بأيديهم، عقدوا النية الشريرة علي اتخاذ الوسائل العقابية لإذلالهم. وقد قدمّ كبار المسلمين طلبين لحافظ القاهرة لهدم الكنائس المسيحية، وتنفيذ العقوبات الشديدة علي الأقباط. فأنكر الطلب الأول، ثم استقدم كبار الأقباط واليهود، وأخبرهم أنه لن يكون مسئولاً عن المصائب التي ستحل بهم، إذا كانوا لا يقبلون تنفيذ القوانين التي يُطلب منه تنفيذها.

+ فكتب البابا يوحنا الثامن الي جميع الايبارشيات بالالتزام بلبس عمامة وحزام أزرق، ومع ذلك زادت الاضطهادات بشدة علي الأقباط، لمدة ٣ سنوات، بدون مبرر معقول.

+ وثار العرب المهاجرون من الجزيرة العربية إلي الصعيد، في نفس الوقت، فأرسل السلطان المماليك فقتلوا كثيرين من العرب ومات معهم كثير من الاقباط أيضاً، وتم أسر النساء والاطفال وأخذوهم عبيداً بعد موت آبائهم ظلماً.

+ وحدثت زلزلة خرّبت بلاداً كثيرة وبالذات مدينة قوص، التي تم تدمرها عن آخرها، وأما القاهرة فلم يصبها شيء من الزلزلة، لأن الأعداء سبق أن خربّوها، وأهلكوا أهلها قبلها.

+ وأدرك السلطان الشاب «**الناصر**» بأن اضطهاده للاقباط، وشدة ضغطه عليهم قد جلب المصائب والفوضي وأرتباك الاحوال المدنيَّة، فخفف عنهم، كما آثرّت الحوادث الطبيعية، من زلازل وقحط وطاعون وغيرها، في أخلاق المصريين، فأنقسموا إلي آحزاب متنافرة، ثم أتحدوا ضده، يريدون خلعه، وهو ماتوقعه!!

+ ففي سنة ١٣٠٩م زادت الشكوي والمنازعات. فتظاهر بالسفر للحج، ومضي إلي بلدة الكرك (بشرق الأردن) وأرسل للمماليك يخبرهم بتنازله عن الحكم، ويفوضهم في انتخاب من يريدونه سلطاناً لمصر. فاختاروا الأمير ركن الدين بيبرس (بيبرس الثاني أحد مماليك الملك السابق المنصور بن قلاوون) ولقبّوه «**بالمظفر**».

+ ثم رجع الملك الأصلي «الناصر» وندم علي استقالته. واستولي علي القاهرة وهرب بيبرس (الثاني) الي الصعيد. حيث تم قتله هناك.

+ وقد أدرك الناصر من خبرته فائدة الأقباط، فصار يحامي عنهم، ويحميهم من نهب واستبداد المماليك ومن التعصب الاسلامي، ومع ذلك لم يستطع وقفه، فتم هدم كنيسة الزُهرَي، وكنيسة مارمينا بالحمراء (فم الخليج) وهدموا ونهبوا الاقباط الساكنين حولها.

+ ولكن قوات الملك الناصر آنقذت الأقباط المحاصرين في حصن بابليون. كما وصلت آخبار بحدوث ثورات، في البلاد. مثل ثورة القاهرة. وكانت تهدم وتحرق الكنائس القبطية الكثيرة، واغتاظ السلطان، ولكنه لم يفعل شيئا.

+ وقد حدثت عدة حرائق في القاهرة، وتم القبض علي عدد من الرهبان من دير البغل بجنوب القاهرة، ومعهم آكياس من النفط. واعترفوا بحرق المنازل والمساجد بالعاصمة. وكان ذلك في عهد البابا يوحنا التاسع (١٣٢٠ - ١٣٢٧م) وحاول المتعصبون الفتك بهم لولا آن حمته فرقة من الجند. وتم حرق الرهبان الذين تسبّبوا في حرق المنازل.

+ وقام الغوغاء بقتل كل ما يلتقونه من الأقباط، وثاروا ضد السلطان متهمينه بالتساهل مع الأقباط. وطالبوا بفصل كل الموظفين الاقباط. فلم يقبل، وأمر بالقبض علي مُرتَكبي تلك الحوادث.

+ ولما زادت ثورة الأشرار ضد السلطان، صرح لهم بقتل كل قبطي يجدونه في طريقهم، وينهبون أمواله، فأسرعوا لتنفيذ أمره الظالم!! فأصبح الأقباط يساقون كالحيوان إلي الذبح. ومن المؤسف أن المؤرخين المسلمين قد ألمحوا إلي هذه المجازر فقط، بينما ذكروا بالتفصيل بعض العذابات التي وقعت علي من نجوا من الذبح!

+ وقد صدرت الأوامر بتمييز ملابس الأقباط عن ملابس المسلمين بطريقة إجبارية، وتعليق أجراس في أعناقهم - عند دخولهم الحمَّام - ليحذر المسلمون الموجودون فيه، لئلا يتدنَّسون منهم!!

+ ومُنِع استخدام الاقباط في الحكومة، أو في دوائر الأمراء. وأن أي مسلم يقابل قبطياً راكباً فرساً أو بغلاً أو لابساً عمامة بيضاء يذبحه، وتصبح أمواله غنيمة لقاتله!! ويُصرَّح لهم بركوب الحمير فقط، وبالعكس في اتجاه السير (وجوههم للخلف)!!

+ وظل القتلُ مستمراً للاقباط، حتي بدأ ضميرهم الميت يستفيق وكفوا. وطلبوا عفواً عاماً من السلطان علي ما فعلوه بالأقباط! وقصد البعض إلي قصر السلطان ليشكروه علي سماحه لهم بمقتل الأقباط! وكانوا يُصفقُّون مُبتهجين، وقيل إن السلطان لما رآهم كذلك ابتسم، فَرِحاً بخلاصِهِ من شرهم!!

+ وظل الأقباط مختفين في بيوتهم بعدما شبت النيران من جديد بالقاهرة. وظلت الكنائس مغلقة مدة سنة ونصف، حتي أرسل كل من أمبراطور اليونان وملك أسبانيا وفوداً لحكومة مصر لمنع تعذيب أخوانهم في الدين.

+ أما البابا القبطي فلم يُصِبه أي شر، ولا ضرر. واحتمل ماحدث ظلماً

لشعبه مدة ١٥ سنة، أما أثناسيوس الثالث بطريرك الملكانيين فقد ظل هارباً في القسطنطنية، ومنها لليونان، حيث تم طرحه في السجن!!

+ ويبدو أن العقوبات التي حلت بالأقباط لم تقع علي اليهود. إذ ذكر المقريزي أنه كان لقبطي مبلغاً كبيراً لدي يهودي، فلما تم فصل القبطي من وظيفته الحكومية احتاج للمال الذي لدي اليهودي، فثار اليهودي، وثار الرعاع من المسلمين قاصدين قتل القبطي. فاختفي داخل منزل اليهودي ليحميه منهم فوافق الشرير نظير تنازله عن كل الدين، وكتب المسكين مخالصة لليهودي الماكر!!

+ وفي عام ١٣٢٥م قل الاضطهاد، ولكن وصل خطاب للسلطان الناصر من امبراطور الحبشة بضرورة إعادة بناء الكنائس المصرية التي هدمها المسلمون وحُسن معاملة الأقباط، وإلا اضطر لهدم كل المساجد في الحبشة ومنع مياه النيل عن مصر. فسخر من هذا التهديد، وطرد الوفد، دون أن يِرد. ولم يذكر التاريخ ماحدث من رد فعله بعد ذلك.

+ وفي سنة ١٣٢٧م ثار المسلمون علي الأقباط ثورة كبيرة وهدموا كنيسة القديسة بربارة بزعم أن الأقباط زادوا من مساحتها عما صرّح لهم به السلطان، ولم يتم بناء الكنيسة بعد هدمها، ولم تزل آثارها باقية للآن بالقرب من قصر الشمع (حصن بابيلون)[١].

+ وفي نفس العام تنيّح البابا يوحنا التاسع، وخَلَفه البابا بنيامين الثاني (١٣٢٧ - ١٣٣٩م).

+ وقد قام السلطان الناصر بن قلاوون بإبطال الضرائب الظالمة. وبني عدة

---

(١) راجع سيرة القديسة بربارة وإعادة بناء كنيستها في كتابنا عنها. طبع مكتبة مارجرجس بشبرا مصر، ومسرحية عنها، نشر مكتبة المحبة.

مدارس، ومساجد، وجسور، وكانت أيامه الأخيرة فترة سكون وسلام. وتزوج بإبنة أزبك خان ملك التتار. ولكنه ألغي الإحتفال القبطي (المصري القديم) بالنيل، والذي كان يتم - يوم ٨ بشنس - علي الشاطيء قرب شبرا، وكانوا يلقون فيه تابوتاً خشبياً به جزء من جسد قديس راحل لمباركة مياه النيل.

+ وقد حكم الناصر ٤٤ سنة، وترك ٨ أولاد تناوبوا الحكم بعده - الواحد تلو الآخر - وكانت مدتهم قصيرة وبالاسم فقط. وأدار الحكومة الموظفون المسلمون والأقباط.

+ وأنتشر الطاعون في مصر، فكان يقضي علي عائلات بأكملها. فكان المماليك ونائب السلطان يستولون علي أموالهم وعقاراتهم. وذكر المقريزي أنه كان يموت في القاهرة وحدها ١٥ ألفاً كل يوم!!

+ وكان البابا بطرس الخامس (١٣٤٠ - ١٣٤٨م) الذي خلف البابا بنيامين قد توفي ١٣٤٠ وأنتخب الأساقفة بدلاً منه البابا مرقس الرابع (١٣٤٨ - ١٣٦٣م).

+ وفي أيام أحد أولاد الملك الناصر زار مصر موندفيل، وكتب عنها بأن السلطان قد أحبه، وأنه أقترح عليه أن يُزوِّجه بإحدي بنات الامراء اذا اعتنق الاسلام، وأشار إلي أحوال مصر، في هذا الوقت (القرن ١٤) وزعم أن سلطان مصر، قد سافر إلي أوربا مع أربعة من رجاله - متنكرين في هيئة تجار.

+ وقال أيضاً إن السلطان أخبره أن الصليبيين قد أضاعوا أملاكهم (ما استولوا عليه، في مصر وسوريا)، لكثرة شرورهم وخطاياهم، وأنه أضاف قائلاً له: «إنكم لو كنتم تعبدون الله بإيمان كامل لساعدكم الله في

فتوحاتكم. وإن كانت يد الله معكم، لا يقوّي أحد علي الوقوف أمامكم... ونحن نعلم من أخبار نبواتنا - وحديثنا الشريف - أن المسيحيين سيأخذون هذه الأرض منا ثانية (ويعني بها مصر) عندما يعبدون الله بإيمان وإخلاص»!!

✣ ✣ ✣

الفصل الستون

أطول أزمنة الاضطهاد للأقباط

(١٣٥١م=١٠٦٧ش=٧٥٢هـ)

+ لما تولي الخلافة «صالح» الإبن الثامن لقلاوون سنة ١٣٥١م، كان تحت وصاية وزيره الأمير شيخون (صاحب جامع شيخون بالصليبية بالقاهرة) وبعد عامين من حكمه انتشر الطاعون في القطر، وكان أشده في القاهرة، فمات به الكثير من الشعب ومعهم السلطان صالح نفسه.

+ فبويع بعده عمه «**المعتضد**»، ويبدو أنه كان ذو سلطان شديد، لأن البلاد بعد موته زاد بها الاضطراب والفوضي.

+ وفي مدة أنتشار الوباء (الطاعون) جاء رجل قبطي من الأرياف إلي القاهرة، وأخذ ينادي علناً في الشوارع بأن شرور الناس هي التي جلبت عليهم البلاء. فقبضوا عليه وأوقفوه أمام قاضي المسلمين، فأعلن له بشجاعة أنه يريد أن يُقنع المسلمين بخطئهم في ترك المسيحية، وعدم أتباّع تعاليمها، وأنه مستعد أن يستشهد في سبيل تأكيد مبادئه، فتم تعذيبه لمدة أسبوع، ثم أمر القاضي بقطع رأسه وحرق جثته!!

+ وبعد مدة قليلة شكي المسلمون لقاضي بلدة بالصعيد بأنه يجب أن يعتنق

شخص قبطي الأسلام هو وأولاده وأحفاده بزعم أن جده كان مسلماً!!
فطلب منه القاضي ترك المسيحية فلم يقبل، فألقاه في السجن.

+ ونظراً لكثرة عدد المسيحيين في تلك البلدة، ولثقتهم في أن حاكمها كان رحيماً بهم، فقد اقتحموا السجن ليلاً، وأخرجوا المسيحي بالقوة. فثار مسلمو البلدة وعذَّبوا أقباطها بوحشية، بعدما هرب الوالي. وأحرقوا الكنيسة وصلبانها وأيقوناتها، وهدموها وبنوا بحجارتها جامعاً في نفس الموضع، ونبشوا قبور الاقباط وأحرقوا جثث موتاهم.

+ فكتب حاكم المدينة الي الخليفة يشكو من إثارة قاضيها الاقباط، فتمت محاكمته، ولكن أربعة من الذين اشتركوا في المحاكمة كانوا - للأسف - معادين للأقباط. كما ألقيَّ شيخ جامع شيخون خطبة باللغة التركية أوضح فيها - ظلماً - أنه مهما كانت ظروف الحادث. فلا يصح الوقوف مع مسيحي ضد مسلم، وأنه بتعرض الحاكم للدفا ع عن الاقباط يعتبر - في زعمه - كُفراً وإلحاداً!! وحكمت لجنة التحكيم بعزل حاكم وقاضي المدينة وعدم تعويض الأقباط عما فقدوا أو عن هدم كنيستهم!!

+ وتعلّق الكاتبة فتقول. «في الحقيقة فمن المسلمين (في تلك الأزمنة) من كان لديهم غيرة مُرَّة من الاقباط. لتقدمهم في العلوم والمعارف وزيادة ثرواتهم من اجتهادهم، فلم يسع المسلمين كتمان حقدهم،وانفجروا بالثورة ضدهم»(١)!!

---

(١) إننا لا نوافق علي رأي مدام بوتشر بتعميم الحكم - علي كل الشعب المصري - بانهم كانوا كلهم بهذه الصفات الذميمة، بل إن بعض المسلمين كانوا يحبون الاقباط، ويشهدون لامانتهم وصدقهم وإخلاصهم، في كل وقت وعصر، وللآن ايضا. وأن الغيرة والحقد والحسد والكراهية من صفات الأشرار في أي دين، وأي مجتمع، وفي كل زمان ومكان.

+ ومع ذلك تقول الكاتبة - بعد ذلك - إن ناصر بن قلاوون في أواخر حكمه مال إلي الأقباط وأظهر لهم المُوَدَّة، وأنهم ظلوا متمتعين بذلك، إلي أن سقطت البلاد في أيدي المماليك الجهلاء، فأوصلوها إلي حالة الارتباك والاضطهاد، حتي أسلم كثير من الاقباط، ومنهم إثنان ترقيا الي درجة الوزارة، فأوجدا اضطراباً في الحكومة.

+ وإن كان معظم الأقباط قد ظلوا ثابتين في الإيمان المسيحي، وفي وظائفهم، أما البعض فقد كانوا مسيحيين بالاسم، وسلكوا بالغطرسة وحب الظهور كالطمع، ومما أغاظ المسلمين منهم ايضاً رغبتهم في المساواة مع المسلمين في كل المزايا المادية والأدبية بالدولة!!

+ ويقول المؤرخ المسلم «المقريزي» أنه قد نتج عن ذلك أن أنفجرت نيران الحقد في قلوب المسلمين، فحدث أن موظفاً مسيحياً كبيراً قد مر أمام جامع الأزهر، راكباً علي جواده، ولابساً عقاله الأبيض علي رأسه، وكان يسير أمامه رجاله، يخلون زحام الناس من أمامه، ويتبعه من ورائه عدد كبير من العبيد، يلبسون الملابس الغالية ويركبون الخيول!!

+ فلما رآه المسلمون علي هذه الأُبَّهة أخذتهم الغيرة، فوثبوا عليه وضربوه، حتي كاد أن يموت، ولكن أنقذه غيرهم من يدهم بصعوبة. ثم تقابل جمع كبير بالأمير «طاز» وأخبروه بما جري، ووعدهم بأن يضع حداً لذلك وأن يحط من قدر المسيحيين.

+ ولم يكتفوا بذلك بل كتبوا مذكرة للسلطان، وطالبوه أن تُقرأ علي الاقباط في حضوره مع الأمراء المماليك والقضاة ورجال الحكومة. وأهم ما فيها الشكوي من سلوك الأقباط وتطرفهم في الحرية.

+ فتم استدعاء البطريرك والأساقفة وحاخام اليهود وشيوخهم والأمراء والقضاة المسلمين، للمثول أمام السلطان.

+ وتلي القاضي ابن فضل شروط معاهدة بين المسلمين والأقباط، وافق الجميع عليها، ثم شرح القاضي تصرفات الأقباط. فتم حرمانهم من العمل بالحكومة وبدواتر الأمراء، حتي ولو اعتنقوا الاسلام. ولكن لا يُجبر أحدهم علي اعتناق الاسلام. وأرسلت صورة منها لحكام الأقاليم.

+ وابتدأ المسلمون بالتعرّض للأقباط في الشوارع، يمزقون ملابسهم ويضربونهم بقسوة شديدة، وكانوا يلقون عليهم النيران، كما قام الأشرار بهدم بيوت الأقباط الكائنة أمام منازل مسلمين، فساء حال الأقباط، وظلوا زمناً طويلاً لا يظهرون - هم واليهود - في الشوارع، كأنهم قد أنقرضوا جميعاً.

+ ثم تقدم جمهور بالشكوي لنظارة العدل بأن الأقباط أعادوا بناء كنائسهم المتهدمة وتكبير حجمها. وتضرعوا للسلطان بأن ينصرهم علي النصاري. فأمر السلطان والي القاهرة بالتحقيق في الأمر، ولكن لم ينتظر الأشرار خروج الوالي، بل أسرعوا بهدم كنيستين بمصر القديمة وكنيسة داخل حدود القاهرة ودير ناهيا، وكنيسة في بولاق الدكرور بالجيزة، ونهبوها، ورفضوا الرضوخ للوالي، الذي كان يهددهم.

+ وأرسل السلطان - لمصر وسوريا - بعدم استخدام النصاري واليهود في الحكومة، حتي ولو اعتنقوا الاسلام. وأن من يعتنق الاسلام لا يُسمح له بالرجوع الي بيته، وفي حُضن عائلته، إلا إذا اعتنقه أيضاً أفرادها. ومن يعتنق الاسلام يُكّلف جبراً بتأدية الصلوات الخمس علناً في المساجد.

+ وإذا مات مسيحي، يتعهدّ المسلمون بتقسيم تركته علي وارثيه، وإذا لم يكن له ورثة تُضاف أمواله وممتلكاته لخزينة الدولة. وألزموا البابا القبطي بالتصديق عليه، وتُلي هذا المنشور علناً في قصر السلطان!!

+ وتم هدم كنيسة شبرا وأخذوا منها جزءًا من جسد شهيد قبطي، وأمر السلطان بحرقه أمامه عند قلعة الجبل، وذرّ رماده في النيل، لكي لا يستردّه النصاري!!

+ وهذا قليل مما حدث لأقباط هذا الوقت من الظلم الشديد، بدون سبب.

+ وقد أعتنق كثيرون من المسيحيين بالوجهين الاسلام، وأخذوا يستخدمون الطرق الملتوية لاستخدامهم في العمل في دوائر الحكومة، وخاصة بالتزواج من المسلمات، طمعاً في الحصول علي مناصب رسمية!!

+ ورفع بعض المسلمين للسلطان شكاوي بأن للنصاري أملاكاً موقوفة علي الأديرة، وبعد حصرها وصلت نحو ١٠٢٥ فداناً، وقال بعض المؤرخين أن أوقاف الكنائس والأديرة بلغت ٢٥ الف فدان من الإراضي الجيدة، فعرضها السلطان علي الأمراء المسئولين عن تدبير الدولة فوزعوها علي الأمراء علاوة ما لديهم من الأراضي.

+ وفي أثناء هذا الاضطهاد ألقوا القبض علي البابا مرقس الخامس. وعذبوه وسجنوه، فعلم بذلك ملك النوبة المسيحي، فألقي القبض علي كل التجار المسلمين في مملكته، وصاروا أسري، حتي يتم إطلاق سراح البابا. فتم الافراج عنه، بعد سماع هذا الخبر.

+ وقام شقيق السلطان المدعو «حسن» بخلع أخيه. ونال نفس الجزاء إذ تم قتله سنة ١٣٦١م، ومن آثاره الاسلامية الباقية للآن جامع السلطان «حسن» أمام قلعة الجبل.

+ وتآمر عليه ابن أخيه وقتله وتولي الحُكم. ودعوه الملك «**المنصور**»، ثم خلعوه وعينوا ابن عمه الملك **الأشرف** (الثالث)، وكان عمره ٢٤ سنة، لذلك كان نائبه «يلبُغاً» هو المُسيطر الفعلي علي إدارة الدولة.

+ وتري السيدة بوتشر أنه قد كان محباً للأقباط، لأنه تم سنة ١٣٦٣م رسامة البابا يوحنا العاشر (١٣٦٣ -١٣٦٩م) بعد نياحة الأنبا مرقس، بلا صعوبة، أو معاكسة من الحُكام المسلمين.

+ وفي عهد شعبان بن حسن أصيبت مصر وسوريا بمجاعة مُريعة استمرت ٣ سنوات، واضطر الناس إلي أكل الكلاب والقطط، ووصلت بهم الحال إلي أكل أولادهم!!

+ وهاجم الصليبيون شمال الدلتا سنة ١٣٦٥م ونهبوا الاسكندرية وسبوا عدداً من نسائها. وكانوا يقصدون الزحف نحو القاهرة، ولكنهم أضاعوا الفرصة لبُطئهم واختلاف آرائهم. فرجعوا الي قبرص بالغنائم المادية فقط.

+ وفي عام ١٣٩٦م قبض المسلمون علي قبطي وعذبوه حتي مات، لأنهم ظنوا أنه ساحر وأنه تسبب في موت زوجة الملك الشاب وهي ابنة الأمير الوزير تاج الدين... وماعدا ذلك كان الأقباط يُعاملون معاملة حسنة في عهده.

+ وتنيّح البابا يوحنا العاشر، وخلفه علي الكرسي المرقسي البابا غبريال الرابع. وتم انتخابه بهدوء وكانت مدة رئاسته ٤ سنوات فقط (والأصح من ١٣٧٠ - ١٣٧٨م).

+ وفي سنة ١٣٧٣م حلّت بالبلاد مجاعة ثانية نشأت من انخفاض مياه النيل، فصرخ الاقباط والمسلمون الي الله ليرسل المياه (الفيضان العالي). ويذكر المقريزي أنه شهدها، وكان عمره تسع سنوات، وأنه قد اشتد هولّها كثيراً.

+ وفي السنة التالية قامت ثورة أهلية آخري، كانت أشدّ في تأثيرها من

المجاعة. فقد قامت عصابة وقتلت نائب السلطان المدعو «يلبغا»، ثم دار المماليك علي السلطان وقتلوه، وولوا إبنه الطفل علاء الدين. ثم قبض الأمير برقوق علي السلطة الفعلية.

+ وأخيراً تولي السلطان برقوق (الملك الظافر) حُكم مصر. وانتهت بذلك سُلالة قلاوون الذي كان علي رأس دولة المماليك الأولي «**البحرية**». وقامت بعدها دولة المماليك الثانية المعروفة بالمماليك «**الشراكسة**» (البُرجية).

+ وقام برقوق بمحاربة «**تيمورلنك**» زعيم التتار، وهزمه علي حدود سوريا، وتم تدبير دسائس ضد السلطان برقوق انتهت بخلعه وسجنه.

+ ورغم أنه قد مضي نحو ٣٦ سنة علي اضطهاد الأقباط الشديد، الذي اضطر عدداً كبيراً منهم إلي ترك إيمانهم، وقل عدد الثابتين علي الإيمان، لكن كانت تحدث ضدهم ثورات بسبب تعصُّب البعض. ومع أن الحكومة كانت تُحذِّر من هذا التعصُّب، فإن مضايقة المسلمين للأقباط ظلت مستمرة.وحتي المرتدين كانوا للأسف تحت نير وضغط المسلمين، كباقي المسيحيين!!

+ ومع أن المسلمين لم يُظهروا رضاءهم عن الاقباط المرتدين، إلا واحداً أوصلوه الي مركز إداري رفيع في الحكومة.

+ ومنذ أن جلس البابا متي علي الكرسي المرقسي (١٣٧٥م) ظهر رجوع ديني كبير الي المسيحية، وفي عام ١٣٨٩ دخل القاهرة عدد كبير من الاقباط المرتّدين – من الرجال والنساء – وأعلنوا أنهم «مسيحيون وأنهم أرادوا الاستشهاد علي اسم المسيح».فتم تعذيبهم، وابتدأوا في قطع رؤوس الرجال، أمام المدرسة الصالحية. فلم يوثر ذلك المنظر الفظيع علي ثبات النساء، فأمر أحد القضاة الحُرَّاس.فذبحوهن تحت القلعة. وقد

غضب الحاضرون - حتي المسلمين منهم - ووبخوا القضاة علي إعدامهن!!

+ وامتد الاضطهاد الي خارج القاهرة. فقد قبضوا علي راهب كان يشهد للإيمان المسيحي - مع صاحبه، وثلاثة نساء، وقطعوا رؤوسهم وأحرقوهم، وكانت النساء المؤمنات واقفات يشجعنّه علي الشهادة للإيمان المسيحي!!

+ وتم القبض علي البابا القبطي (متي الأول) وحاخام اليهود، وألقوهما في السجن، وفرضوا علي البطريرك فدية قدرها مائة ألف درهم، وعلي الحاخام اليهودي سداد مبلغ ٥٠ ألف درهم.

+ وزادت قساوة الأمير «**منطش**» علي جميع المصريين. إلي أن عاد برقوق للحُكم مرة أخري. وقام بالسيطرة علي الدولة، بعمل مذبحة عامة، قتل فيها الملك المنصور، وتخلّص من دسائس الباقين.

✣ ✣ ✣

الفصل الواحد والستون

المماليك الشراكسة

(١٣٩٠م=١١٠٦م=٧٩٢هـ)

+ وفي خلال حكم برقوق - المرة الثانية - ظهرت قوتان كبيرتان في آسيا هما: بايزيد بن مراد رابع سلاطين الدولة العثمانية، التي استولت علي الدولة الرومانية الشرقية (آسيا الصغري) وهددت القسطنطنية، والقوة الثانية بقيادة زعيم التتار الجديد «تيمورلنك».

+ وأرسل هذا التتاري الجبار رسالة تهديد الي برقوق. فقام برقوق بقتل سفرائه، الذين كان قد لاطفهم أولاً.فزاد فجورهم وكبريائهم فنالوا جزاءهم.

+ واستعد برقوق لمحاربة التتار. فحصّن البلاد، وأصلح نظم الحكومة وقلل الضرائب، وشجّع علي العِلم، وبني المدرسة الظاهرية وجامعاً يحمل اسمه، وكان من المؤرخين في زمانه «المقريزي»، المولود في القاهرة سنة ١٣٦٤م، وكان قاضياً. وقد اكتسب العلم والمصادر التاريخية من الأقباط واليهود، مع أنه يُشتّم من تاريخه كراهيته لهم. لكنه سجّل تفاصيل الاضطهادات التي قاساها الأقباط في عهده.

+ وفي عام ١٤٠٢م حلّت مجاعة شديدة بمصر، وصفها المقريزي المعاصر لها. وذكر تفاصيل آثارها الضارة علي البلاد.

+ ولم يحدث اضطهاد حقيقي للأقباط - في مدة حكم السلطان برقوق - للمرة الثانية - إلا مرة واحدة. فقد أمر أحد أمراء المماليك بهدم كنيسة وكسر ٤٠ الف جرة من نبيذ الأباركة، أمام باب زويلة، **ولم** يوافق برقوق علي رأيه باضطهاد الأقباط، ولكنه أمر بقتل رجل مسيحي اعتنق دين الاسلام.

+ وبعد موته تولي بعده إبنه فرج المُلقب «**بالملك الناصر**»، وأرسل له زعيم التتار «تيمورلنك»، فبعث له بما يفيد خضوعه لسلطة التتار، خوفاً منه، لأنه استطاع هزيمة الأتراك والسيطرة علي الأناضول والشام.

+ ثم أنخفض فيضان النيل، مرة أخري، وهلك كثيرون من الجوع، في عدة مدن مصرية.

+ وثار المماليك علي الملك الناصر، واستغّل الخليفة العباسي «**المستعين بالله**» التأثير الديني - الذي له في النفوس - في خلع الناصر. ثم فر إلي الشام حيث تم قتله، واستعاد الخليفة العباسي السلطتين الروحية والزمنية. ولقبّوه «بالملك العادل». وعيّن الشيخ المحمودي وزيراً. ولقبه

بالوزير الأعظم، لأنه ساعده في استرجاع سلطته. التي قضي عليها المغول في بغداد (وفرّ علي آثر ذلك لمصر).

+ وأول شيء قام به المتحمسون للخليفة الديني، هو القضاء علي الأقباط واليهود معاً، وقاموا بإحصائهما، وعمل مكتب لقيد مواليدهم ووفياتهم، ثم زادوا من الجزية حسب مستوي دخل كل منهم.

+ ولما أراد الشيخ المحمودي الانفراد بالسُلطة نجح في دسائسه،وتم نفي الخليفة **العباسي** للإسكندرية. وحمل اسم الملك «**المؤيد**» وكان معاشراً للمؤرخ «المقريزي»، ومع آنه أحسن الي الرعية، لكنه ضايق الأقباط، وهجم رجاله علي تجار بابيلون، فاضطروا لدفع الأموال لهم، لدفع الأذي عن أنفسهم.

+ ولما تنيّح البابا متاؤس الأول، في أثناء حُكم الخليفة المستعين بالله. جلس علي الكرسي المرقسي «**أنبا غبريال الخامس**» (١٤٠٩ - ١٤٢٧م). وكان من الجبزة.

+ وتولي رناسة الكنيسة القبطية لمدة ١٨ سنة. وكانت أغلبها فترات مليئة بالمتاعب والاضطهادات. وقد وضع كتاباً في الطقوس القبطية، وكان في الأصل علمانياً وكاتباً بديوان الحكومة بمصر. وكان يعتمد في حصوله علي قوته الضروري علي إحسان الشعب، وكان يسافر من مكان لآخر سيراً علي قدميه!!

+ وكان دخل البطريركية يتزايد بما كانت ترسله الحبشة لأمها الكنيسة المصرية. ولكن قلت هذه الاعانات، لما تولي البابا غبريال، لأنه كان علمانياً ومستخدماً في الحكومة. وسرت الاشاعة بأنه لا يليق لهذه الوظيفة الدينية الرفيعة.

+ وتعلل بوتشر سبب ذلك باحتمال إنه كان متزوجاً قبلاً، وهو مايتعارض مع العُرْف القديم السائد[1] في ترشيح بطاركة الكرسي المرقسي.

+ وفي سنة ١٤١٨م تم استدعاء البابا غبريال للحضور أمام المجلس الأعلي للحكومة. وهددوه بأن الأحباش - الذين تحت سلطانه الديني - يُضايقون التجار المسلمين في بلادهم، وعليه أن يكتب إليهم لإيقاف ذلك.

+ كما تم طرد كل الأقباط من الحكومة، وابتدأوا بقبطي كان يعمل سكرتيراً للوزير الأكبر (رئيس الوزراء). وأصدر السلطان أمراً بسجنه وتعذيبه. ورفض أقباط ذلك الزمان ترك إيمانهم، للأستمرار في العمل الرسمي. وأختفوا في منازلهم، حتي يتضح أن حكومتهم لا تستغني عنهم، ولكن بعضهم أسلم بسبب شدة الاضطهاد، ورغبة في الانتقام من مضطهديهم.

+ وحلت مجاعة ووباء وقحط. فصلي الجميع من أجل كل هذه الكوارث الشديدة..

+ وبعد وفاة الملك المؤيد، عادت القلاقل والفظائع الدموية في الدولة. وتولي بعده ٣ سلاطين. وخُلِعوا كلهم في سنة واحدة!!

⁜ ⁜ ⁜

الفصل الثاني والستون

الاحتلال العثماني لمصر

(١٤٢٢م=١١٣٨ش=٨٢٥هـ)

+ ولما تولي المملوكي «**برسباي**» الخلافة. ولقبوه «بالملك الأشرف»، تفاءل الناس ببداية حُكمه. لزيادة الفيضان والرخاء. كما دعم سلطانه بحُسن سياسته.

---

(١) وليس في المصادر القبطية ما يشير إلي أن البابا غبريال بن نريك، كان متزوجاً قبل رسامته.

+ وفي عام ١٤٢٧م تنيّح البابا غبريال الخامس، وظل الكرسي البابوي خالياً عدة أشهر، وكان يدير شئون الكنيسة راهب من دير «طُرة» (شمال حلوان) يُدعي «ميخائيل». ويقول المقريزي إن ذلك الرجل أُنتخب بطريركاً للكرسي الاسكندري ثم خُلِع. ولم يُدرج بكشف بطاركة الأقباط، ورغم أنهم كانوا يميلون – بحسب تقاليدهم القديمة – لاختيار البطاركة من الرهبان، لكن أغلبية الأصوات اختارت يوحنا (أبو الفرج). وكان كاهناً ومديراً لمدرسة قبطية بالمكس (بالإسكندرية)، وكان مشهوراً ومحبوباً عند الشعب (يوحنا الحادي عشر وتولّي من ١٤٢٧ – ١٤٥٢) .

+ ويذكر المقريزي أنه سنة ١٤٢٩ اكتشفت معاهدة سرية بين الصليبيين والحبشة لمحاربة المسلمين من الجنوب والشمال. وكان النائب عن الحبشة تاجر مسيحي. وخلال مروره بمصر خانه أحد عبيده. فتم القبض عليه ومعه راهبان حبشيان. وساروا به في شوارع القاهرة يُشهّرونه علي خيانته قبل قتله!!

+ ثم مات الملك الأشرف برسباي، وكانت البلاد قد عاشت في هدوء في أيامه، وأنيرت الشوارع بالمصابيح ليلاً، وعمَّ الأمن كل البلاد، ثم أستطاع «**جقمق**»، قائد الجيش، أن يصير خليفة. ولُقب بالملك «**الظاهر**».

+ وفي عام ١٤٣٦م عُقد مجمع فلورنسا الذي عمل علي اتحاد كنيستّي اليونان والرومان، ولكنها عادتا للأنشقاق. وكانت الكنيسة المصرية قد أرسلت نائباً عنها لحضور المجمع المذكور ولكنه وصل مُتاخراً للمجمع. ولم يهتم الأقباط(١) بقراراته.

---

(١) زعم مؤرخو الكاثوليك أن الاتحاد كان مقصوداً به عودة خضوع الكنيسة القبطية لسلطة بابا روما: «كما كانت خاضعة له من قبل»!! ولكني أقول (= مدام بوتشر) أنها لو كانت خاضعة له من قبل لما عيّن بابا روما بطريركاً له في أبروشية الاسكندرية، التي كان لها بطريركها المصري، وأن غرض الكنيستين اليونانية والقبطية - بالمشاركة في مجمع فلورنسا - هو محاولة المصالحة بين الكنائس الشرقية والغربية، ولذلك رفضتا شروطه، واستنكرتاها لما أدركتا سوء القصد من هذا الاتحاد» (**هامش أصلي**).

+ وحل وباء هائل في مصر، وكان السلطان جقمق قد بلغ الثمانين من عمره فتنازل عن الحُكم لإبنه فخر الدين سنة ١٤٥٣م. وهي السنة التي تلاشت فيها الامبراطورية اليونانية (البيزنطية الشرقية) باستيلاء السلطان العثماني محمد الثاني إبن مراد علي القسطنطنية!!

+ ثم قامت ثورة انتهت بخلع فخر الدين، وتوليّ مملوك آخر إسمه «أبو النصر». وفي بداية حكمه تولي الكرسي المرقسي البابا متاؤس الثاني (١٤٥٢ - ١٤٦٥م) ولم يُعرف عنه إلا القليل.

+ وقد وصل سفير من الحبشة لمصر يوصي إمبراطورها بمصر خيراً. مما يدل علي سوء أحوال الأقباط في عهد أبي النصر. وكان المماليك قد أحرقوا عدداً من المدن، لاسيما الأحياء التي يسكنها الأقباط واليهود، لتكون لهم فُرَص للسلب والنهب.

+ ثم تولي السلطان المملوكي - اليوناني الاصل - **خوش قدم** سنة ١٤٦٠، واكتسب محبة المصريين.وكان حكيماً وباراً ومتواضعاً، وساد النظام والهدوء في أيامه، ماعدا القليل من اعتداءات المماليك علي الأقباط في مصر القديمة. وجاء السياح الاوربيون لزيارة الاماكن المقدسة بمصر.

+ كما زار مصر السياح الألمان سنة ١٤٨٣ في عهد السلطان المملوكي «قايتباي» ووصفوا قصره القائم في عين شمس.

+ وكان البابا متي (الثاني) قد تنيّح سنة ١٤٦٦م وخلفه علي الكرسي المرقسي البطريرك غبريال السادس (١٤٦٦ - ١٤٧٤م).

+ وبعد ذلك تم ترشيح «قايتباي»، الذي لم يُعرف له أصل ولا حسب. والذي يُعدّ أشهر سلاطين مصر من المماليك، وله آثار باقية للآن. وقد تولي سنة ١٤٦٨م. وحكم ٣٠ سنة، وإن كانت البلاد تعيش في عهده في قلق من

العثمانيين الذين كانوا يسيَّرون ضده الحملات. وكان يقوم بصدّها في الشام، ومع ذلك مرَّت الستة سنوات الأولي من حُكمه بسلام.

+ وبعد ذلك هاجم السلطان قايتباي العثمانيين، وانتصر عليهم مع قائده المدعو الأزبكي، فبني جامعه المشهور بجامع الأزبكية، تذكاراً لانتصاره علي العثمانيين، ولو أنه اندثر، لكن لا يزال مكانه يُعرف للآن بالأزبكية.

+ ولم يعانِ الأقباط من اضطهادات مقصودة في عهده، بل كانت الحكومة تستخدم كثيرين منهم في الهندسة المعمارية، لبناء الجوامع والمدارس، وأعظم المباني التي تمت في عهده كانت من وضع مهندسين أقباط.

+ وجلس علي الكرسي المرقسي في عهده البابا ميخائيل الثالث (١٤٧٧ - ١٤٧٨)، والبابا يوحنا ١٢ (١٤٨٠ - ١٤٨٣) ولكن لم يُعلم عن هذين البطريركين إلا شيئاً قليلاً في التاريخ[١].

+ وبعد موت قايتباي حكم مصر عدة مماليك - في مُدد قصيرة جداً - وآخرهم **قنصوة الغوري** (١٥٠١م) ولقبوه «بالملك الأشرف» وحكم ١٥ سنة. وكان حازماً، فعمَّ الأمن. وبني مدرسة وجامعاً (أول شارع الغورية).

+ ونظراً لحاجته للأموال للبناء والاستعداد للحرب، فرض ضرائب ثقيلة، وكان معظمها علي الأقباط كالمعتاد!!

---

(١) في سنة ١٤٨٤م تم ذبح كل رهبان ديريّ الأنبا بولا والانبا أنطونيوس. وظلا مهجورين نحو ٨٠ سنة، واندثر القسم الاعظم من المكتبة القديمة - بكل منهما - واستخدم البدو مجلدانهما الثمينة وقوداً (**هامش أصلي**).

+ ولما استولي البرتغاليون علي أجزاء من الهند أضرُّوا بالعلاقات التجارية بينها وبين مصر (وحولوا التجارة الي طريق رأس الرجاء الصالح بدلاً من عبر مصر). كما أنهزم أسطوله من البرتغاليين وتحطم أسطوله في البحر المتوسط من الصليبيين بقيادة الأمير القديس يوحنا، قبل أن يذهب قيتباي للإستيلاء علي القسطنطنية. فاغتاظ السلطان سليم الأول العثماني من هذه الجسارة، وهدده بغزو مصر.

+ ودخل الغوري في معركة «**مرج دابق**» (قُرب حلب في سوريا) مع قوات السلطان سليم العثماني. فانهزم الغوري ومات، بسبب استخدام العثمانيين المدافع، بينما استخدم المصريون السيوف والسهام والرماح.

+ وتولي بعده ابن أخيه طومنباي (الثاني)، وأرسل له السلطان سليم رسالة تهديد، وأنتصر العثمانيون باستعمال البارود. وقاموا بقتل المماليك في الفسطاط وبابيلون، وباع العربّان الخونة السلطان طومنباي لسليم العثماني، الذي قبض عليه وقيده وهو في يأس. ثم فك قيوده وعامله بلطف وإكرام، ووضعه في سجن، وسمح له بحضور اجتماعاته في أمور تنظيم البلاد. ولما تأكد سليم من عدم الاحتياج لمشورته، آمر بشنقه، ثم علقوا جثته علي باب زويلة.

+ **وبذلك أنتهت دولة المماليك الشراكسة** (البُرجيّة) بعد تسلُطها علي مصر نحو ١٣٩ سنة، ودخلت البلاد تحت حكم عثماني استبدادي بشكل أردأ. وتعاقب عليها الولاة العثمانيون، وكان كل منهم يسعي لما يعود لنفعه الشخصي - في مدة حُكمه القصيرة - ولم يهتم بخراب البلاد أو بتعميرها، قبل استدعائه للقسطنطنية (الأستانة = اسطنبول)، بينما كانت سلطة الحُكم الحقيقية في يد البكوات المماليك الظالمين للشعب المصري كله، ولاسيما للاقباط، كما جرت عليه العادة في العصور السابقة.

الفصل الثالث والستون

من رديء إلى أردأ (١٥١٧م = ١٢٣٣ش = ٩٢٣هـ)

+ وابتدأ السلطان سليم الأول العثماني (١٥١٧م) بوضع نظام الحكومة الجديدة في مصر، وكان الخلفاء العباسيون لا يزالون - في القاهرة - تحت حماية سلاطين المماليك، يقومون بالإفتاء الديني في كل بلاد العالم الإسلامي كله. وكانت سلطتهم الروحية مثل بابا روما، الحاكم علي كل العالم الكاثوليكي.

+ وكان من مبدأ السلطان سليم عدم وجود رئيس ديني غيره، وكان في مصر الخليفة ١٨ من الدولة العباسية الثانية، المدعو المتوكل علي الله (الثالث) فأجبّره علي التنازل عن سلطته الدينية، ونودي بأن سليم العثماني هو الخليفة الديني ونائب النبي الكريم، وسيد الأرض (علي كل العالم الاسلامي) وبذلك انتقلت الخلافة العباسية الي سلاطين الدولة العثمانية.

+ وعَمَد سليم إلي تأسيس ثلاث قوات تراقب بعضها الأولي «**الباشا**» وهو الحاكم العام ونائب السلطان في مصر، والثانية هي «**الجيش**» التركي، والقوة الثالثة «**المماليك**» وهم من بقايا دولتّي المماليك المنقرضين، والهدف من وجودهم حفظ التوزان بين الباشا والجيش، لأنهم كانوا خصماً للأثنين.

+ واختار سليم ١٢ مملوكاً مديرين للمديريات المصرية الإثنتّي عشرة.

+ وقادت هذه التنظيمات إلي إنتشار الظلم والاستبداد. واضطهاد الأقباط، بينما قل الاضطهاد لأصحاب الحِرَف، وكان من يعتنق الإسلام منهم

ينال مكافأة عظيمة، ولذلك اعتنقه البعض من أرباب الصنائع الأقباط، ولكن هذا السلطان لم يُهمَّه هذا، كما كان لا يُميِّز بين مسلم وقبطي.

+ وأصدر أمره بإرسال عدد عظيم من أشهر أرباب الفنون والمهن الصناعية المصرية، بلا تمييز في الجنس - أو المذهب - الي القسطنطنية (الأستانة)، مما أوقف الكثير من الصناعات في مصر.

+ وروي مؤرخ مصري أنه فرض جزية ثابتة علي مصر، قدرها ستمائة ألف قرش علاوة علي ما حمله معه، وهو ألف حِمْل جمل من الذهب والفضة وغيرها.

+ ومات سليم بعد ٣ سنوات وتولي بعده ابنه السلطان سليمان. وظل حاكماً لمدة نصف قرن. وأوجد نظام الالتزام بإصدار فرمان باعتباره المالك الوحيد لكل الأراضي المصرية، ويقوم الملتزمون بتوزيعها علي الفلاحين ويورثونها ولكن لا يحق لهم التصرُّف فيها. ويدفعون ضرائبها للملتزم، الذي يقوم بتوريدها سنوياً للسلطان.

+ وذكر مؤرخ انجليزي أنه شدد علي المسيحيين، ومع ذلك يعتبر من أحسن سلاطين التُرك، ولم يأمر بقتل أحد بدون محاكمة.

+ ومنذ حُكم العثمانيين لمصر (١٥١٧م) حتي غزو نابليون (٢٨١ سنة) حَكَم مصر ١١٩ والياً. وكانوا يتغيرون خلال الثورات التي تظهر وتتلاشي بسرعة، وأحياناً كان الوالي (الباشا) يعود لمصر بعد عزله بسنة أو بسنتين. وكان الولاة يجدونها طريقاً سهلاً لجمع الأموال بطرق غير شرعية، وإذ ماوصل خبر ثروته للسلطان سليمان كان يختلق له ذنباً ويقتله، ويستولي علي كل ثروته!!

+ ويبدو أن السلاطين العثمانيين كانوا يميلون إلي الكنيسة اليونانية في مصر، أكثر من الكنيسة القبطية الوطنية.

+ وكان البابا القبطي هو يوحنا الثاني عشر[١] عند دخول العثمانيين مصر والبطريرك اليوناني مرقس الثالث. ولم يُعرَف عنهما شيئاً، ولا اللذان تلاهما، وهما يوحنا الثالث عشر[٢]. وفيلوثاوس أو ثاوفيلوس (الرُومي).

+ وفي ذلك الوقت انقطعت العلاقات بين الحبشة (إثيوبيا) وأمها الكنيسة المصرية، إذ أغري أصحاب الأغراض إمبراطور الحبشة (الأرثوذكسي) علي قبول رسامة مطران للحبشة من البرتغاليين المُقيمين في بلاده ويُدعي **«برمودز»**.

+ وقد رسمه بابا روما مطراناً للحبشة وبطريركاً للكرسي الاسكندري، وهو **عمل عدواني عظيم. أنكرته الكنيستان القبطية واليونانية في مصر**[٣].

+ وقيل إن الذي خلف البابا يوحنا الثالث عشر سنة ١٥٢٦م هو البطريرك غبريال السابع، علي أنه لم يزل هناك شك في إثبات مدة حبرية البابا يوحنا ١٣، حتي أن بعض الكُتَّاب ينكرون حقيقة وجوده[٤] بالمرة!!

---

(١) والأصح هو البابا يوحنا ١٣ (١٤٨٤ - ١٥٢٤م) والبابا يوحنا ١٢ (١٤٨٠ - ١٤٨٣).

(٢) والاصح هو غبريال السابع (١٥٢٥ - ١٥٦٨م).

(٣) وهذا العمل من التدابير التي كانت تستخدمها السلطة الدينية الرومانية، لايجاد سلطة دائمة علي الكنيسة القبطية، منذ مجمع فلورنسا حتي اليوم (**هامش اصلي**).

(٤) يذكر الأنبا إيسيذيروس، في الخريدة النفيسة (طبع مكتبة المحبة ص ٣٦٤) أن البابا يوحنا ١٣ (البابا ٩٤) كان من صدفا. وكان يُعرف بابن المصري. وصار بطريركا ٤١ سنة (١٤٦١ - ١٥١٦م) واشتهر بالرحمة علي المساكين. فدُعي «بالرحيم». وورد في مخطوط ملحق بتاريخ البطاركة للأنبا يوساب أسقف فوة (طبع مكتبة المحبة ص ٢٩٣) أنه تمت رسامته سنة ١٤٨٣م وتنيّح سنة ١٥٢٤م وتمت الصلاة عليه بكنيسة العذراء بحارة زويلة، وصلي عليه الأنبا غبريال أسقف منفلوط.

+ ومع ذلك فإن اسمه ورد بكشف أسماء البطاركة الأقباط. ولو فرضنا جدلاً عدم وجوده، نجد فاصلاً بين مُدَّتي حكم البطريرك يوحنا الثاني عشر والبطريرك غبريال السابع ٨٨ سنة (١٤٨١ - ١٥٦٩م)، وهذا مما يحملنا علي عدم تصديق (رأي البعض) بعدم وجود بطريرك للأقباط طوال هذه المدة الطويلة جداً.

+ وفي منتصف القرن ١٦م مات الوالي التركي - المدعو داود باشا - الذي حكم بالعدل وساد في عهده الأمن، وبعده سادت البلاد أعمال السلب والنهب لدرجة مريعة، وقُطِعت الطرق. ولما جاء الوالي محمود باشا إلي الإسكندرية قُدِّمت له الهدايا - طوال الطريق إلي القاهرة - وشنق القاضي لعدم مقابلته له عند حضوره لمصر، كما قتل كل أعيان القاهرة.

+ وكان لا يمر في الشوارع إلا مصحوباً برئيس الجلادين. فإن إراد قتل أحد يُشير إليه فيقطع رأسه في الحال، وأنتهي حاله بقتله برصاصة خلال موكبه. ولا يظلم ربك أحداً. وأن الجزاء من جنس العمل.

+ وفي عهد الوالي حسين باشا كثر اللصوص، وظلت مظالم المماليك باقية، وزاد السلب والنهب في البلاد المصرية بدرجة لا تُحتمل!!

+ وكانت حكومة البلاد السودانية - في ذلك الوقت - قد تلاشت، وظلت تعاني من الاعراب الذين كانوا يتاجرون في الرقيق، ويسكنون الصحاري والجبال. واستطاعت قبيلة سوداء جنوبية أن تُقيم دولة عاصمتها سنار.

+ وعانت الحبشة من حروب أهلية ودينية (إسلامية) فتحالف إمبراطورها داود مع البرتغاليين ضد المسلمين. علي شرط أن يقبل مطراناً مرسوماً من قِبَل بابا روما، بدلاً من بابا الإسكندرية.

+ واستمر إبنه إقلاديوس في التحالف مع البرتغاليين، حتي انهزمت القوات

الاسـلامـيـة التـي كـان يقـودهـا الحـاكـم المسلم المدعـو «العـادل»، فـرفض الاعتراف بسيادة بابا رومية، وأرسل وفداً للبابا القبطي غبريال القبطي (١٥٢٥ - ١٥٦٨م) يبلغـه بأنه يخـضـع لسـيـادته، فـرسم كـاهناً يُدعي «يوسف» مطراناً للحبشـة، فاستقبله الامبـراطور وجميع رعيته بالفرح والتهليل والترحاب، فما رأي البطريرك الروماني برمودز البرتغالي ذلك، وفشل في ضم الحبشة للكنيسة اللاتينية، عاد حزيناً للبرتغال.

+ ثم رسم العـاهل الرومـاني بطريركـاً آخـر مع إثنين من الكهنة للحـبـشـة، فاستقبلهم الامبـراطور بلطف وأدب، ولكنه أفهمهم بأنه لا يخضع سوي للجالس علي كرسي مـارمرقس. وسمح لهم بالاقامـة في الحبشـة، ولكن ظل كل الشعب متمسكاً بالتعاليم الأرثوذكسية القبطية.

+ وعاد المسلمون لغزو الحبشـة، ولكن الملك اقلاديوس مـات في مـحـاربتـهم، وخلفـه أخوه مـيناس (مـينا) فلم يعـامل الكاهـنين الرومـانيين برقة. فـزاد سـخطهمـا، واستطاعا إغراء أحد أشراف الأحباش بالايمان بالمذهب الكاثوليكي، وإنضم للمسلمين في محاربة امبراطوره المسيحي، فحاربهم وهزمهم ولكنه مات من أثر جروحه وتولي بعده ابنه الصبي «**سجود**».

+ واستاء بابا روما من تصرف كاهنيه بالحبشة، فأرسل مندوبا للبابا القبطي غبريال. فاستقبله بلطف، ولكنه رفض رغبة العاهل الروماني بالانضمام للكنيسة الرومانية. فطلب منه السفير أن يستخدم سلطانه الروحي لدي امبراطور الحبشة ليسمح للكاهنين اللاتين بالبقاء هناك بعد مسامحتهما عما فعلاه لأبيه، ولكنهما نالا سخط كل الأحباش، فلم يكسبا أحداً منهم للكاثوليكية. وبعثا برسالة للبابا في روما، يزعمان فيها أن الحبشة لن ترتد عن إيمانها الأرثوذكسي إلا بقوة السيف!!

الفصل الرابع والستون

تأثير الإصلاح في مصر

(١٥٧٤م=١٢٩٠ش=٩٨٢هـ)

+ لما تولي الوالي التركي مسيح باشا الخادم حُكم مصر، قتل اللصوص بلا شفقة، حتي بلغ من قتلهم من المجرمين أكثر من عشرة آلاف. واستراحت البلاد من الفوضي. وساد العدل، ورفض الهدايا والرشاوي. ولكن للأسف تم عزله، وتلاه حسن باشا الخادم، فعادت معه الفوضي وسوء حالة البلاد، لأنه جعل همَّه جمع المال، بطرق مُخجلة أوجبت تدَّخل السلطان من كثرة شكاوي المصريين ضده.

+ وكان الوالي التالي ابراهيم باشا، قد تجول في القطر كله لمحاولة التعرُّف علي أحواله، ولكنه لم يكد يبدأ بمشروعاته حتي استدعاه السلطان. وعاد اللصوص والأشقياء الي النهب والسرقة. وزاد البلاء حدوث زلزلة قوية هدمت البيوت، وأوقعت الرُعب في القلوب.

+ واعتباراً من سنة ١٥٨٤ قامت صراعات - استمرت ١٠ سنوات - بين المماليك وولاة الحكومة العثمانية. ثم جاء بعض الولاة محاولين إعادة الهدوء، إلي أن قامت ثورة عمَّت القطر كله. حدث فيها قتل وسلب ونهب، وعاني منها الأقباط بالطبع.

+ وعاود بابا روما اتخاذ المساعي، والوسائل التي توّصله لاعتراف الكنيسة القبطية بسلطته عليها. فأرسل بعض رجاله لمصر، واجتمعوا بالبابا القبطي بآراء بابا روما، وعارضها الأساقفة بشدة، إلا أن البابا يوحنا ١٤ كان طاعِناً في السن، وميالاً للتضحّية باستقلال

كنيسته[1]، فأعلن قبوله للمقترحات. وأكد أنه تمَّت (مناقشتها) ودُوِّنت (مُسوَّدتها) وكان مرتكزاً - في ذلك الإعلان - علي نفوذه (سلطانه) الديني، وتأثيره الشخصي (علي الأساقفة الأقباط، وهو تعليل غير سليم، ويتنافي مع إيمان الكنيسة وثباتها عليه، وعلي ماقالته بوتشر سابقاً).

+ وما هي إلا ساعة - أو أكثر - حتي توفي هذا البطريرك فجأة!!، ويقول المؤرخون الرومان الكاثوليك أن البطريرك القبطي مات مسموماً، ولكن لم تظهر أدلة - ولا قراءة (قرائن) تاريخية تؤيد ذلك. وانحلَّ المجلس مُرتبكاً، بلا عمل يُذكَر، وبدون أن يري هذه القوانين (شروط المعاهدة مع روما) التي لم يُوَقِّع عليها أحد!!

+ أما مندبو روما، فقد قبضت عليهم الحكومة (السلطات العثمانية الحاكمة) بزعم أنهم جواسيس غُرباء، فتم حبسهم. ولكن عز ذلك علي الأقباط - وهم مطبوعون علي الكرم الطبيعي - فأسرعوا لإنقاذهم. فقدَّم بعض أغنيائهم (الأراخنة) مبلغ ٥٠٠٠ قطعة من الذهب فدية لهم، فعادوا إلي بلادهم، وأبلغوا

---

(١) تقول مدام بوتشر إنه ظن أنه لو خضع لسلطة بابا روما بشروط سهلة ومطالب مقبولة، يضمن بذلك حماية الاقباط من غائلة الاضطهادات الاسلامية،" (**هامش أصلي**). وعبارة التضحية باستقلال كنيسته استنتاج وتحليل غير مقبول، ولا يمثل الواقع، ولا يوافق المنطق.

* ويذكر الأنبا ديوسقوس (موجز تاريخ المسيحية، طبعة المحبة ص ٤٨ - ٤٨١) **وروفيله** (تاريخ الامة القبطية، ص ١٤٨ - ١٥٠) أن بعض الأساقفة الاقباط مالوا إلي عقد اتفاق مع روما، وأن البابا - لشيخوخته وسلامة نيته - مال الي جانب هذا الفريق، ورأي أن في هذا الاتحاد فائدة حقيقية للشعب القبطي، ورفضه باقي الأساقفة، وأنه قد انفضَّ المجمع علي نية عقد الاجتماع مرة ثانية - لتوقيع الأساقفة علي المعاهدة - ولكن البابا توفي في تلك الليلة نفسها . ففشل المجمع في الموافقة، ولم تتم المعاهدة.

بابا روما بكل ماحدث لهم – في مصر – فأسرع بردّ مقدار الفدية، إلي الأقباط، شاكراً لهم عواطفهم، وجميل شعورهم[1].

+ وكانت حالة البلاد المصرية – في ذلك الوقت – سيئة للغاية، فقد سادت الفوضي، مع مظالم الولاة العثمانيين، وكثرة الثورات التي كانت تنتهي عادة بقتل الوالي أو إرجاعه إلي الاستانة، وزيادة الظلم علي الأقباط.

+ وفي سنة ١٦٠٢م تولي علي باشا السلحداره وقد استعمل القسوة الشديدة مع المصريين، حتي أن المؤرخين المسلمين المعاصرين قد ذكروا عنه أنه قتل – في مواكبه – نحو عشرة آلاف نفس، تحت أقدام جواده بتُهم باطلة، فازداد رُعب الناس منه، وزادت تعاستهم بوقوع مجاعة هائلة، وأشد الأوبئة فتكاً بالبلاد.

+ وفي نفس العام تنيّح البابا غبريال الثامن، وبطريرك اليونان، ولكن لم نعلم إن كانا قد ماتا بسبب الطاعون أم لا؟!

+ وظلت المُراسلات جارية بين بابوات روما ومصر، فقد كتب العاهل الروماني غريغوريوس ١٣ إلي البابا القبطي يوحنا ١٤ (١٥٧١ – ١٥٨٦م) يدعوه للاعتراف بالسُلطة الرومانية، فكان الرد بالرفض.

+ ولما جلس البابا مرقس الخامس (١٦٠٣ – ١٦١٩م) علي الكرسي المرقسي تمت الاتصالات ثانياً بين روما والإسكندرية. وكان اعتقاد كنيسة روما

---

(١) يزعم المؤرخ الروماني بارونيوس أن الذي خلف البطريرك يوحنا ١٤ بعد موته فجأة قد أكمل المشروع بشأن الخضوع لسلطة روماء وزوّر خطاباً نسَبه للبابا غبريال الثامن، قال فيه إن الإتفاق – والاتحاد – المذكور قد قبلّته الكنيسة القبطية في يناير سنة ١٥٩٥م ولكن ظهر أن بارونيوس كان غشاشاً، وأن كل كتاباته غير حقيقية (**هامش أصلي**).

إلي هذا اليوم (في أيام الكاتبة) أن الكنيسة القبطية كانت ستخضع للسُلطة الرومانية (الدينية) لو لم يعزل الباشا (الوالي العثماني) البطريرك مرقس فجأة!!

+ ولكن الحقيقة المؤكدة – كما تقول السيدة بوتشر – أن الكنيسة القبطية رغم وقوعها في أشد أحوال الهول والتعاسة، ظلت متمسكة باستقلالها القديم إلي الآن (وهي مقولة حق وصدق).

+ وفي عام ١٦٠٤م إلتفتت الكنيسة القبطية إلي أعمال الإرساليات الكاثوليكية في الحبشة. وكان قبل ذلك الوقت بأربع سنوات (١٦٠٠م) أن ذهب راهباً يسوعياً (Jesuite) يُدعي «**بيدوفيز**» إلي مصوّع، فسجنه الأحباش هناك ثم أطلقوا سراحه. ثم أنعزل في مدينة «فريمونا» الحبشية، ودرس اللغة الأمهرية حتي أتقنها، وتكلم بها. أما الأمبراطور، فمال إلي المذهب الكاثوليكي، واقتدي به بعض رجال حكومته. وثار الشعب الحبشي الأرثوذكسي ضده. وقامت حرب أهليّة تم قتل فيها الامبراطور.

+ ولما هدأت الاحوال سمح الامبراطور الجديد لليسوعي «بيدفيز» بالبقاء عنده. فأخذ يجتهد في استمالته لمذهبه (الكاثوليكي)، فأوقع البلاد ثانيةً في حرب أهلية. وقيل إن وفداً حبشياً سافر إلي روما لإعلان خضوع الامبراطور شنودة وشعبه، للمذهب الكاثوليكي.

+ فأعلن المطران القبطي حروماً لمن يتمسك بالكاثوليكية. وقامت حرب أهلية هائلة، فقتل الامبراطور زعماء المتمردين، وأذاع انضمامه علناً للمذهب الروماني، أما الراهب اليسوعي بيدوفيز – مصدر تلك المصائب – فقد مات سنة ١٦٢٣م، بعدما أخرب المملكة الحبشية المسيحية التي أكرمته.

✣ ✣ ✣

الفصل الخامس والستون

مصر في القرن السابع عشر

+ تميزّت هذه المرحلة بالثورات والاضطرابات وقتل الولاة. ومن أسبابها تقليل المرتبات، وعدم منع الجند من جمع ضرائب غير قانونية من الفلاحين الفقراء،سواء كانوا من المسلمين أو المسيحيين.

+ وعمل المماليك علي إرجاع حكمهم والتحلل من السلطة العثمانية. وإرجاع مصر الي حالتها التي كانت في عهدهم، حيث كانوا فوق القانون. فاختاروا واحداً منهم وجعلوه سلطاناً وآخر وزيراً، واستمروا في السلب والنهب، ولكن تمكن الباشا (الوالي العثماني الجديد) من قتلهم.

+ ثم عادت الثورات ضد الاتراك من جديد، مقترنة بالطاعون والمجاعة!!

+ وقد عاد كيرلس بطريرك اليونان في الاسكندرية سنة ١٦١٦م من زيارته لأوربا، وكان متأثراً بمباديء «**كلفن**» (البروتستانتي). وأصدر حرماً ضد الارساليات الكاثوليكية، التي تأسست في مصر، منذ ذلك الوقت. وبعث برسالة إلي رئيس اساقفة كنتربري (الإنجليزي) يهاجم فيها الارساليات الكاثوليكية في مصر. وأرسل له شاباً لكي يتعلم اللاهوت عنده، ليُواجِه آراء الكاثوليك.

+ وفوق ذلك اقتنع بتعاليم شخص هولندي يميل إلي آراء كالفن، وأقنعه بصحة المذهب البروتستانتي، الذي يرفض وجود أيقونات وشفاعات للقديسين، فاعتبره شعبه (الروم) بالاسكندرية هرطوقياً.

+ ولم تكن الكنيسة القبطية – في ذلك الحين – أصلح حالاً من الكنيسة اليونانية، فقد أنحطت آداب الأقباط، لاختلاطهم بالمسلمين. وسادت بينهم عادة التسرّي، واتخاذ زوجات غير شرعيات بطرق مختلفة (وهو تعميم ذميم وغير واقعي بالطبع).

+ وزعم أسقف دمياط القبطي بأن تعدد الزوجات أفضل من الزنا، فقام البابا مرقس الخامس بحرمه. فاحتج علي حرمه وبدأ يأتي وينادي بما يؤيد فساد رأيه، بعد موت ضميره. وأمال بعض كبار موظفي الدولة من الأقباط – إلي جانبه – لينتقم من البابا!!

+ فرفعوا الأمر إلي الوالي التركي المسلم جعفر باشا، فاتخذها فرصة ليُذِل الأقباط. فاستدعي البابا مرقس أمامه، وأمر بضربه بشدة، **حتي استشهد ونال إكليله.**

+ وعلاوة علي أحوال البؤس والتعاسة، حصد الطاعون سنة ١٦١٦م أربعمائة ألف. وفي هذه الأثناء انتخب الأقباط بطريركاً جديداً لهم وهو «**يوحنا الخامس عشر**» (١٦١٩ – ١٦٢٩م) المُلقب «بالملّواني»، فأدار الكنيسة ٩ سنوات» ولا نعلم شيئاً عن أعماله خلالها[1]!!

+ وفي منتصف القرن ١٧م أرسل البابا الروماني وفداً كاثوليكياً إلي الحبشة. فحدثت حروب أهلية ومصائب، وألزم الكاثوليك الامبراطور بأن يتبع مذهبهم، ولكن الشعب الحبشي دافع عن إيمانه الأرثوذكسي مدة ٦ سنوات.

+ وبسبب الحروب الدينية لم تهدأ الحبشة – لمدة قرن كامل – وكانت مساعي باباوات رومة، لبسط سلطتهم الدينية علي الحبشة بلا نتيجة.

+ واستمر – في مصر – عزل الولاة العثمانيين، وعانت البلاد من ذلك، علاوة علي انتشار الطاعون. وفي مدة حُكم السلطان مُراد الرابع (١٦٢٣ –

(١) كان من أبنوب وترّهب بدير الأنبا أنطونيوس. وكان يحكم بالحق، بدون مُحاباة لأحد. وكان بسيطاً وسار في حكمة. وعاش ملازماً الصلاة ومحبة المساكين (تاريخ البطاركة لأنبا يوساب أسقف فوة من إعدادنا، ، طبع مكتبة المحبة، ص ٢٩٦ – ٢٩٧).

١٦٤٠م) حكم مصر ٨ باشوات. مالوا جميعاً للسلب والنهب، ولذلك كثُرَت ضدهم الثورات. وتم إعدام كثيرين. وجاء الوالي حسين باشا بعدد ضخم من الدروز، وأطلق لهم الحرية. فعاثوا في البلاد فساداً، وأوجدوا الرُعب في قلوب الأهالي، ولم يكن في مصر قانون يُعامَل به المجرمون، في ذلك الوقت بل تُرِكت الحرية للوالي، للتصرُّف بلا مسئولية.

+ وقام أحد الولاة العثمانيين بفرض ضرائب فادحة علي أصحاب مصانع نسيج الحرير بالقاهرة والجيزة وأغلبهم كانوا أقباطاً، كما ذكره المؤرخ شمس الدين سنة ١٦٢٥م.

+ ولما تنيَّح البابا يوحنا ١٥ (١٦١٩ - ١٦٢٩م) خلفه علي الكرسي المرقسي البابا متي الثالث (١٦٣٣ - ١٦٤٦م).

+ واستمرت المظالم في عهد الوالي:البستانجي، حيث ترك إدارة البلاد ليد سكرتيره المُستَّبد، فزاد السلب والنهب الي درجة أن أصبحت مدن مهجورة من السكان، خوفاً من اللصوص، وكانت كل ليلة تحدث حادثتيّ سرقة أو سطو - في القاهرة نفسها - وإذا تم القبض علي لص يعطي بعض ما سرقه للضابط فيُخَلِّي سبيله!!

+ وكان الطاعون يزور مصر بلا انقطاع - خلال الحكم العثماني - وخاصة سنة ١٦٤٢م.

+ وخلال الستين سنة السابقة عاني المصريون - وأكثرهم من الأقباط - من الظلم. وكان الأسرَّي، والأرقاء- المسيحيون يُساقون إلي حُروبٍ يُقيمها السلاطين ويُسخرُّون في الأشغال الحكومية الشاقة!!

+ وفي عام ١٦٦٠م تنيّح البابا القبطي مرقس السادس،وخلفه البابا متي الرابع (١٦٦٠ - ١٦٧٥م م). وقد حضر في أيامه الراهب الدومنيكاني

«**ڤانسليب**». وكان أول أجنبي يجول في مصر، منذ الغزو العربي. ووجد صعوبة في تأليف كتابهعن الكنيسة القبطية. كما إحتوَي أخطاءً كثيرة، ليس مجالها الآن..

+ وفي منتصف القرن ١٧م كتب - بالقبطية - رجل قبطي من ممفيس، عن الكنيسة القبطية، وكان إسمه «**أبو دقن**» وكان يوضح الاختلافات في الطقوس والقوانين الدينية بين الكنيستين المصرية والرومانية (الكاثوليكية).

+ وأوضح أبو دقن التهاون الذي ساد في سر الاعتراف، وعدم ممارسة سر المسحة (القنديل) إلا برغبة المرضي، وأن البابا كان يقوم برسامة الشمامسة (deacons) لهذه الرُتبة الكنسية بعد سداد مبلغ ٣ جنيهات، ويُلبسهم البابا زناراً عند رسامتهم.

+ وكان يغلُب إتمام صلاة الاكليل في منزل العريس، منعاً من الاعتداء عليه من بعض المسلمين!! وكانت مدة الحداد علي الميّت - عند الأقباط - ٤٠ يوماً، يُوزّع أهله فيها الصدقات علي الفقراء - ويقيمون القداسات باسمه - استجلاباً لرحمة الله علي روحه.

+ وقد لاحظ أبو دقن أن الأقباط كانوا أكثر زُهداً ونُسكاً من الرهبان الأوربيين، إذ لا تسمح لهم الكنيسة المصرية بأكل اللحم إلا في أيام عيدّي الميلاد والقيامة. وأنهم لا يميلون إلي الكسل أبداً. وكان يوجد في بعض المدن «أديرة للنساء» بالقرب من الكنائس. ولم تسمح الكنيسة المصرية للأفراد - دون السادسة عشرة - بالصوم[1].

---

(١) وتُعلق الكاتبة قائلة «إن الكنيسة (القبطية) تسمح في هذه الأيام (١٨٩٨) للأولاد والبنات دون سن ١٦ بالصوم فيتْلفون صحتهم» (ولا تعليق علي تعليق خاطيء).

+ وذكر أبو دقن أنه عندما كان يريد أحد الأقباط الحج[1] إلي أورشليم كان يدفع ضريبتين للأتراك. الأولي عندما ينوي السفر (٨ ريالات) والثانية (٤ ريالات) عند دخوله المدينة المقدسة (القدس).

+ ويذكر أن الأقباط عندما كانوا يزورون الهياكل والمقامات المصرية المقدسة كان يذبحون حيوانات بصفة قربان (نذور) ويأكلون لحمها هناك (جزءاً منها). وأنه إذا حضر كاهن وليمةً، يصلي ثم يعطي كل واحد من الحاضرين قطعة لحم للبَركَة.

+ وسجّل أيضاً أن الاقباط منذ قديم الزمن - والي عهده - كانوا يُحسنون صناعة الحُلي والمجوهرات وصناعة المعادن والأحذية والخياطة والحفر علي الخشب (الموبيليا والأُويّمة) والهندسة المعمارية.

+ وأنهم كانوا يعلُّمون أولادهم - في مدارسهم - القراءة والكتابة والجغرافيا واللغتين العربية والقبطية، ومعرفة الكتاب المقدس. وأن تعليم أولاد الأوربيين أرقَّي من تعليم أبناء الاقباط. ولكن تغيرّت الروية للتربية للأبناء ابتداء من أوائل القرن ١٧م، وقد تمت ترجمة كتاب المؤرخ أبو دقن للاتينية سنة ١٦٧٥م وللإنجليزية سنة ١٧٩٢م.

+ ومازال يتوالي علي مصر الولاة الاتراك. ولكن بعد ذلك تحوّل النفوذ إلي أيدي «البكوات المماليك». أما الولاة الاتراك فقد كان اهتمامهم هو جمع الثروة بأية طريقة، لأنهم يعلمون أنه لابُد من عزلهم (بعد فترة قصيرة) وأنه نادراً ما كان يتم عزل أحدهم، ولم يكن السجن مأْواه!!

+ وفي مايو سنة ١٦٩٤، ثارت في القاهرة زوبعة شديدة، حتي خُيِّل لسكانها

(١) كلمة حج مشتقة من كلمة «**مقدس**» باليونانية (Agios) والتي تنطق في اللهجة الصعيدية حجيوس (**حاج**) ومؤنثها «حجّية» (Agia) «(**حاجّة**)» وهي - في الأصل - عادة فرعونية قديمة جداً. أنتقلت لليهودية فالمسيحية ثم الإسلام.

أن الآخرة قد دنت، إذ هدمت بيوتاً كثيرة عن آخرها، وتطاير الغبار كسحابٍ كثيف، حجب ضوء النهار. وكان له أثره بالأكثر على المسلمين الذين كانوا يؤدون صلاة الجمعة ـ في شهر رمضان ـ في تلك الساعة.

+ ثم أنخفض النيل وزادت المجاعة وأدت إلي هياج الشعب الجائع. ومضوا للقلعة يصرخون طلباً للخبز. وقذفوها بالحجارة، ثم هجموا علي مخازن غلال الحكومة، فطردتهم القوات منها. ومات كثيرون جوعاً. وأكل البعض جثث الموتي!! ثم تبعها انتشار مرض الطاعون كالعادة. وشارك الوالي الجديد في دفن الموتي الكثيرين .

+ + +

الفصل السادس والستون

استبداد البكوات المماليك

(١٧١٠م=١٤٢٣ش=١١١٨هـ)

+ توالت الثورات المصرية، وكثر الولاة العثمانيين، ولكن زاد نفوذ البكوات المماليك، خاصة بعدما حدثت الحرب سنة ١٧١٠م بين روسيا وتركيا، فتم سحب بعض الجنود الأتراك من مصر. غير آن الذين بقوا في القاهرة تدخلوا في المعارك المحلية، واستُخدِمت الجوامع كحصون حربية للأُمَراء.

+ واحترقت عدة منازل ومحلات للأهالي، من تطاير شرر اطلاق الرصاص في القاهرة، فهرب الكثيرون من منازلهم. فقام بسلبها الجنود، كما جاء العربان للسلب أيضاً، وتنازعوا ـ فيما بينهم ـ في قتالٍ داخل القاهرة، بقرب قصر العيني(١).

---

(١) كان مقراً للوالي ثم صار مستشفي حكومي في عهد محمد علي وللآن.

+ كما تم إصدار أوامر بعدم خروج النساء بلا حراس. وعدم ركوبهن الحمير، حتي لا يتم الاعتداء عليهن، كما حدث يوم شم النسيم، حيث هجم الجنود علي عدة نساء. وسلبوا حُليّهن ومزقوا ثيابهن!!

+ وكان الولاة الاتراك يشغلون مناصبهم بالاسم فقط، وكانت القلعة سجناً لهم. بينما كانت السلطة الفعلية في يد المماليك.

+ ويذكر مؤرخ مسلم آن أحد الأقباط – تنبأ سنة ١٧٤٣م. بأن العالم سينتهي بعد يومين، فانتشر الخبر في كل البلاد المصرية، وأخذ الناس يُسرعون إلي النيل ويغتسلون من خطاياهم بمائه. ويودعُون بعضهم. وتم القبض علي القبطي الذي نشر الإشاعة، ولكن آحد علماء المسلمين الحُكام أعلن للناس أن السيد البدوي وابراهيم الدسوقي والامام الشافعي توسلوا الي الله – هم وباقي الأولياء الصالحين – فقبل تضرعاتهم ورضي بتأجيل القيامة إلي أجل غير مُسمَّي!! فأخذ الناس يهنئون بعضهم، ويشكرون الله، الذي أعطاهم فرصة أخري للتوبة؟!

+ وقد حدث ذلك في أيام البابا يوحنا ١٧ (١٧٢٧ ـ ١٧٤٥م)، الذي خلف البابا بطرس السادس. ثم خلفه البابا يوحنا البابا مرقس ٧ (١٧٤٥ ـ ١٧٦٩م).

+ وقد رجعت البلاد لحالة الفوضي. واختل الأمن. وكثرت المحاربات بين البكوات المماليك وأحزابهم – في القاهرة – واستفحل الشر بين الأُمَراء حتي قتلوا بعضهم بعضاً. وكانت من عاداتهم دعوة خصومهم – في بيوتهم – ثم القيام بذبحهم بها!!

+ كما قامت معارك طوال القرن الثامن عشر، وتحولت الجوامع – مرة أخري – الي معاقل حربية. وكانت منازل المتقاتلين تُنهب علناً!! وعلاوة علي ذلك فتك الطاعون بالآلاف.

+ وكان السلطان العثماني قد **منح الأجانب امتيازات**. وكان الأوربيون الوافدون الي مصر يتمتعون بالأمن والضمان علي حياتهم وأرزاقهم أكثر من سكان البلاد البؤساء، وجعلت الامتيازات الاجنبيةالمصريين يتأكدون بأن قتل أحد الأوربيين له نتائجه الخطيرة، فكانوا يقابلونهم بأرّق الكلمات. وارتاح الاجانب لذلك.

+ وقد زار الدكتور «**بوكوك**» الاسكندرية سنة ١٧٣٧م وزار البطريرك اليوناني كوزماس في رشيد، وكان البابا القبطي في ذلك الوقت هو البابا يوحنا ١٧، وزار القاهرة ووصل الي كنيسة آرمنت، التي اعتبرها هذا السائح العظيم من أعظم وأقدم الكنائس المصرية.

+ وخلال سياحته كانت البلاد في راحة نوعاً ما من القلاقل، غير أنه لاحظ أن قتل النفوس البريئة بالسّم كان مألوفاً بين طبقات الأتراك، وأنه كان لابُد من تنفيذ أوامر الاتراك مهما كان فيها من أضرار عامة، وأخطاء قانونية معيبة!!

+ وذكر هذا السائح الأوربي أن معظم الاقباط كانوا يعرفون القراءة والكتابة، الأمر الذي لم يجد مثيلاً لهم عند غيرهم من باقي سكان مصر. وزاد ظلم الاتراك للأقباط بتحصيل ضرائب ظالمة وثقيلة علي كاهلهم.

+ وفي النصف الأول من القرن ١٨ م كان الأقباط يعيشون بسلام، لأن المسلمين كانوا مشغولين بقتال بعضهم. ولم ترجعِ الصناعات القبطية كسابق عهدها قبل الاحتلال العثماني، بل زادت في الاضمحلال. وزاد السلب والنهب لبيوت الاقباط واليهود، حتي أنه لم يبقَ في القاهرة قبطي - أو يهودي - عنده شيئاً يستحق السرقة ولم يتم سرقته منه!!

+ وفي عام ١٧٣٣م صدر فرمان سلطاني بتحصيل ضرائب علي كل قبطي ويهودي. وكانت تشمل ثلاث فئات مالية، حسب مقدار دخولهم.

+ وقد حدثت حادثة استشهد فيها الكاهن الفرنسي «**كليمنت**» وبعدها لم يحدث قتل لأحد من الكهنة - بأمر الحكومة العثمانية - بسبب دينه. ولم يصدر أمر رسمي بهدم كنائس في مصر.

+ وفضلاً عن ذلك كانت الحكومة العثمانية مضطرة جداً لاستخدام الموظفين الأقباط في مصالحها الحكومية، لأمانتهم ومعارفهم (خبراتهم) الممتازة، بينما كان الجهل وعدم الاستقامة متفشياً بين المسلمين!!

+ وكان للمرسلين الكاثوليك سنة ١٧٣١م تسعة مراكز بالصعيد. وقد أرسل البابا كليمنت ١٢ - لرؤساء تلك الررساليات - أن يبذلوا مافي وسعهم لحض الأقباط علي إرسال أولادهم إلي روما للتعلُّم بها، ولكن دون جدوي، إذ لم يقبلوا. ومضي لروما أبناء الروم الكاثوليك فقط لهذا الغرض.

+ وأرسل نفس البابا كليمنت رسالة للبابا القبطي - مع كاردينال وإثنين من المرسلين الكاثوليك - ليكون همّه خضوع الكنيسة المصرية للبابا الروماني، فلم يوفّق في مسعاه، كما سبق ذكره.

+ أما البابا الروماني التالي - بندكت ١٤ - فلم يهتم بالاتحاد مع الكنيسة القبطية - وعيّن مطراناً كاثوليكياً علي مصر سنة ١٧٤١م، وكان قبطي الأصل ويُدعي «**أثناسيوس**» ولكنه ظل مقيماً في أورشليم. وعيَّن له نائباً في مصر.

+ وفي سنة ١٧٤٥م صدرت تعليمات من العاهل الروماني، فيما يجب عليه اتباعه لجذّب الأقباط الارثوذكس للمذهب الكاثوليكي. وكان يوجد شاب قبطي ارثوذكسي - اسمه **روفائيل** الطوخي من جرجا - كان قد أخذه الكاثوليك بالقوة - منذ أن كان صغيراً - وأرسلوه لروما لدراسة

اللاهوت، ثم رُسِم أسقفاً علي أرسينوي (الفيوم) ولكن يبدو أنه لم يتمكنَ من البقاء فيها طويلاً[1]. لأن البابا أراد الانتفاع بمعارفه، فاستدعاه ليساعد في تأليف كتب دينية باللغة القبطية، ومن ضمنها كتاب لقواعدها. وتنقيح كتب الطقوس الكنسية. وترجم عدة كُتب يونانية ولاتينية للقبطية والعربية.

+ وفي عام ١٧٤٣م أرسل امبراطور الحبشة وفداً للبابا القبطي يطلب رسامة مطران بدلاً من المُتنيّح والمدعو خريستوذولس (عبد المسيح). ووصل المطران الجديد الي الحبشة، رغم معاناة من حاكم ميناء مُصوَّع.

+ وقد وطدّ المرسلون أقدامهم في مصر، ولكن لم يفلحوا في إغواء الاقباط الارثوذكس بها، ولكن أنضم اليهم بعض أبناء الكنيسة اليونانية وكثيرون من السريان الموجودين بمصر، فلما سمع السلطان بذلك أرسل فرماناً الي بطريرك الكنيسة اليونانية بمصر، لكي يأمر رعاياه بعدم الصلاة في الكنائس اللاتنية بمصر، وإلا جازاهم بدفع غرامة قدرها ألف كيس، فجمع السوريون هذا المبلغ ودفعوه للسلطان واستمروا في اتباع المذهب الكاثوليكي والصلاة في كنائسه بمصر.

+ وكان الأقباط محرومين من زيارة القدس لفترة طويلة. ولكن سنة ١٧٥٢م دفعوا مبلغاً لشيخ الأزهر، فأصدر فتوي بالحج للأقباط بالقدس، ولكن المتعصبين ثاروا ضده، وقاموا بالاعتداء علي الحجاج الأقباط واستولوا علي كل ما معهم من أموال وأمتعة وهدايا للقدس. وراحت أتعابهم أدراج الرياح، لعدم إتمام الزيارة للأراضي المقدسة!!

---

(١) ويبدو أنه في نهاية القرن ١٨م كان الكاثوليك قد جذبوا أسقف جرجا القبطي للمذهب الروماني. فحرمته الكنيسة القبطية. وحكم عليه المسلمون بالعقاب. فهرب الي روما - وعاش بها حتي سنة ١٨٠٧م (**هامش أصلي**).

الفصل السابع والستون

المسيودي مايية في مصر

(١٦٩٤م=١١٠٦هـ=١٤١٠ش)

+ في أواخر القرن الـ ١٧ حصلت ثورات عديدة بمصر، انتهت بتحويل سلطة الباشوات (الولاة العثمانيين) الي البكوات المماليك، ثم صارت السلطة في أيدي «**شيخ البلد**»،وهو لقب أطلقه الأهالي علي محافظ القاهرة.

+ وانقسَّم البكوات المماليك إلي حزبين كبيرين، هما **حزب القاسمية وحزب الفقارية**[1]، وكان شيخ البلد يُنتخب – عادةً – من أحد أفرادهما. وكان كل حزب يحاول اكتساب النفوذ وإذلال الآخر. وكان أهالي مصر يقاسون العذاب نتيجة العداء بين الحزبين، وكان الصراع والخصام علي أشدّه بينهما، وانتهي بمذابح وسرقات ونهب. وقد أسهّب المؤرخ المصري المدعو «**الجبرتي**» في ذكر تفاصيله.

+ وفي أواخر القرن ١٧م كثرت الأرساليات الأجنبية الدينية والتجارية – من أوربا – الي مصر، حتي اضطرت الحال إلي تعيين نائب عن أوربا في البلاد. ولو أن أعداد هؤلاء الأجانب كانت قليلة، لكنهم كانوا في الحقيقة أقوياء بسبب الاتفاقات والمعاهدات بين ملوك أوربا والسلاطين العثمانيين، خلال القرنين ١٥، ١٦م. وقبل ايجاد هذه الامتيازات، كان من المستحيل علي أي تاجر أجنبي، أو أرسالية دينية أن تعيش في مصر، وقد أصبحت **تلك الامتيازات** (الاجنبية) **شديدة الوطأة ومبتذلة جداً وسبباً في تأخير تقدم مصر**[2] «**ومصدراً لإذلال وظلم أهل البلاد، في تعاملهم مع الأجانب** المقيمين بها» (وهي شهادة من كاتبة أجنبية).

---

(١) وكانا يُنسبان الي قاسم بك الدفتردار، وذو الفقار الكبير.

(٢) وقد ألغيت هذه الامتيازات في معاهدة «مونترو» عام ١٩٢٧م.

+ وفي أوائل القرن ١٦م عينَّت كل من فرنسا وانجلترا قنصلاً عاماً – في القاهرة – يمثل كل منهما. وكتب وكيل فرنسا في مصر «**دي ماييه**»، الذي جاء إليها سنة ١٦٩٢ عن أحوال البلاد والتقاليد والاخلاق المصرية في تلك الفترة.

+ وقد قدّر سكان القاهرة – في أيامه – بنحو نصف مليون نسمة، في حين أنه ظن أن جملة سكان البلاد لا يزيدون عن ٤ مليون. وتحدّث باستغراب بشدة عن بقايا الاسكندرية، خصوصاً عن بقايا الأعمدة الجميلة، التي كان لم يزل كثيراً منها قائماً بقرب الجامع الذي كان أصله كنيسة القديس أثناسيوس (الرسولي).

+ وأشار إلي إتلاف الاتراك ـ والعامة ـ الآثار القديمة. ولم يعرفوا لها قيمة!! وشهد أن الأقباط كانوا يميلون جداً للمحافظة علي الآثار، واعتبارها أشياءً نفيسة.

+ وفكرّ دي مايـيه في مشـروع قناة السويس (الذي تم فيما بعد) وآتضح له سهولة التنفيذ، ولكنه ظن بآن نفـقاته تزيد عن المنفعة التي ستعود منه بكثير. فعدل عنه!!

+ وأعلن أن التجارة المصرية قد انتهت بالمرة، لسوء إدارة الاتراك، بينما راجت تجارة الرقيق الأسود والآبيض (من الآوربيين) في مصر.

+ واعترف بأن الاقباط كانوا دائماً أكثر معرفة وعلماً، من كل المصريين، ولكنه بصفته كاثوليكي المذهب ـ شديد التعصُّب لمذهبه ـ لم ينصفهم تماماً، بما كانوا عليه فعلاً من الصفات الفاضلة والخبرة الكبيرة، بل كان يعاكسهم في حريتهم الدينية، ولا يبدي معهم آقل تساهُل في شيء، بزعم أنهم تابعون لكنيسة مُنشقة وهرطوقية!!

+ وقد كتب يشكوً بحدَّة وغلْ بأنه: «لا يوجد – في كل الدنيا – شعب عنيد وصلب في أخطـــائه (اللاهوتيـة)، وتمسُّـــكه بمبـادئه القـــديمة، مـثل هؤلاء الأقباط المُنشقيّن، فإن أعظم وأمهر المبـــشرين الكاثوليك كانوا يشتغلون (يخدمون ويعظون) فيما بينهم سنين عديدة بلا فائدة ولا نتيجة تُذكر».

+ ومــع ذلك اعترف بصراحة أن الأقباط كانوا يستقبلون أولئك المبشريّن الأجـانب بكـــــل أدب، ويحـتـرمـون غـيـرتهم في خـدمـتـهـم، ويُقـابلـون شفقتهم عليهم (رغبتهم في خلاص نفوســـهم) بالشـــكر، ولكن كان يستحيل بالمرة زحزحة أقل واحـــدٍ منـــهم عن ترك مذهبه، إلا إذا تم أخذ الأطفال وإبعادهم عن أهلهم وإرسالهم لروما في ســـن صغيرةٍ، ولكـــن لما عادوا رجعوا للأرثوذكسية وأفادوا الكنيسة القبطـيـة بما تعلموه من معارف دينية.

+ كما أعلنت الكاتبة رفضها لمزاعم روما بقولها «نؤكد عدم صحة القول الذي قيل بأن بطريرك الأقباط سمح للمرسلين الايطاليين بأخذ أولاد من الاقباط لتعليمهم في رومية» (المذهب الكاثوليكي).

+ وكان القنصل الفرنسي المذكور قد قال إنه في سنة ١٦٩٩م «وصلني آمر من جلالة امبراطور فرنسا باختيار ثلاثة من آبناء الأقباط. وإرسالهم حالاً إلي فرنسا، لكي يتعلموُا فيها» (المذهب الكاثوليكي)

+ ثم شرح الطرق التي بذلها – في جميع الدوائر – وانتهي بالقول بأنه قد استحال عليه إغراء أي قبطي، لقبول هذا الأمر.

+ وكان البطريرك القبطي – في أيام المسيو دي مايـيه – هو البابا يوحنا السادس عشر (١٦٧٦ – ١٧١٨م)، ومن الواضح آنه لم يعترف بأعمال

ووجود المرسلين الإيطاليين (الكاثوليك) في مصر. بل كان يفترض عدم وجودهم بالمرة، كما كانوا لا يعترفون به أيضاً!!

+ وذكر هذا المبعوث الفرنسي أنه تناقش مع البطريرك القبطي يوحنا عن موضوعَّي العماد والختان. وأظهر غيظه من أن الختان (للذكور) كان قاعدة عامة عند الأقباط.

+ وبالرغم من تحامُلِهِ علي الأقباط وإجحافه بهم، لم يستطع أن يخفي إعجابه العظيم بمهارتهم في أشغالهم، وعظمة (قداسة) رهبانهم وأديرتهم.

+ وقد حدثت قلاقل في عهد هذا البطريرك في الحبشة. أوجدها المرسلون الكاثوليك، وأضطرتَّه إلي رسامة مطرانين لها، وفي عام ١٦٨٠م كان للاقباط في الحبشة ثلاثة مطارنة.

+ وقد حرَّض الملك الفرنسي لويس ١٩ اليسوعيين علي إرسال طبيب يدُعي «دي رول» عبر السودان، فقتله ملك سنار المسلم. وكانت الممالك السودانية الشمالية قد تخربَّت، بسبب تجار الرقيق العرب الذي أوجدوا المظالم والحروب فيها.

+ وبالرغم من ذلك بقيت جماعات كثيرة من المسيحيين- في كل إنحاء السودان- ولها عدة كنائس، وكان نفوذها الإسمي ممتداً إلي الحدود الجنوبية لمصر(١).

+ وعند قتل الدكتور «دي رول» إستصدر دي مايبه قراراً رسمياً بالقاهرة، بأن يطرد الفرنسيون كل العمال السودانيين العاملين في خدمتهم بمصر.

---

(١) وقد عاد أساقفة الكنيسة المصرية وشعبها إلي السودان، في عهد محمد علي.

+ ووصف دي مايه ظروف إستشهاد القس الفرنسي «**كليمنت**» بأنه قد أتهمه البعض بسوء التصرُّف في الأموال المخصصة للأعمال الخيرية، فهرب للحكومة التركية في القلعة، ثم أعلن عزمه علي أعتناق الأسلام في ٢٣ إبريل سنة ١٧٠٣، ثم عـــاد في ذلك الرأي. مما آثار المسلمين. فحبسوه ووعدوا بأن يُزْوجّوه بأجمل فتاه. فلم يقبل ترك الأيمان المسيحي. فتم قطع رأسه، ونال إكليل للشهادة للمسيح، وتم دفنه في الخندق (دير الأنبا رويس بالعباسية حالياً) . وصامت كل من الكنيسة اليونانية- والقبطية - ٣ أيام تكريماً لهذا الشهيد (والعبرة دائماً بالنهاية السعيدة وليس بالبداية الشقية).

+ ووصف دي مايه أحوال البلاد خلال الأحتلال التركي - في زمانه - وكيف تفشّت الرشوة، والظلم من القوات التركية، التي كانت تمص دماء الشعب. وذكر أنهم كانوا يسلبون أموالاً من الفرنسيين الموجودين بمصر، نظير تجاهلهم للعلاقات الخاصة بينهم وبين بعض النساء المصريات. ولما أكثروا من سلب الأموال منهم تخلوا عنهن!!

+ كما كانت القوات التركية تطلب من الأهالي مبالغاً، نظير حمايتهم من هجمات البدو، الذين كانوا أيضاً - بدورهم - يقومون بالسلب والنهب لكل الشعب من المسلمين والمسيحيين.ولم يسلم منهم حتي كبار العلماء، ورجال الدين المسلمين.

+ + +

الفصل الثامن والستون

علي بك الكبير

(١٧٥٥م=١٤٧١ش=١١٦٨هـ)

+ دخل الأمير علي بك الكبير المملوكي، في صراع مع باقي المماليك بالقاهرة. وفر للصعيد، ثم عاد وانفرّد يحكم البلاد بأستبداد، لمدة ١٠ سنوات. وكانت مدة حُكمه كلها رُعب، إذ كان يقتل من يشك في إخلاصهم له، ويستولي علي كل ماعند الأغنياء من المسلمين والأقباط واليهود، وزاد في الضرائب عليهم جميعاً.

+ ولما أراد السلطان العثماني قتله، أكتشف الخطة وقرر الأستقلال بمصر. فتمت السيطرة عليها، بعد تأديب قبائل العرب الثائرين ضده بالصعيد.

+ ومع معاملته الشديدة للأقباط، لكنه وثق في قبطي يُدعي المعلم «**رزق**» ورقاه إلي درجة مدير المالية.

+ وقام ضد علي بك الكبير مملوكه المدعو **محمود أبو الذهب** وخانه. فاضطر على بك أن يهرب الي سوريا. وأول أعمال أبي الذهب، - بعد الأستيلاء علي حكم مصر - سلب وحرق دير البساتين، الذي كان علي بك الكبير قد أتخذه حصناً له، بعدما أخذه من الأقباط. ثم إستطاع قتله بعد عودته للبلاد. ثم مات أبو الذهب- كما قيل- من شدة فرحه بنجاحه وإنتصاراته في سوريا (وهو درس هام لكل نفس).

+ وحكم مصر بعد موته، ثلاثة من المماليك. وهم آسماعيل بك نائب أبو الذهب، وإبراهيم بك محافظ القاهرة،ومراد بك قائد الجيش. ثم سيّطر إبراهيم بك ومراد بك علي مصر وحدهما.

+ وفي نفس الفترة أرسلت فرنسا المدعو «**سونيني**» لزيارة مصر والكتابة

عن أحوالها العلمية والسياسية، تمهيداً لإرسال حملتها التي جاءت فيما بعد بقيادة نابليون بونابرت. وأكد المبعوث الفرنسي إن المماليك هم المسئولون عن خراب البلاد.

+ وأستطاعت القوات التركية هزيمة مراد بك وأبراهيم بك، ففرا إلي السودان. وفرض الأتراك ضرائب باهظة علي المصريين، رغم أنتشار طاعون المواشي!!

+ وقام القائد التركي حسن باشا بانزال كبار الموظفين الأقباط إلي وظائف صغري جداً، ونهب منازلهم وممتلكاتهم، وأهانهم. وأمر أن ينادي في الشوارع: بأنه لا يجوز لقبطي- أو يهودي- أن يركب دابة علي الأطلاق، ولا يقتني له عبداً أوجارية (خادمة) وأنه لايجوز- من ذلك الحين فصاعدا- أن يُسمي مسيحي أو يهودي بأسم الأنبياء االموجودين في التوراة، وأن كل من يكون أسمه منهم يلزم تغييره في الحال!!

+ فأصبح الأقباط يُسمُّون أنفسهم- أمام المسلمين الذين كانوا يتعاملون معهم- أسماءً وألقاباً تركية، كما كانت عليه الحال في زمن الكاتبة.

+ وأمر حسن باشا بجمع العبيد بمساكن الأقباط واليهود، وباعهم في سوق الرقيق بالقلعة. وضاعف الضرائب علي الأقباط، وخاصة العاملين في دائرتي مُراد بك وابراهيم بك، العاصيان، والذي حضر لتأديبهما[1].

+ وكان ذلك في عهد البابا يوحنا ١٨ (١٧٦٩ - ١٧٩٦م) الذي لم ينجُ هو من أضطهاد القائد العثماني حسن باشا. والذي جرد خزينة البطريركية

(١) ولم ينجُ من هذا الاضطهاد إلا المعلّم «**ابراهيم الجوهري**»، الذي كان له مركزه الكبير في أيام ابراهيم بك. وكان مُحترماً في نظر المسلمين والاقباط، وبتأثيره الادبي تمكنّ من السماح للبابا القطي بإعادة بناء كنائس وأديرة، ووهب كثيرا من أراضيه وأمواله للكنيسة. وقد سار ابراهيم بك في جنازته يوم نياحته، أحتراماً له ولخدمته الأمينة.

وأخذ أموالها كلها!! ثم إستدعاه السلطان سنه ١٧٨٧م للحرب بين تركيا وروسيا، ولكن الوالي العثماني«عبدي باشا» كان أشد قسوة، إذ لما علم أن أغلب أحد أحياء القاهرة كان سكانه من المسيحيين أمر بهدمه، ولكن دفع الأقباط والسوريين مبلغاً كبيراً له لمنع الهدم!!

+ ويذكر الجبرتي أنه قد ظلّت الضيقات والشدائد تزداد بتوارد السنين، وزاد السلب والنهب والبطش بالمارة، وإذا لم تقع تلك المصائب من الأمراء المماليك كان يمارسها العرب البدو. فلم يأمن أحد علي حياته أو علي ممتلكاته، في كل القُطر.

+ وفي عام ١٧٩٢م حل وباء عظيم مات فيه الوالي إسماعيل بك مع الآلوف. فخلي الجو لرجوع الأميرين مراد وإبراهيم للقاهرة. وصارا حاكميّ البلاد، وأستوليا علي أملاك الأمراء الذين ماتوا بالوبا. وتزّوجا بنسائهم.

+ وحدثت مجاعة في نفس السنة بسبب إنخفاض النيل. وعمت البلاد كلها.

+ وكانت حالة مصر الأجتماعية في نهاية القرن ١٨م أردأ من القرن السابق له، إذ اندثرت صناعاتها، وكسدت تجارتها. ووصلت لحالة من الهمجية التي ذهبت أيضاً بحضارة السودان، ولكن بفضل التجارالأوربيين المتحصنين بالإمتيازات الدولية - التي كانت لدولهم - قد ساهموا في الحياة التجارية الضعيفة والباقية في مصر. وأدرك الفرنسيون أن الفُرصة قد أتت لغزو مصر، تمهيداً للإستيلاء علي الكثير من دول المشرق.

✣ ✣ ✣

الفصل التاسع والستون

الحملة الفرنسية علي مصر

(١٧٩٨م=١٥١٤ش=١٢١٢هـ)

+ وصل نابليون إلي ميناء الإسكندرية في أول يوليو سنة ١٧٩٨م ومعه ٣٧ ألفاً من القوات المسلحة، وكان القائد الأنجليزي «نلسن» قد وصل قبله للإسكندرية بثلاثة أيام بأسطوله. وحذّر المحافظ السيد محمد كريم من الخطر القادم، ولكن أمراء المماليك تهاونوا.وتباهوا بقوتهم.

+ وبعد ثلاثة أيام من رحيل الأسطول الأنجليزي، وصلت الحملة الفرنسية للإسكندرية، فأرسل حاكمها يستنجد بمراد بك، الذي ذهب إلي زميله ابراهيم بك في داره (وكان هو مستشفي قصر العيني الحالي)، وأتفقا علي أن يقود مراد بك جيشه للإسكندرية، ويحمي ابراهيم القاهرة بجيشه. وأرسل الوالي العثماني ـ الطرابلسي باشا ـ طالباً المساعدة من السلطان العثماني في الأستانة.

+ وقرر المسلمون المجتمعون في ديوان حاكم القاهرة قتل المسيحيين، وقليل منهم كانوا يعرفون سوء عاقبة هذه السياسة الرعناء وصعوبة هذا العمل الفظيع، في مثل تلك الظروف، وكان إبراهيم بك قد وعد بحمايتهم من القتل.

+ وهجم المسلمون علي كنائس الأقباط وأديرتهم ومنازلهم ونهبوها. وهددوهم بالذبح، وشهد الجيرتي أن البلاد المصرية كلها صارت مسرحاً للسرقات والذبح (للأقباط وأسرهم)!!

+ ولما آستولي نابليون علي الإسكندرية وزع منشوراته- المطبوعة بمطبعة الحملة- بأنه جاء ليُخلِّص المصريين من إستبداد وظلم المماليك، وأن

الفرنسيين هم مسلمون، مع تهديدات بالعقاب الشديد، لأقل مخالفة أو معارضة[1].

+ وبعد معركة إمبابة، هرب مراد بك، بعدما آخذ أمواله من قصره بالجيزة ومضي إلي الوجه القبلي.

+ ولما استولي نابليون علي القاهرة، نهب أموال المماليك الذين ماتوا في القتال، وفرض غرامات وعقاباً علي الأهالي الذين لم يكنسوا الشوارع ويضيئون القناديل أمام منازلهم. ورفع البوابات الخشبية من الشوارع . وأمر بسك النقود بأسم السلطان العثماني كالعادة.

+ وكان المصريون قد تذمرُّوا من النواهي والتعليمات الصحية التي لم يعتادوا عليها. والتصريح أيضاً باعتداء الجنود الفرنسيين (جنسياً) علي النساء المصريات!!

+ أما الأقباط فلم يستقبحوا فقط أعتراف الفرنسيين الكاذب بالإسلام، بل أيضاً أن يعيشوا في فرنسا بعيداً عن الإيمان المسيحي، ودعُوهم بالغُزاة الكاثوليك الرومان.

+ وفي ٢٢ أكتوبر سنه ١٧٩٨ قامت الثورة، بعد فرض نابليون ضرائب علي منازل القاهرة، وحثّ علماء الأزهر تلاميذهم علي دعوة المسلمين إلي الجامع الأزهر، وحرضوهم علي ثورة عارمة ضد الحملة الفرنسية، فأقاموا الحواجز في الشوارع. وقتلوا الفرنسيين المارين، وذبحوا الكثير من الأقباط.

---

(١) من أعظم أخطاء سياسة نابليون في مصر إعلانه إنه مسلم: مما ادي إلي أحتقار المسلمين له وعدم ثقتهم فيه (**هامش أصلي**) وتشير الكاتبة إلي ضرورة الرجوع إلي الذين كتبوا عن الأحتلال الفرنسي لمصر مثل: ريم في كتابه « مصر الفرنسية». وعبد الرحمن الجبرتي في كتابه « تاريخ مصر في عصر الفتح العثماني» وباتون في كتابه «تاريخ الثورة المصرية»

+ فضرب نابليون الأهالي بالمدافع. وجعل الفرنسيون الأزهر كالاصطبل. وقتلوا كثيرين، لردع الثائرين. كما أنتهي الأمر بمراد وابراهيم بالفرار خارج البلاد، بعد هزيمتهما بيد الجيش الفرنسي.

+ ودخل نابليون في معارك مع المماليك ومع العثمانيين ومع الإنجليز، وآضطر إلي الهرب إلي فرنسا بسبب سمعه بما حدث في فرنسا من ظروف صعبة. وترك جيشه في مصر، وولي بعده القائد **كليبر** وتم عقد معاهدة سنة ١٨٠٠ تقضي بأن يسمح كلٍ من الآنجليز والعثمانيين للجيش الفرنس بالرحيل عن مصر، ثم تغيرّت الآحوال.

+ فآشتّبك كليبر مع الأتراك في معركة عين شمس. وطاردهم حتي الصالحية (بالشرقية)، لكن في ذلك الوقت قامت ثورة ثانية ضد الفرنسيين في القاهرة. وحدث آن آستطاع ناصف باشا قائد الجيش العثماني أن يدخل القاهرة. وأبتدأ عمله بذبح الاقباط ونهب الأحياء المسيحية.

+ ثم قام الأتراك – مع المسلمين المصريين – بالبحث عن كل مسيحي بالقاهرة فيذبحونه بلا شفقة، ويجلدون النساء القبطيات وهن عرايا، ويقطعون رؤوس أطفالهن أمامهن.

+ واستمرّت هذه الحالة الفظيعة لمدة يومين قبل آن يعود االفرنسيون إلي القاهرة، حيث أستخدموا الألغام في نسف الأبواب المقفلة، ودخلوا وأحرقوا كل من كانوا يصادفونه ـ كما قال الجبرتي ـ وفرض كليبر غرامة مالية علي سكانها.

+ وقام أحد المسلمين[1]– وهو يرتدي ملابس الجنود الآنكشارية وقتل كليبر. فتولي بعده القائد «**مينو**» الذي آعتنق الإسلام استجلاباً لرضاء المسلمين. وتزوج بآحدي بنات الطبقة الفقيرة!!

---

(١) يدعي سليمان الحلبي، وقام بطعنه بخنجر.

+ وقام بفصل كل المسيحيين الموظفين- في ديوان القاهرة - وجعل الأحوال الشخصية القبطية - المتعلقة بالميراث والزواج - حسب الشريعة الأسلامية!!

+ واشتد الأضطهاد علي الأقباط. وتم قتل كثير منهم، ولكنهم كانوا يقابلون المصائب بالصبر. وكان الخطر محيطاً بهم من كل جانب. فسلموا أمورهم لله، وقرروا أن يقاتلوا من أجل إيمانهم وشرفهم، وقام «**يعقوب**» الضابط القبطي، بتدريب بعض الأقباط - من الصعيد - للدفاع عن إخوانه الباقين بالقاهرة، وقد إستخدم الأسلحة الفرنسية. وقام بهدم البيوت القبطية التي تهدمت في الحوادث الأخيرة - في الأحياء التي كان يقطنها الأقباط (في كلوت بك وحارتي الروم وزويلة).

+ وبني الجنرال يعقوب من أنقاض الخرائب سوراً عالياً، حول الحي الذي جمع فيه كل الأقباط. وشيد فوقه الأبراج والحراس، طبقا للنظام الفرنسي، كما ذكره الجبرتي . وقد تخرب الحصن بعدما هجره الأقباط، لما سمحت لهم الظروف بالخروج منه، بعد خروج الفرنسيين من مصر، ورحل معهم الجنرال يعقوب مع أكثر جنوده الأقباط، في طريقه لفرنسا، ومات في فرنسا بعد ذلك بعدة سنوات[١].

+ وانتشر الطاعون بدرجة مريعة جداً، ومات بسببه خمسمائة من الجنود الفرنسيين، كما مات به مراد بك، زعيم المماليك في بني سويف.

+ وقد وقع الجنرال «**مينو**» الفرنسي معاهدة مع الأنجليز يتعهد فيها بترك الحملة الفرنسية الديار المصرية فوراً (١٨٠١م).

+ وقد أتت جهود **الحملة العلمية** الفرنسية بفوائد أهم بكثير من الجهود **الحربية الفرنسية** التي لم تستفد منها فرنسا، ولا مصر، إلا الخسائر

(١) ولكن المصادر الكثيرة تذكر أنه مات في السفينة (في البحر) قبل وصوله فعلاً لفرنسا.

الشديدة المادية والبشرية لكلا الطرفين بينما قدمَّ علماء الحملة مؤلفات وبحوث ورسوم ومعلومات كثيرة عن مصر(١).

+ وقد كان من نتيجة الحملة الفرنسية عل مصر أن عاني الأقباط الشدائد والأهوال، خلال فترة الأحتلال (٣سنوات) وأسلم بعض الأقباط، ولكن الفرنسيين إستخدموا كثيراً من الأقباط في الأعمال الحكومية المالية وساووا بينهم وبين المسلمين، مما أوجد الحقد والغيظ ضد الأقباط، حتي أن الجبرتي لم يتمالك نفسه عن إظهار سخطه - كما سجلَه في تاريخه - ضد الأقباط، حينما كان يراهم يركبون الخيل، ويحملون السلاح مثل المسلمين!!

+ وتري الكاتبة أن الأقباط كانوا دائماً أول المضطهدين - بدون سبب- سواء وقت الأضطرابات والثورات المحلية، التي حصلت عند بدء الأحتلال، أو في وقت خروجهم من مصر. حيث انتشر السلب والنهب للأقباط، وقتلهم بدرجة لا تُطاق، والذين سَلمُوا منهم من الموت عم بيوتهم وكنائسهم الخراب والدمار، فعادوا إلي بنائها من جديد.

+ وكان البابا القبطي في أيام الحملة الفرنسية عل مصر هو الأنبا مرقس الثامن (١٧٩٦ - ١٨٠٩م) وكان من طموه بالجيزة، وكان قد ترَّهب بدير أنبا أنطونيوس، وانتُخِب بالقرعة الهيكلية.

* وذكر المؤرخ الأنجليزي «بطلر» (Butler) أن الشعب القبطي في أيامه قد قاسي من الضيقات والأحزان. والبلايا والشدائد ما لا يُحصَي، وقد نقل عن المخطوطات القبطية ما نصه: «أن خلقاً كثيراً من بلاد الإفرنج - يُقال لم الفرنساويون- أتوا وأتمكنوا (أحتلوا) مصر، فقام ضدهم سكان القاهرة، فقامت الحروب بينهم مدة ثلاث آيام، فألتزم البطريرك (أنبا مرقس ٨) بتغير محل إقامته من حارة الروم إلي الأزبكية».

---

(٢) ضمَّها كتاب «**وصف مصر**». كما آمكن أكتشاف حجر رشيد، الذي عن طريقه تمكَن العالم الفرنسي «شمبليون» من أكتشاف حروف اللغة المصرية القديمة، ومعرفة التاريخ الفرعوني.

* «ثم آتي وزير من بلاد تركيا- مصحوباً بجماعة (قوة عسكرية) من الشعب الإنجليزي، وطردوا الفرنساويين من مصر. وتألّم الشعب القبطي كثيراً علي يد الفرنساويين. فتخرَّبت كثير من الأحياء القبطية (في القاهرة) وأصبحت خاوية(من السكان) كالصحراء. وتخرّبت كنائس عديدة».

* «وقاسي البطريرك ذاته مصائب عديدة. وكان آول بطريرك يسكن الآزبكية، حيث بني بطريركية عظيمة، وكنيسة كبري، دعاها كنيسة مارمرقس الانجيلي. وكان مُهتماً ومشغولاً ببناء الكنائس والأديرة التي تخرّبت. وكان دائماً ساهراً علي الوعظ والتبشير بين شعبه، وبذل أقصي جهده في تعليمهم اللاهوت (العقيدة) وطريق الصلاح، ليلاً ونهاراً».

* «وقد رسم عدداً عظيماً من الأساقفة. ولما تنيحّ مطران الحبشة (القبطي) ووصله وفد مؤلف -من أعيان ورهبان وكهنة تلك البلاد- حاملاً معه خطاباً من إمبراطورالحبشة، يرجوه فيه تعيين مطران جديد- لتلك البلاد - آجاب طلبهم ورسم لهم مطراناً، وزودّه بالدعوات والبركات. وكثيراً من الكتب والمواعظ، المشتمل أغلبها علي مبادئ العقيدة الأرثوذكسية الصحيحة، لأنه سمع بهرطقة كثيره من الآحباش» (من تأثير البعثات التبشيرية الغربية الكاثوليكية والبروتستانتية).

+ وأما بطريرك الإسكندرية اليوناني (الرومي) الذي كان معاصراً للأحتلال الفرنسي فهو «بارثينيوس» وكان من اليونان، وغالباً إنه هرب من مصر خلال الأحتلال الفرنسي، حيث لا يوجد في التاريخ عما يُثبِت وجوده في ذلك الوقت. أما نائب بابا روما وقتئذٍ فكان الأب متي.

+ **والخلاصة** إن حالة الكاثوليك واليونانيين- خلال الحملة الفرنسية- لم تكن بأحسن حال، من حالة سكان مصر الأقباط الأصليين.

+ + +

الفصل السبعون

الوالي محمد علي باشا

(١٨٠٢م=١٥١٨ش=١٢١٧هـ)

+ بعد أنسحاب القوات الفرنسية من مصر، إستلم الأتراك زمام الحُكم في القاهرة. ولم يتركوا فرصة إعادة الأستيلاء علي البلاد بدون القيام- كعادتهم- بمذبحه دموية. كدليل علي رجوعهم للتسلّط عليها.

+ وقبل رحيل الأنجليز عن مصر حصلت مذبحتان إحداهما في الأسكندرية، والأخري بالجيزة، ونتج عنهما التقليل من عدد المماليك. وتم ذلك بطريق الغدر، كما وصفه الجبرتي.

+ وعاني الأقباط من آلام ورُعب بسبب تعصبُ الجنود الأتراك، وهجومهم عليهم، وسلبهم والفتك بهم. وقتل القائد التركي ثلاثة من كبار الأقباط، بزعم أنهم كانوا يساعدون الفرنسيين ضد الأتراك. ثم أستولي لنفسه علي أموالهم وممتلكاتهم.

+ ثم قطع رأس المعلم «**ملطي**» القبطي. وكان رئيساً لديوان الحقانية (العدل) أيام الفرنسيين . فهرب كثير من الأقباط من وجه الأتراك (ولم تذكر الكاتبة إن كان ذلك هروباً للخارج أم للداخل؟!).

+ كما فرض الأتراك الضرائب علي الأقباط، بصفة غرامة- أو فدية عن أنفسهم - وبعد مبارحة الأسطول الإنجليزي للمياه المصرية، أصبحت أحوال البلاد رديئة جداً .

+ ويسجّل الجبرتي - في تاريخه - تفاصيل أهوال ومظالم الأتراك. والقبائح والدنس الذي كان يرتكبه جنودهم ضد الأقباط (الأرثوذكس) خصوصاً، والمسيحيين عموماً، بدون رادع ولا عقاب للمجرمين!!

+ وتولي الوالي خسرو باشا حُكم مصر، وكانت سلطة الباب العالي (السلطان العثماني) علي الأسكندرية والقاهره فقط، أما باقي البلاد فكانت بيد من بقي من المماليك. وتم قتله بمعرفة عساكره سنة ١٨٠٣م، لعدم دفعه رواتب الجند (الأتراك).

+ ثم قتل الجند أيضاً الوالي الجديد - المدعو طاهر باشا - لنفس السبب!!

+ وأخيراً جاء صدور الحكم «**محمد علي باشا**». ولأول مره يتولي والٍ ليس من المماليك منذ عدة قرون. وتحالف مع المماليك - بذكاء - في البداية.

+ وفرض القائد الجديد-محمد علي-غرامة علي الاقباط قدرها ٢٠٠ ألف ريال للمرتبات المقرر دفعها إلي الجند (الأتراك).

+ ولما قويت شوكته هاجم زعيم المماليك. وعيّن خورشد محافظ الأسكندرية والياً علي مصر - بمساندة المشايخ وعلماء القاهرة - ومن دهاء محمد علي أنه جعل الأموال - اللازمه لإصلاح البلاد -من مسئولية خورشد باشا، حتي يقع العيب عليه إذا تمّت الاساءة في تحصيلها ضد الأهالي. وأما هو فكان متحاباً إلي الشعب. وسار معهم . وكان ينتقد المظالم والمغارم التي كان الباشا التركي يأمر بها، بهدف أنه يكرهه الشعب. ويميل إليه هو!!

+ وفي عام ١٨٠٥م كانت كل خططه قد نجحت في تحقيق مُراده، وساعدته بشاشته ودهاؤه، فأحَبّه الأهالي والمشايخ والعُلماء. وظلوا يتوسلّون إليه بأن يتولي حُكم البلاد، لأنهم ملوًا من مُعاملة الوالي التركي خورشد باشا. غير إنه كان يتظاهر بعدم الرغبة في الحُكم، ولكنهم ألحوًا عليه، مع رجال الجيش. فقَبِل رجاءَهم، وبعثوا إلي خورشد يُعلموَنه بخبر عزلِه.

+ فأعلن لهم خورشيد أنه قد تولي من قِبَل السُلطان.ولا يُعزَل بأمر الفلاحين!

+ وأرسل العلماء والمشايخ والأهالي يشتكون للسلطان من الوالي السابق. كما حاصر محمد علي القلعة، وأطلق مدافعه عليها . ثم جاء الفرمان السلطاني بتوليته.

+ وقام محمد علي بقتل المماليك بحيلة. وبالرشاوي - للآستانة - حصل علي فرمان آخر لتثبيته علي ولاية مصر سنه ١٨٠٩، وظل يحكم حتي سنة ١٨٤٧م، حيث اختّل عقله. فحكم إبنه «**ابراهيم باشا**» بدلاً منه.

+ وأعلن محمد علي أنه هو المالك الوحيد لكل الأراضي المصرية، وأن كل حقوق الملكية والأقطاعية تُمنح بواسطته[١]، ولم يهتم بصرخات المساكين، وقام بتكرار حوادث السلب والنهب بقسوة، فغضب منه السلطان العثماني (سليمان الثاني) ولكنه فشل في خلعه.

+ وفي عام ١٨١١م جمع جيشه لتوديع إبنه «طوسون باشا» الذي كان ذاهباً إلي الجزيرة العربية، لإخماد الثورة الوهابية، التي ثارت ضد السلطان العثماني، وعند حضور المماليك إلي الأحتفال بالقلعة قام جنوده بقتل ٤٦٠ فرداً منهم[٢]. كما أمر - في سائر البلاد- أن من يمسك أي مملوكي يقتله. فتم أغتيال الآلاف منهم، وتم نهب بيوتهم، وأعطيت نساؤهم للعساكر الأتراك، ومعهن كل ممتلكاتهم .

+ وكوّن محمد علي جيشاً حديثاً - علي النظام الأوربي - ولم يقف أي مانع ديني أو غيره في سبيل تحقيق هدفه بأن يكون سيداً للديار المصرية، ومع ذلك لم يكن متعصباً . وكان عادلاً ويفعل ما يفيد البلاد. وكان يختلف كثيراً عن الحُكام المسلمين الظالمين السابقين، ولكن لم يأتِ أحد من هؤلاء الحُكام بما آتاه محمد علي من الآستبداد، في سبيل تأييد

(١) وزع محمد علي مقداراً من الأراضي والأملاك علي أتباعه الأتراك ولنسله (**هامش أصلي**).

(٢) يُقال إن المملوكي آمين بك كان داخل القلعة وسمع إطلاق الرصاص، فهمز جواده فوثب به من فوق السور نحو الميدان فقُتل الحصان، ونجا هو (**هامش أصلي**) .

مُلكه. ولم يُقيّد نفسه بالأعتقاد بأية ديانة (ولو أنه أعلن إسلامه لأسباب سياسية فقط كما قالت الكاتبة).

+ وكان يختار أحسن الناس- دون النظر إلي دين أو جنسية - لخدمته. وأحاط نفسه بكثير من الأوربيين المسيحيين لعلمهم وأمانتهم، وكان يثق بهم أكثر من المسلمين - ومنهم الأرمن والاقباط -ولكنه كان يحذر منهم في نفس الوقت.

+ وألغي القوانين الاضطهادية السابقة ضد المسيحيين. وكان يُعاقب بشدة كل من يجده يميل للتعصُّب الديني ضدهم.

+ وكان ناظر ماليته هو المعلم «**غالي**» وكان محمد علي يصغي للوشاة. وقد اتهموا المعلم غالي بأمر كاذب، طمعاً في أمواله. فأصدر أمراً بقتله سنة ١٨٢١م، وقيل إن سبب ذلك هو أن غالي أرسل للسلطان تقريراً حقيقياً عن المالية المصرية. كما قيل أنه رفض تحصيل ضرائب غير قانونية، وتم قتله ـ أمام ابنه ـ بدون محاكمة أو أثبات ذنب اقترفه (وبذلك نال إكليل أمانته).

+ وكان وزير خارجية محمد علي هو باغوص بك. وهو مسيحي أرمنّي، ثم خلفه الأرمّني أرتين.

+ وبعد الانتصار علي الوهابيين في الحجاز، حوّل محمد علي نظره إلي السودان. ومنذ سقوط الممالك المسيحية ـ في النصف الاخير من القرن ١٥م - لم توجد حكومة منظمة في السودان (من وادي حلفا حتي الحبشة)، وكان في أيدي جماعة من العرب من تجار الرقيق، الذين عاشوا علي السلب والنهب، بين السكان المستقلّين الذين كان بينهم القليل من المسيحيين.

+ ولو أن محمد علي باشا كان بلا دين - ولا يعتقد بالأديان - إلا أنه كان

يعرف أهمية الدين في السياسة، لذلك أعد حملَته للاستيلاء علي السودان وكان معه ثلاثة من علماء الاسلام بهدف التوضيح للسودانيين آن الطاعة العمياء من الناس واجبة لأمير المؤمنين.

+ وتقدم الجيش المصري سنة ١٨٢٠م في السودان - بدون مقاومة - حتي وصل إلي سنار، حيث وجد آثار التمدّين القديم الذي زرعه الأقباط[١]، وأنشاوا في السودان كثيراً من الصناعات والفنون والمعامل، بقدر ما أمكنهم. واستطاع محمد علي أن يضم السودان الي آملاك مصر[٢].

+ وبالرغم من آخطاء محمد علي المُرعِبَة، فإن آحوال مصر تحسنّت، وخاصة مشاريع الزراعة (القطن) والري، والصناعة. ونظَّم الشُرطة في المدن. وزادت التجارة والبريد.

+ وأقام محمد علي مطبعة حكومية في بولاق. وآنشأ المدارس وأرسل التلاميذ لأوربا، وغرس البساتين في الجيزة وشبرا والازبكية. وقسّم البلاد الي مديريات.

+ وآستولي الجيش المصري -بقيادة إبراهيم باشا -علي سوريا. وآتجه نحو الأستانه، ولكن تدخلت الدول الأوربية وآوقفته عند حدوده، وتم الصلح مع السلطان العثماني سنة ١٨٣٣.

+ وتساهل أبراهيم باشا في حكم الشام. وسار علي سياسة أبيه - محمد

(١) المعروف آن المسيحية قد اختفت - لحد ما - من السودان، حيث وُجد بعض الأتقياء السودانيين المسيحيين، الذين عاشوا في الاقاليم السودانية يتحملُون تعسُّف المسلمين، حتي الآن. وآنه لما ذهب الجنرال جوردون للخرطوم سنة ١٨٨٤م وجد اسقفاً قبطيا وله - في آبروشيته - ٧ كنائس وديراً للراهبات، وتم إرساله لمصر قبل الثورة المهدية. أما آسقف الخرطوم فقد تنيّح في ربيع سنة ١٨٩٧م أثناء تاليفنا هذا الكتاب (**هامش أصلي**).

(٢) زاد عدد الاقباط وكثرت مشاريعهم التجارية وكنائسهم وخُدامهم في السودان، في عهد محمد علي، فقاموا بنهضة كبيرة هناك ساعدت علي تقدم هذه البلاد كسابق عهدهم بها.

علي – فتساهل دينياً مع الدروز والمارونيين. وأستخدم البعض منهم في خدمته. ولم يهتم بجنس أو دين[1]، لم يضغط ألا علي اليهود فقط، ولكنه لم يضطهدهم بطريقة علنية..

+ وقام الطبيب الفرنسي كلوت بجهد كبير في مقاومة وباء الكوليرا سنة ١٨٣٥، فنال لقب «بك» . كما حدث طاعون سنة ١٨٤٢م للمواشي مع الجراد والكوليرا وزيادة الفيضان عن الحد.

+ ومات محمد علي سنة ١٨٤٩،وكان إبنه إبراهيم باشا قد سبقه بعام إلي عالم الموتي. وتولي الحُكم بعده عباس باشا،حفيد محمد علي.

+ + +

الفصل الواحد والسبعون

الأحتلال الأنجليزي (١٨٨٢م)

+ أولاً نُلَخص الخمسين سنة الأخيرة من القرن ١٩م وأهم أحداثها. فقد حَكم عباس باشا بن طوسون بن محمد علي ٦سنوات، وكانت صفاته رديئة ومات سنه ١٨٥٤، وخَلفَه سعيد باشا بن محمد علي، وكان يُشبهه. وإنحدرت البلاد إلي هاوية الفقر في عهده.

+ ثم تولي بعده (الخديوي) إسماعيل باشا. ولم يكن له ميل للإختلاط بالمصريين أو للعطف عليهم، سواء كانوا مسيحيين أو مسلمين. وكانوا جميعاً يُسَاقون مُسخريِّن للأعمال الشاقة. وزادت الضرائب في أيامه بشدة، حتي أضطر الأهالي للإقتراض بالرِبَا بكثرة من اليونانيين.

---

(١) قيل إن مسلمي دمشق شكوا لأبراهيم باشا بأن المسيحيين كانوا يسيرون في الشوارع راكبين الخيل، فقال لهم بكل هدوء «إن كنتم تريدون الظهور أعظم منهم فاركبوا الجمال» (فتكونون أعلي منهم!!) .

+ إلا أنه يُنسَب لسعيد باشا التَمدِيْن الحديث، وهدّم المعابد القديمة ليبني بأنقاضها المعامل الصناعية، كما أوجد دار الآثار المصرية، وأكثر من التنقيّب عن الآثار المصرية القديمة، وإنشا خط السكة الحديد من الإسكندرية للقاهرة ومنها خطاً آخر إلي السويس.

+ وانتشرت تجارة الرقيق في مصر. وساد الفساد في نظام حكم محمد علي للسودان.

+ وجاء كثير من الأوربيين لمصر، وخاصة من اليونان وإيطاليا وفرنسا.وتوطنوا بها. وقاموا بإدارة البلاد. وزاحموا المصريين في الأعمال الإدارية.

+ واستمر تمتُّع الأقباط بالحرية والتساهُل معهم، منذ عهد محمد علي، وتساووا بالمسلمين في كل الوجوه، حيث أنه منذ الغزو العربي سنة ٦٤١م لم يكن مُصرّحاً لمسيحي مصري - من الحاكِم المُسلم - أن يحمل سلاحاً. وفي تلك الفترة سُمِح لهم بذلك.

+ وقد أصدر سعيد باشا أمره بتجنيد كل المصريين في الجيش المصري بدون تمييز بسبب الدين، فاستخدم المسلمون هذا القانون وسيلة لاضطهاد المسيحيين. فقبضوا - في أسيوط - علي كل الذكور، في أغلب البيوت القبطية وساقوهم للعسكرية. ولم يتركوا ولا واحداً منهم لإعالة النساء والأطفال.

+ ولما أنتظم الأقباط -في سلك الجُندية - أستخدم المسلمون خطة عامة لأضطهادهم وتعذيبهم - خلال التجنيد - لإجبارهم علي تغيير دينهم. كما لم يكن لهم أي آمل في الأرتقاء إلي وظائف الجيش العُليا. وكما هي عليه الحال - في الجيش - حالياً (في عهد الكاتبة).

+ وعلي ذلك فإن قانون التجنيد الذي أصدره سعيد باشا كان سبب شقاء للأقباط . وتذكر مدام بوتشر آن البابا **كيرلس الرابع** الملقب «أبي الاصلاح» (١٨٥٤ - ١٨٦١م) شكا من ذلك للإنجليز. فتم إجبار سعيد باشا علي ترقية الاقباط. ولم يتم ذلك بواسطة حكومة إنجلترا، وإنما بتأثير بعض كبار رجال

الأنجليز، الذين كان سعيد يخشي بأسهم، ويرغب في عدم تكديرهم[1].

+ وبذلك إلتزام سعيد بأعفاء الأقباط من الخدمه العسكرية، ولكنه لهذا آمر بقتل البابا القبطي بالسُم، وتم طرد المئات من الأقباط من خدمة الحكومة!!

+ ولما مات سعيد سنة ١٨٦٣ خلفه إسماعيل باشا (الخديوي) وهو إبن إبراهيم بن محمد علي. وكان مثقفاً بالعلوم ويجيد علوم الهندسة والرسم. وفي عهده زادت الديون للأجانب، مما أنزل البلاد إلي الحضيض رغم ثرواتها الطبيعية الوفيرة!!

+ وكان ميله للشُهرة والعظمة سبباً في تقدم الأحوال الأقتصادية والأدبية.

+ ومد خطوط السكة الحديد بالدلتا. وحفر الترع. وأنشأ مصلحة البريد والبرق، والمدارس. وضبط الأمن، ماعدا بعض عادات القتل والنهب، التي كانت تتم تحقيقاً لصالحه الشخصية!!

+ وكانت معظم مصروفاته علي الحريم اللواتي بلغ عددهن نحو ألف إمرأة، أسكنهن في قصور مختلفة، بناها بالقروض الأجنبية.

+ فقد ساعدت الحرب الأهلية الأمريكية علي أرتفاع أسعار القطن المصري، ولكن سرعان ما أنحدّرت الأسعار، وخضع الكثيرون من المصريين لأصحاب الديون الربوية من اليونانيين.

+ وأنفق اسماعيل الأموال في سبيل حفر قناة السويس. واستدان الكثير من دول أوربا (وخاصة إنجلترا وفرنسا وألمانيا) فتدخلوا في شئون إسماعيل المالية، عن . طريق مراقبين ماليين لميزانية الدولة. ورفعت الحكومة الألمانية دعواها للمحاكم الأهلية المصرية الحديثة (التي آنشأها

---

(١) وعرض مسيو ساباتييه - قنصل عام فرنسا - علي نفس البطريرك استخدام نفوذه في مساعدة الأقباط. بشرط أن يتدّخل البطريرك لدي امبراطور الحبشة لدخول اليسوعيين وإقامتهم هناك (**هامش أصلي**) ولم تذكر الكاتبة ماحدث بالضبط. وفي الغالب أن البابا رفض هذا العرض.

نوبار باشا رئيس الوزراء المسيحي) للمطالبة بديونها. فأنكر إسماعيل هذه الأحكام، ورفض سداد ديونه لألمانيا. فتدخّل السياسي الألماني الداهية «**بسمارك**» لدي السلطان العثماني، الذي طلب من اسماعيل الأستقالة. وولي مكانه إبنه «**محمد توفيق باشا**» سنة ١٨٧٩م. وكان طيب الأخلاق، خالياً من التعصُّب الديني.

+ وأثناء الثورة العرابية سنة ١٨٩٢م. رفض توفيق باشا الأحتماء بالسفن الحربية الأنجليزية، وقد مات فجأة سنة ١٨٩٢، ومات بعده أبوه الخديوي إسماعيل بزمن قليل.

+ وبالطبع تهاجم الكاتبة (الانجليزية) الزعيم الوطني أحمد عرابي. وتصفه ـ للأسف ـ بالفساد والأنحراف مع أصحابه (الضباط) بينما أمتدحت توفيق. وتزعم مدام بوتشر أن البكوات والبشوات الأتراك. وقد هالهم أن يروا توفيق قد عزم باخلاص علي الأستفاده من آراء مستشاريه الأوربيين ـ لتجديد البلاد المصرية ـ فعزموا علي أستخدام عرابي وسيلة لقلب العرش، ولكي يتخلصوا من المراقبة المالية الأوربية!

+ وتضيف الكاتبة قائلة بأن بعض السوّاح الأنجليز كانوا يساعدون عرابي. وأنهم كانوا يعتقدون إنه زعيم وقائد وطني. وإنه يمكنه التغلّب علي رجال الحُكم!

+ وذكرت أنه في شتاء ١٨٨١ / ١٨٨٢ تزايدت غطرسة الجنود ووقاحتهم. وتعرضوا للسيدات الإنجليزيات، وقاموا بسبّهن علناً. وراجت إشاعة بأنه ستتم مذبحة عامة للمسيحيين في مصر.

+ وكانت الكاتبة موجودة، فكتبت تقول :«وبعد بضعة أسابيع جاءتنا تعليمات من الوكالة البريطانية أن كل واحدة – وواحد منا – يحبس نفسه في صندوق صغير ويأخذ معه ضروراته، وأن يستعدوا للدفاع عن أنفسهم». ولكن لم يحدث لهم ضرر!!

+ ولما قامت الثورة (العرابية) قام الجنود بمذابح هائلة في يونيو سنة ١٨٨٢، وهرب توفيق باشا للاسكندرية، وكان يميل إلي التصديق بافكار إشتراك عرابي في المذبحة، وصار يعتقد أنه هو القوة الكافية لحسم الثورة وإعادة النظام. وكان يعلم - من جهة أخري - أن السلطان العثماني يشجع رأي عرابي والثوار، لأنه أنعم عليه بالنيشان المجيدي الاكبر.

+ وهرب الأجانب إلي الخارج مع العائلات التركية. وعرض رجال الأسطول الانجليزي علي الخديوي توفيق أن يركب معهم فلم يقبل، وأعلن أنه لن يترك المخلصين له (ولو أن الجيش المصري كله كان ضده كما تقول بوتشر) .

+ وضرب الأسطول الأنجليزي الإسكندرية، وأمتلأت شوارعها بالرعاع الثائرين وهم يقولون «لنذبح النصاري» ونهبوا البيوت وأحرقوها. واحتل الأسطول قناة السويس. وانهزم عرابي عند التل الكبير في ١٣ سبتمبر سنة ١٨٨٢م.

+ وتزعُم الكاتبة أن دخول الجيش الانجليزي لمصر قد ساعد علي حماية الأقباط والمسلمين من أنتقام الثوار الأشرار. وأنهم ألغوا نظام السُخرة، والعمل بلا أجر .. وإن العدل قد ساد البلاد في ظل الأحتلال، ولكنها تعجب قائلة « إن المصريين لم يقدِّروا تلك المزايا والأصلاحات العظيمة التي آتاها الأنجليز - في بلادهم - قبل الأوان. حيث يقول المثل الانجليزي: إذا كان يلزم ثلاث أجيال، لإيجاد رجل حقيقي، فلا شك أنه لا يلزم أقل من ذلك لإيجاد أمة حقيقية» .

* (وبالطبع ليس هذا هو المجال للرد علي الكاتبة التي دافعت عن إحتلال بلادها لمصر. وربما لأنها لم تعش لتري المصائب التي حلّت بالبلاد من الأحتلال البريطاني، في القرن العشرين كما أنه لم يخدم الأقباط كما زعمت، بل العكس هو الصحيح).

✣ ✣ ✣

الفصل الثاني والسبعون
الكنيسة القبطية في القرن ١٩م

+ كانت الكنيسة القبطية في بداية القرن ١٩م في أسفل درجات الأنحطاط، سواء في عدد الأقباط أو في الظروف التي عاشوا فيها، وكنتيجة للمصائب التي حلت بهم طوال القرون الماضية، وخاصة في أيام المماليك ثم العثمانيين. إذ كانوا عُرضَّة للسلب والنهب يومياً، طبقاً لمزاج مضطهديهم،الحْكام والشعب، من المسلمين الغُرباء والمحليين .

+ ومع ذلك استخدموا الأقباط في بناء الجوامع الجميلة النقوش، كما كانوا يستخدمنهم في كتابة خطوط اليد الرائعة، التي يوجد منها مجموعات كثيرة بدار الكُتب.

+ ولا نُنكر - بلا شك - أن المسلمين كانوا يمّيزون دائماً القبطي الذي أسلم، عند تواجد ظروف التمييز - وتفضيله عن القبطي المسيحي. ومع ذلك كانوا يستخدمون الأقباط المسيحيين أكثر من الذين أسلموا، لأن أغلب الأقباط الذين أضاعوا دينهم المسيحي، يظهر أنهم فقدوا معه المعارف الحِرَفية الفنية والصناعية، التي نبذَها الدين الأسلامي .

+ وكانت ولا تزال صناعة النقش علي النحاس والخشب تُستخدم بنسبة قليلة في بعض البيوت • لكن ماتت صناعة التصوير والرسم بالكلية، بعد الأستعمار العثماني، إلا من القليل من المباني العامة المهمة،التي كانت ذات النقوش الثمينة.

+ ولم توجد أيضاً أية كتابة (نقش) علي الحجارة، مثل تلك التي كان يكتبها الصُنا ع المصريون، من القرن ١٢-١٥م. وبعد تولي أسرة محمد علي المقدوني (الألباني) توقف الطراز المعماري القبطي، وأخلي السبيل للذوق الفرنسي، وأصبحت المباني والصناعات علي النسق الحديث. وقل الطلب علي الصناعات اليدوية. التي برَع فيها الأقباط براعةً عظيمة.

+ وأصبح الناس لا يُبالون بصناعات الاقباط الحِرَفية والفنية الجميلة، لذلك صاروا ينحدرون في درجات الهبوط الفني. حتي فقدوا تلك المزّية العظيمة، وأصبحوا لا يصلحون سوي للأعمال الكتابية (المالية والأدارية) في مصالح الحكومة .

+ ولما تولي محمد علي الحُكم (في أوائل القرن ١٩م) كان تعداد الاقباط ١٥٠ ألفاً فقط، بعد أن كانوا يُعدّون عشرات الملايين في مصر والسودان،بسبب الأضطهادات منذ الغزو الأسلامي .

+ إلا أنه سنة ١٨٥٥ م أحصاهم البابا (كيرلس ٤) فوجد عددهم ٢١٧ ألفاً، بينما كان تعداد سكان مصر - في ذلك الوقت - خمسة ملايين نسمة، ويلاحظ أنهم تحسنُّوا تحسُّناً واضحاً، أبتداءً من أيام محمد علي فصاعداً. ورغم ما تعرضوا له من إضطهادات- فيما بعد - فقد أستمروا في خطة التحسين (الزيادة في الكم والكيف).

+ وتحسنت الكنيسة اليونانية الملكية (الرومية) بعد حكم محمد علي، وابتدأت تدب فيها الروح كالأقباط. ولاسيما بعد تولي بطريركهم «هيروثيوس» (١٨٢٥ - ١٨٤٦)، الذي كان - علي خلاف أسلافه - علي جانب كبير من التقوي والجهاد في خدمته لرعيته. والتي بلغت نحو ٥٠٠٠ يوناني، وقد أحسن الصلات بالكنيسة القبطية.

+ وكان الجالس علي كرسي مارمرقس الإنجيلي هو البابا بطرس السابع الذي خلف البابا مرقس الثامن سنة ١٨٠٩ م، وتنيحً سنة ١٨٥٢. وكانت مدة خدمته أطول من مدد البطاركة السابقين.

+ وكان هذا القديس سامي الأخلاق، واسع العقل (حكيماً) سعيداً بالتحسُّن الجديد الذي تم علي أيامه.وكثير الرغبة في تقدمّ كنيسته.

+ وكانت أهداف المرسلين الكاثوليك - في القرن ١٨م - تدبير طريقة لعمل كنيسة تضم علي وجه الخصوص المسيحيين الملكيين (الروم)، لكنها

تجرّأت أيضاً علي سحب وإغراء كثير من شعب الكنيسة القبطية الأروثوذكسية، مما أوجَّد الشك في قلب البابا بطرس من النفوذ والتيار الديني الغربي (الكاثوليكي).

+ ولكن حدث أثناء ذلك أن شعباً غربياً قام لمساندة الكنيسة المصرية[1] حتي تتقدمّ وتنمو، بدلاً من أن يزداد ضعفها. بواسطة المساعي التي قام بها الكاثوليك، لتبديد أعضائها، وأغرائهم علي قبول المذهب الكاثوليكي.

+ وقد بدأ تلك المساعي العظيمة الإنجليزي «**هنري تاتام**»، الذي أهتم بالمخطوطات القبطية. فكتب إلي «هوني» رئيس الأساقفة بانجلترا. يحضه علي القيام بمساعدة الكنيسة القبطية القديمة، التي عانت الكثير. وتم طبع أربعة أناجيل بالعربية والقبطية، كما طُبعت ترجمات عربية من التفاسير المصرية القديمة (أقول الآباء الأقباط القُدامَي).

+ وفي عام ١٨٣٣م درس **كرزون** المخطوطات القبطية القديمة، وزار أهم الصوامع والأديرة المصرية، وأكد أن المصابيح الزجاجية -التي رآها في الأديرة والجوامع -أنها من أصل قبطي. كما زار تاتام أديرة وادي النطرون. وقد حصل علي مخطوط منسوخ سنة ٦١١م، وأكثر من ٣٠٠ مخطوط علي رقوق جلد الغزال غاية في الروعة. وكانت بمكتبة دير السريان، ونُقلت للمتحف البريطاني.

+ كما زار مصر القس جريمشو عام ١٨٣٩ - ١٨٤٠م. وكتب لرئيس أساقفة انجلترا لمساعدة الكنيسة القبطية. وعرض عليه فكرة انشاء كلية للاهوت للشبان الأقباط الذين يرغبون دراسة اللاهوت، للتكريس للخدمة في الكنيسة القبطية، وتم إنشائها فعلاً. واستمرّت عدة سنوات برئاسة ليدر. وتوقفت سنة ١٨٤٨م. ولكن كان من تلاميذها البطريرك العظيم المعروف بكيرلس أبي الاصلاح.

---

(١) قام الانجليز – قبل هذه المرّة – ببذل المساعي لمساعدة الكنيسة اليونانية (الملكية) ولم يلتفتوا للكنيسة القبطية الوطنية بالمرّة (**هامش اصلي**).

+ ومع أن الكنيسة القبطية عانت في الأيام السوداء، لكنها لم تهمل تعليم أبنائها، فكان في كل إبروشية مدرسة يتعلمون فيها الكتابة والقراءة. وقام البابا كيرلس (الرابع) بانشاء مدرستين: الأولي للبنين والثانية للبنات، وكانت بهما أرقي العلوم التي تُدرّس في المدارس العالية والراقية (وقد تخرج من المدرسة القبطية كبار رجال الدولة المصرية).

+ وكان مجمع الأساقفة قد اجتمع بالقاهرة لإنتخاب بطريرك جديد، واختاروا راهباً مُعّيناً، ولكن الشعب كان يطالب برسامة الشاب كيرلس، فثاروا عليهم أثناء أجتماعهم، ولكن تم اتفاق الأساقفة، والعلمانيين لرسامة كيرلس **مطرانا عاما لمصر**، علي شرط أنه إذا أظهر كفاءة في وظيفة الأسقفية يُنتخب بطريركاً، وهو ما تم فعلاً، فيما بعد.

+ غير أنه لم تُدم رئاسة البابا كيرلس إلا سبع سنوات فقط (١٨٥٤ - ١٨٦١) قضي منها نحو عامين في الحبشة. ومع ذلك بدأ حركة إصلاح عظيمة، تقوت وانتشرت[١]، حتي استلمها أبناء الجيل الحاضر (في أيام الكاتبة سنة ١٨٩٧م).

+ وتولي بعده البابا ديمتريوس ١٩ (١٨٦٢ - ١٨٧٠م) وكان رجلاً صالحاً وعادلاً ولكنه لم يكن في درجة كفاءة سلفه في القيام بالمشروعات التي بدأها حتي أنه أنضم - في عهده - كثير من الأقباط الذين مالوا الي الحياة السياسية الراقية، الي الكنيسة المشيخية (البروتستانتية) الأميريكية.

+ وهذا العمل اضطر البطريرك الي حرم الكنيسة الهرطوقية (المشيخية) التي كانت قد وضعت أقدامها في البلاد، ولاسيما في الصعيد.

+ ولما تنيّح الأنبا ديمتريوس (البطريرك ١١١) تشاور الشعب القبطي - فيما بينهم - وأتفقوا علي أنه قبل أنتخاب بطريرك جديد، أن يُطالب باعتماد

---

(١) وكان البابا كيرلس الرابع قد جلب أول مطبعة أهلية - في مصر - من الخارج، لطباعة كل الكتب والمجلات الدينية.

مشروع البابا السابق كيرلس الرابع (أبي الإصلاح). وقد اجتهد كردينالات روما في آن يقيموا باباهم المقبل بمثل مافعل الأقباط، وبذات النتيجة التي توصلوا إليها.

+ وقد استمد الاقباط ذلك من مادة - ذكرها ابن العسال - في القرن ١٣ - ونصها:

* «**يجب علي البطريرك أن يشاور علماء وأتقياء شعبه من الاكليروس والعلمانيين** (وخاصة من كبار الدولة الأقباط). **مجتمعين. أو علي أنفراد. في كل الشئون الهامة. المختصة بالشعب والكنيسة. وما يقرون عليه يجب تدوينه**».

+ وبناء علي ذلك، وضع نخبة من الأقباط مشروعاً، المقصود منه تأسيس «**مجلس مليّ**»، في كل إبرشية، مكوّن من فرعين «إكليركي وعلماني»، وأن يكون المجلس تحت رئاسة أسقف الابرشية. وأن ينتخب أعضاؤه - كل ٥ سنوات - من الذين لهم حق الانتخاب.

+ وتم اعتماد المشروع من مطران الاسكندرية، ووكيل الكرازة المرقسية، والقائم مقام البطريرك وقتئذ، لخلو الكرسي البطريركي. ووقّع عليه بالموافقة جميع الأساقفة، ولكن الشعب لم يره الدواء الشافي للإصلاح المنشود.

+ وتفاوض أحد أعيان الأقباط مع بطرس باشا غالي. لاستصدار قرار خديوي بتأسيس هذا المجلس، بصفة قانونية رسمية (المجلس الملي العام ومجالس فرعية في الابرشيات).

+ وبعد جدال دام سنتين - في شئون الاصلاح - تم انتخاب البابا كيرلس الخامس - البطريرك الحالي - سنة ١٨٧٥م (واستمر علي الكرسي المرقسي حتي عام ١٩٢٧م)، الذي تعهد عند رسامته أن يوافق - ويؤيد - كل القرارات التي أقرها الشعب القبطي قبل انتخابه.

+ وظل البابا والمجلس الملي (العام) يعملان بيد واحدة - واتفاق تام - في إصلاح الكنيسة المصرية وشئونها الملّية، وتم انشاء المدرسة الاكليريكية بالقاهرة برئاسة المتنيّح القمص فيلوثاؤس، كاهن الكاتدرائية المرقسية (بكلوت بك) بالقاهرة، وكان رجلاً نادر المثال في كفاءته العلمية وإدارته الشخصية.

+ ثم تضايق البابا من وجود سلطة أخري بجواره. ولم يقتنع بأعمال وتعليمات المجلس الملي، الذي لما رأي أعضاؤه أن نصائحهم لا يتم الإلتفات اليها - وغير مرعية - انقطعوا عن اجتماعات المجلس. وتركوا للبابا كيرلس الخامس حكم الكنيسة - بالطريقة القديمة - الي عام ١٨٨٣م. حيث انكشفت عدة أخطاء إدارية أدت الي هياج الشعور العام عند الأقباط.

+ وفي ذلك الوقت كان قد نما جيل من الشُبّان الذين تعلّم أغلبهم في مدارس الأمريكان أو الكاثوليك (اليسوعيين والفرير)، ومع أنهم تمسكُوا بإيمان كنيستهم الوطنية، إلا أنهم تضايقوا من حالتها العامة. وصاحوا مطالبين بإعادة انتخاب أعضاء المجلس الملي.

+ فسلّم البطريرك بمطالبهم. وأُعيدَت الانتخابات. وتمتّ الجلسات وأقر المجلس عدة قرارات. ولكن رفض البابا إقرارها. فصارت حبراً علي ورق!!

+ وفي عام ١٨٩٠م أسس بعض الشبان جمعية كان غرضها إصلاح حال الكنيسة، وأسموها « **جميعة التوفيق القبطية الخيرية**» (لازالت تقوم بدورها الاجتماعي والتعليمي حتي الوقت الحاضر). وأعدّت هذه الجمعية نشرات مطبوعة باللغة العربية والانجليزية - وأثرت تأثيراً حسناً في الشعب القبطي.

+ وكان رجال البطريرك من الاكليروس يخشون من تأثيرها. فسعوا لدي

البابا كيرلس الخامس لحلها، ولكنه أسس جمعية أخري ضدها أسماها جمعية الحق (الأرثوذكسي). وبدأ الفتور بين البابا وجمعية التوفيق.

+ وفي عام ١٨٩١م قام الاقباط بمظاهرة كبيرة، شارك فيها مندبون من كل القطر، ثم قرروا انتداب وفد ليقابل البابا. ويطلب منه بإلحاح ضرورة اجتماع المجلس الملي، وايجاد الإصلاح المطلوب. والالتفات لصوت الشعب.

+ وكان البابا كيرلس الخامس يشبه في طباعه بابا روما، إذ كان ينتقد وجود مجالس ملّية. ولما قابله وفد الشعب. ذرفت عيناه بالدموع وخرج من الغرفة. ثم عقد اجتماعاً مع الأساقفة. وقدّم لهم ورقة وقعوا عليها، ولم يمكننا معرفة موضوعها، ولكننا نظن أنه طلب منهم مساندته ضد طالبي الاصلاح، إلا أن بعض الكهنة رفضوا المصادقة عليها. ومنهم القمص فيلوثاؤس رئيس الكنيسة المرقسية، وقعامصة كنائس الفجالة وبابيلون وحارة الروم وأبي سيفين بمصر القديمة.

+ ثم توجه البابا للقاء الخديوي توفيق باشا، وعرض عليه الوضع. فلما سمع وجهة نظره نصحه بالاستجابة لشعبه.

+ وحدثت عدة خلافات أدت الي قيام حزب الاصلاح بنفي البابا الي دير بوادي النطرون. ثم عاد الي كرسيه بعد مشاكل وانقسامات. واستقبل الشعب بطريركه بالهتافات والإكرام. ولكنه رفض الاعتراف بالمجلس الملي، ولم يسمح باستكمال أعماله الإصلاحية. وأعلن عدم قانونية تكوينه. وكان ذلك حقيقة. وقام بحل المجلس. واختار أربعة من رجال هذا المجلس للنظر في شئون الطائفة، لحين تجديد انتخاب مجلس جديد.

+ وبعد عودة البابا كيرلس من المنفي - ببضع سنوات - تغيرّت أحوال الكنيسة الي الأفضل، وتعاون معه رجال الاصلاح (الأقباط).

+ وتم إعادة افتتاح الاكليريكية. وصرح البابا لخريجيها بالوعظ في الكنائس. وكان أمل الشعب أن يكون منهم كهنة، أكثر تنويراً من الكهنة القُدامَي.

+ وأما المساعي الانجليزية، التي بُذلت في مساعدة الكنيسة القبطية (من وجهة نظر الكاتبة الانجليزية) فهي:

أنه بعد الاحتلال البريطاني لمصر سنة (١٨٨٢م) تأسست - على الفور - جمعية حملت اسم «زيادةانتشار المسيحية في مصر»، ولكنها تعقدت - منذ أول افتتاحها - لأنها رفضت الاعتراف بأن الكنيسة القبطية هي الكنيسة المصرية الرسمية، ولهذا كان تأثيرها محدوداً جداً في البلاد.

+ وتتبع البطريركية القبطية في عهد الكاتبة ١٣ أبرشية، ٦ منها في رُتبة المطرانية. ويوجد بها ٨٣٧ كاهناً، ٢٧٥ كنيسة الآن (١٨٩٨م) وبإضافة كنائس القاهرة والاسكندرية اليها يصير المجموع ٤١٨ كنيسة قبطية، بخلاف الصوامع والأديرة للرهبان، وثلاثة أديرة للراهبات.

+ ولقبَ بطريرك الكنيسة المصرية هو «البابا الكلي القداسة، بطريرك الاسكندرية وجميع الديار المصرية وبلاد النوبة (السودان) والحبشة (إثيوبيا) والخمس المدن الغربية (ليبيا) وجميع الكرازة المرقسية»(مضافاً اليها حالياً بلاد المهجر).

+ والكنيسة القبطية (الأرثوذكسية) يُسمّيها الاقباط «**الكنيسة**» ويدعوها الأجانب «**الكنيسة القبطية**». ويُسمي الأقباط الكنيسة اليونانية «**كنيسة الأروام**» ويُسمون الكنيسة الرومانية «**كنيسة الكاثوليك**». أي الكنيسة الكاثوليكية اللاتينية. وأما الكنيسة المشيخية، وكل الطوائف المنشقة منها، فمعروفة عند الاقباط باصطلاح عام هو «**كنيسة البروتستانت**».

+ + +

الفصل الثالث والسبعون

من العادات والتقاليد القبطية

(١٨٩٧م=١٣١٣ش=١٣١٥هـ)

+ تغيرَّت كثير من العادات لدي الأقباط، نتيجة لإنتشار الحرية الدينية والتعليم، في السنوات الأخيرة (أواخر القرن ١٩م) وتغيرَّت النظرة الي المرأة، التي اقتبسوها من المسلمين، وسُمح لها بالخروج بمفردها!! ولم تخرج عن الحد المطلوب للحرية في الملابس.

+ وتنتقد الكاتبة شدة الحزن علي الموتي، ووصفتها بأنها عادة فرعونية.

+ وتذكر الكاتبة أن الأقباط في زمانها، كانوا يعتقدون - كأجدادهم الفراعنة - بأن روح الميت تظل هائمة علي مكان معيشته لمدة ٤٠ يوماً، قبل الحُكم بذهابها لمقرها الأخير (الفردوس أو الجحيم)، وأنها توزن «بميزان»، بمعرفة رئيس الملائكة ميخائيل، الذي ينوب عن السيد المسيح بهذا العمل (وهو فكر فرعوني)!! وأن البعض يزعمون - في زمانها - أن الملاك ميخائيل له السلطة التامة - في يوم واحد من السنة - ليفتح فيه أبواب الجحيم (وهو نوع من المطهر المزعوم عند الكاثوليك في رأيها) ويُخرج منه كثيراً من الأرواح المتألمة. ثم يطير بها علي أجنحته بسلام (إلي أين)؟!

+ وبالنسبة لاحتفالات الزواج عند الأقباط، ومنها تقليدهم في عدم مشاهدة العريس لخطيبته، وغالباً ماكانت تتم صيغة (صلاة) الزيجة قبل وصول الزوج والزوجة الي سن الزواج (الولد في سن ١٥ سنة، والفتاة في سن ١٢ سنة) ثم زيدت السن - بنصائح الكنيسة - فلم يعُد يُسمح الآن بالزواج (في عهد الكاتبة) إلا عند بلوغ الشاب العشرين من عمره، والفتاة السادسة عشرة، ولا يتم الزواج إلا بموافقة الأسقف رسمياً علي

الزواج، قبل ممارسة الطقوس الكنسّية، التي كانت تتم في الكنيسة، إلا في ظروف قهرية، في منزل العريس.

+ وفي عام ١٨٩٥م أصدر البطريرك (كيرلس الخامس) منشوراً عاماً، بعدم قبول عقد (ممارسة سر) الزيجة قبل أن يَري الخطيبان بعضهما بعضاً. ويقضيا وقتاً يتعرَّف فيه كلاً منهما علي أخلاق وصفات الآخر، وأن يتأكد الكاهن من ذلك، من أهالي العروسين. وأن يسألهما – علي أنفراد – إن كانا يوافقان – بكل رضا – علي الإقتران ببعضهما من عدمه؟!

+ وتمتدح الكاتبة تعاون الأقباط الأغنياء في رعاية الفقراء، وعدم وجود أي نوعية من الشحاذين منهم-مثل غيرهم – كما تشهد بأدبهم وأخلاقهم الفاضلة، ومحبتهم للصناعات الحرفية، وميلهم للعمل بجد-وأخلاص تام للعمل الرسمي.

+ وفي النهاية تعترف الكاتبة صراحة بأن اللورد «كرومر الانجليزي» قد قرر عدم استخدام سوي المسلمين في المصالح الحكومية، لأنهم أصحاب الأكثرية في رأيه (وهو رأي فاسد بالطبع) وقد نفّذ رأيه بكل قدرته (في محاولة منع الأقباط من العمل بالحكومة).

+ ثم قالت: «إنه من عهد محمد علي إلي الآن (١٨٩٧م) لم يتعيّن قبطي في وظيفة مدير – أو وكيل مدرسة – ولو أنه أرقي وأذكي وأكثر ولاءً من غيره، ولكن – علي أية حال = هذه مصائب صغيرة يكابدها شعب عظيم، تألم شديد الألم، أكثر من ألف عام» (أو بالأحري نحو ألفيّ سنة، حتي الآن).

✢ ✢ ✢

كلمة ختامية:

+ إن المطلع علي هذا التاريخ، يجد فيه العظات والعبَر. والدروس المستفادة. مقدمة لكل حكيم، في كل زمان ومكان، ليري بصورة عملية نتيجة الأعمال الطائشة، التي مورست بلا حكمة ولا روّية، كنتيجة لكبرياء النفس، ومحبتها للماديات، ورغبتها في السلطة. وفي النهاية تموت حتماً مثل غيرها، كما قال أحد البسطاء «إن العظام صاروا عظاماً». وماذا استفاد الملوك والأباطرة والولاة الجبابرة، والقساة القلب الذين ظلموا العباد، وظلموا أنفسهم!!

+ وقد قدمنا هذا الكتاب «**موجزاً**» **لما سجلتّه الكاتبة**. ودون أن يخلّ بالأحداث الهامة والشخصيات العامة السياسية والدينية، وأما كل الراغبين في البحث التاريخي العلمي. فيمكنهم الرجوع الي النص الأصلي المُطول جداً. والمُفصَّل لأحداث - كثيرة مكرّرة. في كل عصر. ومُملّة جداً للقاريء العادي. ولذلك وضعناها - في مجلد واحد - بالحجم والتلخيص المناسب. وبلغة سهلة وجذابة.

+ ونرجو أن نكون قد حققنا الهدف من نشر هذا الكتاب، وهو أن يكون إضافة جديدة لباقي كتب التاريخ القبطي القديمة والحديثة. التي أعددناها. والتي قامت مكتبة المحبة - مشكورة - بنشرها، بطريقة جميلة ومْبسَّطة، وتصلُح لكل المستويات، من راغبي معرفة تاريخ الكنيسة القبطية، وماعانته - مع شعبها - طوال التاريخ، أي منذ فجر المسيحية. وإلي الآن، والله المُستعان.

+ + +

تم بحمد الله

أطلب لنفس الكاتب من كتب التراث

١) موسوعة الجوهرة النفيسة في علوم الكنيسة لإبن سباعَ.

٢) الخريدة النفيسة للأنبا إيسذيروس.

٣) مصباح الظلمة لإبن كبر.

٤) موسوعة تاريخ البطاركة لأسقف فوة.

٥) موسوعة الطقوس (٤٠٠ سؤال وجواب).

٦) موسوعة علم اللاهوت للقمص ميخائيل مينا.

٧) القول الصحيح في آلام المسيح، للأنبا بطرس السدّمنتي.

٨) بستان القديسين لبلاديوس وچيروم.

٩) قديسو مصر لأوليري.

١٠) القديسون المصريون لبول شينو.

١١) موسوعة سيرة المسيح (٢٦ جزءاً).

١٢) الموسوعة القبطية الشاملة (١٨ مجموعة × ١٢ كتاب).

١٣) موسوعة تفسير الكتاب (العهد الجديد).

١٤) تاريخ البطاركة لساويرس (إبن المقفع)

١٥) موجز تاريخ المسيحية للأنبا ديوسقورس (أسقف المنوفية الراحل)

١٦) عصر المجامع للقمص كيرلس الأنطوني

١٧) عظات في كلمات (١٨ جزءاً)

١٨) الغذاء الروحي (٣٦٦ عظة يومية)

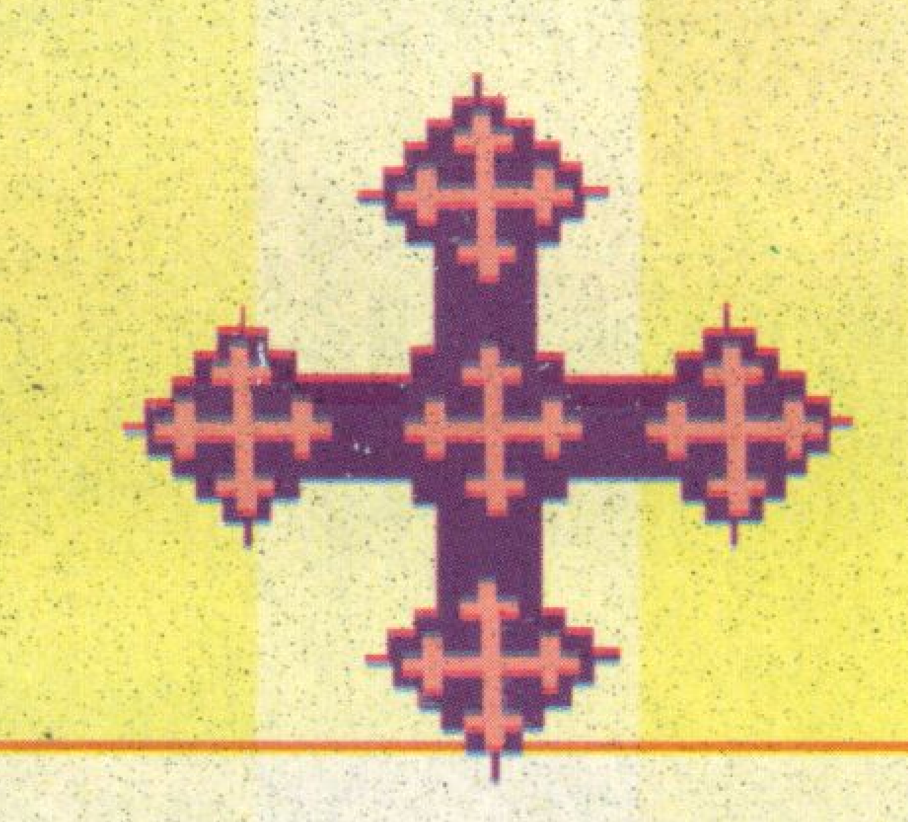
١٩) المسيح في جميع الكتب

الفهـــــهــــــرست	الصفحـة

الفـــــهـــــــرست	الصـفـحـة

الجزء الثاني

الفهرست	الصفحة



هذا الكتاب :

+ هو إستكمال للسلسلة التى أعددناها عن أهم مصادر تاريخ الكنيسة القبطية بصفة خاصة، والتاريخ المقدس بصفة عامة.

+ وتمتاز الكاتبة بالدراسة التحليلية العلمية والتاريخية والوثائقية، المستمدة من أهم المصادر التاريخية بمصر وبالخارج، مع ربطها بالأحداث السياسية والإجتماعية والإقتصادية المعاصرة لها، مما يجعلها هامة جداً لكل الباحثين والدارسين، علاوة على انها تضم معلومات كثيرة غير موجودة فى المصادر التاريخية القبطية، ونافعة للخُدَّام، ولكل مُحبىِّ تاريخ الكنيسة.

+ أطلب باقى المجموعة من مكتبة المحبة



٣٠ ش شبرا - القاهرة - مصر
ت: ٥٧٥٩٢٤٤ - فاكس: ٥٧٧٧٤٤٨
E-mail:Mahabba5@hotmail.com